مغاربة في بيت أمريكي

مغاربة في بيت أمريكي (رواية)

محمود عبد الغني (كاتب مغربي)

الطبعة العربيّة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط 1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-490-0

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(1533/ 3/ 2022)

306

عبد الغني، محمود

مغاربة في بيت أمريكي: حارة الوادي/ عبدالغني محمود عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(320) ص

ر.إ: 1533/ 3/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

محمود عبد الغني

مغاربة في بيت أمريكي

رواية

تضم هذه الرواية جزئين سبق نشرهما مستقلين، الأول تحت عنوان «معجم طنجة»، والثاني «في الصيف والخريف فقط». واليوم أعيد نشرهما في كتاب واحد بعنوان مغاير، وبعد إجراء بعض التعديلات في البنية.

م.ع

(1)

معجم طنجة

«بدا المكان في حالة متقدمة من الانهيار حينئذ كما لو أنني أحيا بين ثنايا قصيدة لنوفاليس».

بول بولز

«هل العشق يجعل الإنسان غبيا أم أن الأغبياء فقط يعشقون».

أورهان باموق

- 1 -

هناك اسم قديم لمدينة «طنجة» ظل محمد شكري يفضله عن الاسم الحديث. المباني القديمة أوروبية الطراز، والمقاهي، والمدافع العتيقة على الأسوار، والأسواق، والأحياء القديمة، والمطاعم، والرسائل التي تصل من العالم أجمع، مثل الكُتّاب، هي ما يبقيه في «طنجيس». مدن عديدة سميت للأشجار الموجودة فيها. «بانكوك» هي «بان» مدينة، و«كوك» هي الزيتون، أي مدينة الزيتون، وقد سميت كذلك بسبب أشجار الزيتون الموجودة فيها بوفرة. وهناك مدينة سميت «مدينة الملائكة» دون معرفة الداعي إلى تسميتها كذلك. وطنجة سميت عن الطين الذي حملته الحمامة التي حطت على سفينة نوح حين رست بالخطأ على الشاطئ: «طين جا»، أي «جاء الطين»، كناية عن اليابسة القريبة. يابسة النجاة لمركب نجا من الطوفان العظيم.

أما بَشَرة أهل طنجيس البيضاء الصافية فراجعة إلى وجود بحرين متألقين يحيطان بها مثل وشاح مائي متلألئ. وحتى الأشجار، وهي أجمل تحف المدينة، تبدو أوراقها صافية اللون وشفافة كأنها نبتت ونمت في الظل. وإن قارن المرء بين ناس وأشجار مدن الجنوب، الأشجار هنا والنخيل هناك، فإنه سيقف بإعجاب أمام بياض طنجيس مقارنة بلون الجنوب الذي يميل إلى لون الحداد. لكن في الليل تُترك مدن الجنوب

للشموع تضيء البيوت من الداخل، بينما القمر يتكلف بإضاءة الخارج دون أن تمنعه أشجار النخيل من الوصول إلى الرؤوس المتجولة بحثا عن نسمة هواء.

لكن ما لا يستطيع المرء مقارنته هو تلك الأعمدة التي تستند عليها طوابق المباني الأوروبية، والتي عندما يُسدل ستار الليل، وتُضاء المصابيح على قمم الأعمدة، تُظهر المدينة في لبوس معبد بوذي أرجواني اللون يبوح بأسراره لأرواح الخلّص ما أن تُضاء أول شمعة. تتعدد صور الحياة، وتتنوع نغمات الكون، فتصبح المدينة لوحة ذات ألوان مغايرة لألوان الساعات السابقة. هذا ما يعرفه أهل طنجيس والوافدون عليها من القرى والأرياف والمدن الأخرى، مكان يتغير دون إشعار مسبق، وناس النهار مختلفون عن ناس الليل.

هناك رجال هربوا إلى المدينة دون أن يعرف مطاردوهم إلى أين اتجهوا. فثغور طنجيس لا تفضح الهارب. يختبئون حتى تختفي آثارهم وفجأة يخرجون من بقايا الرماد. هناك رجال هربوا منها دون معرفة مصائرهم بعيدا عنها، هربا إلى بحار خصوبة شاسعة وغير محدودة: أمريكا، أوروبا... وبقوا من بعيد، اللهم إلا بعض الاقترابات النادرة والمتفرقة، يشهدون نهاياتها وتشرذمها وتيهها الجهنمي الذي تذهب إليه بطيب خاطرها. فقد دخلت لعبة تناسخ هائلة مع مدن عربية أخرها قررت إنهاء حياتها على الأرض. فكانت روح طنجيس تذهب نحو تلك المدن

المنهارة، وحين لا يتم السماح لها بالذهاب تستدعيها سريا، لأنها على وعي تام بأنها تستدعي الانهيار إلى حضنها، والمحير أن هناك دائما حلما يتراءى لها. وبعد الحلم يسود صمت طويل، وتردد غير مفهوم، وارتجاجات تهدد كل شيء بالسقوط.

كانت كل السفن التي تأتي إلى مينائها، تتحول عند اقترابها إلى هياكل سوداء بفعل السُّدم التي تغشى عرض البحر. بحرها الذي يقدسه الصيادون والشعراء والرسامون والفلاسفة والمؤرخون والموسيقيون. بحرها هذا يتحول في لحظات شديدة الكثافة إلى جرعة ماء في أيدي القراصنة. وما أن تدفع تلك السفن الموجات بقوة لتتكسر على الشاطئ، أو على أحجار وحواجز الميناء، حتى تفوح روائح خانقة، وتنتشر مياه سوداء لا يُعرف مصدرها. ربما هي بقايا ذلك الطين الذي حملته الحمامة في رجليها إلى مركب نوح.

تختفي النوارس التي كانت تُحلّق منخفضة. فيعرف أهل المدينة أن السفن قادمة لنشر أشياء كثيرة تضم اللغات والسلع والرسائل والكتب والمهاجرين والفارين والأمراض القاتلة، تماما كما كانت تحكي الأساطير القديمة. فهل تقدر طنجيس على استدعاء الأساطير القديمة، وتكرار عيشها؟

– 2 –

أخيرا أمكن لمحمد شكري أن يرى توماس لانيير ويليامز، الشهير بـ«تينيسي وليامز» الذي ملأ أسماعه منذ سنين. يرى أمامه التمساح العجوز يتكلم وينصت ويضحك، قبل أن يختفي من أمامه متذرعا بموعد وشيك، أو بالذهاب إلى مركز البريد قبل الإقفال لاستلام أعداد من مجلة أو حوالة مالية. هل هذا ما قصده محمد زفزاف حين قال: «سترى شهابا سريعا».

زفزاف دائما يُوفّق في إطلاق التسميات الرائعة حين تبدأ لحيته تقطر خمراً. لم يخطر هذا التشبيه على ذهن زفزاف حين التقى تينيسي في مرسم أحمد اليعقوبي في صباح نفس اليوم. ودون شك ما أوحى بذلك التشبيه هو عجلة تينيسي واختفاؤه السريع من مرسم اليعقوبي. وليس بسبب حركاته أو طريقة كلامه.

كان شكري قد قرأ له مسرحيته «قطار اسمه الرغبة»، ومات من الرغبة، هو الميت من الجوع، والعطش، والخوف. هو الميت من الماضي والذكريات. وكان يجد أن اسم توماس أجمل من تينيسي المستعار. لكن ذلك شأن خاص بالتمساح العجوز، ومتعلق بالذائقة الاسمية الأمريكية. فقد يجد تينيسي أن الاسم الحقيقي لمحمد شكري الذي هو «الشيكر» أفضل من شكري. لكن ليس مهما الآن البداية بلعبة تفضيل الأسماء عن

بعضها، فالاسم جميل حسب الناطق به، وبحسب الأصداء التي يخلفها في ردهة النفس.

جاء تينيسي إلى طنجة هربا من أمريكا، عازما على التوجه بعد ذلك إلى بلدان أوروبية لم يحددها بعد. هذا ما قاله لصديقه بول بولز. تماما مثلما هجرت «ستيلا دي بوا» بطلة مسرحيته، عائلتها البورجوازية لتعيش مع زوجها «ستانلي كوفالسكي»، البولوني البائس.

إنها حياة تينيسي نفسها، ذلك الخليط من الحب والعنف. هذا ما يعرفه شكري عن القادم الجديد إلى مدينة البوغاز. ولكن تعبير زفزاف «الشهاب السريع» جعله يمسك بالشهاب من المنطقة الباردة، غير الحارقة، ليبقيه أطول وقت أمام عينيه، جنبه في المقهى، والحانة، والبيوت التي يُدعى إليها لتناول عشاء، أو كأس أو لحظة متعة بجرعات كبيرة في سهرة من السهرات في بيوتات الأجانب في طنجة.

في تلك الأيام كان شكري قد نشر الجزء الأول من سيرته الذاتية في مجلة «أنطايوس»، بترجمة بولز. ولم يحصل من الناشر «دانيال هالبرن» على مليم واحد. ففكر في أن يعطي لتينيس الفصل الأول لقراءته وإبداء الرأي فيه، وفي نفس الآن سؤاله عن إمكانية الاتصال بالناشر لإرسال شيك. وحتى مسألة إبداء الرأي هذه ليست مهمة بقدر ما مهم أن يعرف تينيسي أنه رفقة كاتب مغربي يكتب باللغة العربية ومترجمه هو أحد أكبر فناني وكتاب أمريكا الأحياء.

يرتبط اسم تينيسي في ذهن شكري بمسرحيات عديدة تُرجمت له إلى العربية أعجب بواحدة منها تحمل عنوان «هبوط أورفيوس»، وأيضا «قطة فوق صفيح ساخن». كما أنه يرتبط أيضا بذلك الكاتب العظيم الذي حين لا يكون مجبرا على كتابة حوار سينمائي بشكل عاجل، أو بإجراء تعديل، أو إعادة كتابة مسرحية سيقدم عرضها الأول بأحد مسارح مدينة برودواي، فإنه يجلس إلى مكتبه لكتابة القصص والروايات.

لكن مما لا شك فيه أن لقاء شكري بتينيسي كان بفضل بولز وحده، وبفضل زوجته المرحومة جين آور صاحبة الرواية الرائعة «امرأتان رصينتان». جين التي عذبها المرض قبل رحيلها في تلك السنة، والتي كان لها الفضل في أن أصبح اليعقوبي فنانا مشهورا. بول وجين شخصان خاليان من التفاهة، وبفضلهما أصبح شكري كاتبا، واليعقوبي رساما، والمرابط كاتبا شفويا مشهورا بفضل ترجمة بولز لمحكيات حياته الشفوية «حياة مليئة بالثقوب». تُرى لو لم يترجم بولز كتاب شكري «الخبز الحافي»، هل كان سيلتقي تينيسي؟

عندما قرأ تينيسي الفصل الأول من كتاب شكري أعجب به، واحترمه ورافقه ككاتب. ورغم فقره فهو غني بتخييله، بحكاياته، بمذكراته، بتوقه واجتهاده.

جلس شكري في مقهى باريس ينتظر قدوم تينيسي، كما أخبره اليعقوبي وزفزاف. يعود الكاتب الأمريكي إلى طنجة بعد زيارته لها سنة

1964. بقي رجل «الخبز الحافي» ينتظر وأمامه على الطاولة شاي أسود بالليمون. ينظر إلى الكأس ويتخيلها مليئة بالفودكا، الخمرة التي أدمنها حين كان يشتغل مع بولز على ترجمة «من أجل الخبز وحده» إلى الإنجليزية. ينتظر ويفكر: «هل تينيسي ما زال يشرب الخمرة، على عكس بولز الذي أقلع؟».

في سنة 1973 تجاوز تينيسي عقده السادس بسنتين. كاتب في أوج شهرته. وشكري يصغره بعشرين سنة، وليس في رصيده غير ذلك الكتاب المدوي مترجما إلى الإنجليزية «من أجل الخبز وحده». ليس الكتاب هو تأشيرته إلى مدينة الكتابة الفاضلة، بل مترجم الكتاب بول بولز. وهو كاتب تربطه بتينيسي صداقة قوية. وهو يحبه حبا لا مثيل له بفضل وقفاته إلى جانب زوجته جين حين كانت تتخبط في براثن المرض، منتقلة من عاصمة إلى عاصمة. وبولز لا ينسى ما فعله من أجل العناية بزوجته جين، كان آخرها انتظاره واستقباله لها في مطار نيويورك وهي عائدة من لشبونة حيث كانت تعالج التشنجات التي كانت في كل مرة تكاد تودي بحياتها. كانت لشبونة مدينة غائمة ومعتمة وماطرة على الدوام لم تتحمل جين البقاء فيها، لكنها كانت تتحملها من أجل العلاج. وفي النهاية خرجت منها بعد انتهاء مدة صلاحية جوازها.

استقبل تينيسي «جين» المريضة الأمريكية التي بدأت تعاني من مشاكل في الكلام، وكانت قد بدأت في تلقي دروس قراءة يومية. وانتقالها إلى

نيويورك، بحسب قرار والدتها، كان من أجل الدخول في تجربة علاج أمريكية. ولم يكن تينيسي ينتظر جين آور زوجة صديق عمره بول بولز، بل كان ينتظر الكاتبة العظيمة ذات الروح المرحة مثله، التي لا يستطيع أي كاتب في سنها كتابة حوار مثل هذا:

- الآن لا تفارقيني أبدا بعينيك. سأقوم برقصة عبادة الشمس. بعد ذلك سأبرهن لك على أنني أفضل أن أرى إلها بدون شمس على أن أرى الشمس بدون إله. هل تفهمين؟

قالت ماري:

- نعم، ستفعلين ذلك فورا.
- نعم وهنا بالذات.

كتابة عظيمة، وأفكار خارقة لامرأة لم تترك سوى رواية ومسرحية ومجموعة قصصية. وشكري لا يعرف شيئا من تلك الروابط الإنسانية والأدبية العميقة التي لم يسمع بمثلها في الأدب المغربي، أو العربي برمته. شكري يفكر في إيجاد مكانة في الأدب، وفي كأس فودكا في بيت بولز. فرغم أن صاحب «السماء الواقية» قلّل من الشرب، إلا أنه سيشرب نخب تينيسي هذه الليلة. شكري ذئب عطشان، لكن هل سيدعوه تينيسي إلى سهرة قي بيت بولز؟

كل ذلك الحوار جرى بينهما في مقهى باريس. لم يلاحظ شكري التعب على تينيسي العائد من أمريكا، ومن عمل متلاحق دون فواصل.

من المسرح إلى السينما إلى القصة القصيرة إلى السهر مع الأصدقاء. واليعقوبي لا يمتلك فن تقديم الناس لبعضهم. قدم شكري لتينيسي، وقدم تينيسي لشكري، ثم هوب: «تينيسي يفتش عن فيلا ليقضي فيها عطلته». الكلام موجه إليه بحجة أنه يعيش باستمرار في طنجة.

اليوم حار جدا. تينيسي يتأبط جريدة إنجليزية، ومرافقه يحمل آلة تصوير فخمة ولا يتكلم. ليس شكري وحده من اشمأز منه، بل الاشمئزاز باد على تينيسي نفسه. لشكري خبرة في فحص مزاج الكتاب الأجانب، لقد سبق أن رافق جان جينيه، وكتب عنه كتاب «جان جينيه في طنجة». فهل ينوي كتابة «تينيسي وليامز في طنجة»؟

وهما في طريقهما إلى وكالة كراء سأل شكري كاتبه المفضل عن مدى معرفته بترجمة كتبه إلى العربية. فأجابه بأنه سمع بالأمر ولا يعرف مدى جودة تلك الترجمات، لكنه سعيد بكونه ترجم إلى العربية. لكن شكري لم يسمع جيدا بداية جملة طويلة أنهاها تينيسي بكلمة «غلمان». إذن الرجل السائر إلى جنبه صاحب غلمان. التفت شكري إلى اليعقوبي، ثم إلى مرافقه الجامد بحثا عن مساعدة. اليعقوبي منشغل بالحديث مع مرافق تينيسي، وهذا الأخير منهمك في أخذ صور لسيده وهو يسير.

بدأ يمشي ببطء ويلتفت إلى واجهة مكتبة تقع بالقرب من فندق «رامبراند». سأله شكري عن سر التفاته إلى المكتبة، هل يبحث عن كتاب ما؟ لكن كان بسؤاله هذا كأنه فتح نافورة حكايات وذكريات متدفقة.

اقترح تينيسي عليهم الدخول إلى الفندق وتناول كأس للاحتماء من حر طنجة. اعتذر اليعقوبي فودعهم ضاربا موعدا معهم في يوم غد بمقهى باريس. أما الفكرة فنزلت على شكري بردا وسلاما. طلب تينيسي شراب فرني برانكا، وطلب شكري كأس فودكا. ثم بدأ يحكي بشوق واسترسال عن جين بولز الرائعة. أما باكسه فلم يكف عن أخذ الصور. وحين طلب منه شكري أخذ صورة تذكارية مع تينيسي رفض بكل وقاحة بدعوى أنه لم تبق له سوى خمس صور. تينيسي منشغل بالتذكر. لن يفارق ذاكرته ذلك اليوم الذي عاد فيه رفقة جين على متن باخرة، وكان في انتظارهما بولز يلوح لهما بيده وهما يدخلان المرفأ. كانت جين بصحة جيدة، لكنها تحرص على تناول أدويتها بشكل كثيف. وحين رأى بولز علامات التعافي على حبيبته كاد يطير من الفرح. انتقلا من المرفأ إلى البيت للاحتفال بعودتهما من أمريكا. في تلك الأيام كان بولز منشغلا بتسجيل الموسيقى المغربية. وقد كان يستغرب كيف أن المغاربة أنفسهم أطلقوا عليها «موسيقى المتوحشين». ولذلك اعترض العديد من مثقفيهم على ما كان يقوم به بولز. استعان لإنجاز عمله بشخص يدعى محمد العربي الجيلالي. قال شكري إنه يعرفه، فقد عمل في وقت ما في بعثة بريطانية عبر الصحراء والسودان. فأضاف أن بولز كان يرافقه شخص أمريكي يدعى كريستوفر وانكلين، وهو يتحدث لهجة مغربية جيدة غير أنه كان نصرانيا. وبولز، بحكم تجربته الطويلة في المغرب، كان يقول بأنه يُستحسن أن

يرافقك شخص مسلم حيثما ذهبت في المغرب. تركني أنا وجين في طنجة وهام على وجهه في الصحاري والجبال. وفي تلك الأيام بدأت والدة جين تراسلها من أجل العودة إلى أمريكا.

سأله شكري عن موقف جين من طنجة، وعن مدى رغبتها في مرافقة بولز في رحلاته تلك. فشرح له إنها كانت تعرف طاقتها على تحمل السفر في الجبال. كان يحكي لها بولز عن التعثر والركود الذي يعترضهم أثناء تلك الرحلات. وغالبا ما كانت تتم تلك الرحلات في الصيف والمطر بعيد عن سماء المغرب. ليال عديدة يقضيها حول النار الموقدة والطبول التي تُقرَع تحت النجوم. ورغم وجود الموسيقى كان يتعذر تسجيلها بسبب غياب الكهرباء. كانت حكاياته تثير رومانسية جين وحسها الذي يميل إلى التيه. لكن لا طاقة لها على تحمل كل ذلك، فكانت تكتفي بسماع حكايات الصحراء والجبال والقمر والطبول. ألف ليلة وليلة معكوسة، شهريار يحكي لشهرزاد.

كم أراد شكري أن يسترسل تينيسي في حكاياته عن بولز. غير أن شكري عمل على نبش ذاكرته ليحكي عن حياة بولز المشتركة مع كتاب أمريكيين آخرين مثل ويليام بوروز. الكاتب طويل القامة والهادئ. وعن ترومان كابوت، قصير القامة وغريب الأطوار. فشكري يريد معرفة كل شيء عن حياة بولز الغامضة. فقد كان يحس أنه يخفي شيئا من تاريخه، ولا يفتح صفحات هذا التاريخ إلا للأمريكيين. أما المغاربة فلا يستحقون

معرفة تفصيل واحد من تفاصيل حياته الغنية والكثيفة. لكن تينيسي فضل البدء بـ«بوروز»، لأنه الأشد ارتباطا بـ«بولز».

مع الكأس الثالثة شرع تينيسي في الحكي عن بوروز. وطول صمته يبين أنه كان محتارا في كيف يبدأ الحديث عن صداقة بدأت من نقطة معينة. من مرض بولز بالتيفوئيد، أو بحمى شبيهة بالتيفوئيد. بقي طريح الفراش مدة ثلاثة أسابيع في غرفة باردة في فندق مارسيليا، الذي كان يقيم فيه هو وجين حديثة العودة من الولايات المتحدة. وكانت تقيم في غرفة أخرى رفقة خادمتين كانتا تساعدانها في تحضير كل شيء، خصوصا الطعام الذي يحتاجه بولز طيلة اليوم. وذات صباح زاره رجل نحيف لعيادته رفقة أحد معارف بولز في طنجة. لم يكن بولز في تلك الفترة قد أصدر شيئا غير كتاب تحت عنوان «عاشق». بولز الذي كان دائما على معرفة محيطة بالأدب الأمريكي، وخصوا جيل البيتز، لم يسمع بالكتاب ولا بالكاتب. هكذا بدأت صداقة أدبية خالدة لم يوقفها سوى الموت.

شكري نفسه كان يلاحظ أن حياة بولز هي مجموعة من المتواليات. ففي مرة هو مريض ومقعد، وفي مرة أخرى يستقبل إيطاليين لا تفارق القيثارات أكتافهم، وفي مرات يختفي لينجز مشروعا لكتاب. فذات مرة رحل إلى فاس هاجرا طنجة التي وجد أنها بدأت تمتلئ بالكراهية والخوف، والصحف التي يطالعها كل صباح تخبر عن جرائم وجثث مجهولة في أماكن كثيرة من طنجة. لاحت فاس أمام قلبه. أخبره بعض

الأمريكيين أنها مدينة آمنة تساعده على إنجاز كل ما يريد. وحين جاء الصيف اختفى دون إشعار. ذهب شكري إلى بيته في المساء وطرق الباب عدة مرات ولم يجبه أحد. حتى المرابط غير موجود.

وفي صباح اليوم التالي أخبره اليعقوبي بأن بولز في فاس. آخر واحد يمكن أن يخبره بولز عن أماكن وجوده هو شكري. لكنه وافقه الاختيار، إن فاس تصلح ورشة للكتابة فعلا. أما طنجة فهي مدينة تنهار أمام أعين الجميع. لكنه ما أدرك أن فاس هي الأخرى تنهار من يوم لآخر ويتفرج عليها أهلها. أليس من الجنون بناء بيت فوق نافورة؟ البيت الذي اكتراه بني فوق نافورة، لذلك كانت جدرانه مبللة طوال الوقت، ورغم محاولته طلاءها وترتيب غرفه إلا أنه لم يستطع الصمود فيه أكثر من شهر. وحين اتصلت به جين تسأل عن الأوضاع وتستشيره في الالتحاق به رفض، وفي اليوم التالي عاد أدراجه إلى طنجة. ووضع برنامجا للعمل من أجل كتابة رواية جديدة.

قال تينيسي لشكري إن بولز غير مطمئن تماما لما يحدث في طنجة. فالناس أصبحوا يعثرون على الجثث أمام بيوتهم. الأجانب خائفون جدا على حياتهم وممتلكاتهم. منهم من رحل ومنهم من يتدبر أموره من أجل الذهاب دون عودة. لكن شكري رد قائلا إن بولز لن يرحل إلى طنجة، لقد أصبح جزءا منها وأصبحت جزءا منه. وفي أقصى حالات سخطه

سيستقل الباخرة للذهاب إلى باريس أو لشبونة، وفي ذلك خير له وخير لزوجته جين.

كان اليعقوبي قد أخبر شكري أن بولز وجين سيرافقانه إلى سايلون حيث تم وضع ترتيبات لعرض آخر رسومات اليعقوبي. وبولز يسأل عن الجو هناك، فلا شك أنه حار وجين لن تتحمل. لكن جين كانت مُصرّة على السفر. ظهر على تينيسي أنه يسمع تفاصيل جديدة عن حياة بولز وزوجته. فقال لشكري:

- اشرب وتكلم، سأنصت إليك إلى آخر الحكايات، أنت من سيحكي لي دوما، كما كنت تحكي لبولز.

قال شكري إنه يلوم بولز على العديد من الأشياء، وغير متفق معه في الكثير من المواقف. فهو مثلا ينعت الطنجيين بالجياع والمتسولين، والوطنيين بالإرهابيين. المغرب يعرف تغيرات تاريخية، وهو يريده أن يبقى على حاله لينعم بالسلام. هنري ماتيس أيضا كان يفضل أن تبقى طنجة على حالها. وهل ينعم أهله بالسلام مع الاستعمار؟ هذا هو السؤال. هل سيبقى الطنجيون جياعا إلى الأبد؟ هل يريد ماتيس أن تبقى زهرة عاهرة إلى الأبد ليرسمها في شرفته؟

تذكر تينيسي فجأة أن بولز ينتظره في البيت على الساعة السادسة مساء. عليه أن يذهب إلى الفندق ليغير ثيابه ويحمل معه بعض الكتب لبولز، وبعض الأشرطة الموسيقية. لم يقل شيئا لشكري غير:

- نكمل كلامنا عند بولز في المساء.

ثم خرجا كل إلى وجهته. تينيسي إلى الفندق، شكري إلى لا مكان في مدينة طنجة. ندم عن كل ما قاله أمام تينيسي عن بولز. لابد من وضع حد للهجة القاسية ضد مترجم كتابه. فبولز يفضل سماع مثل هذا الكلام أمامه، وليس أمام شخص آخر هو من أعز أصدقائه. فقد يفهم ذلك تشهيرا وتلويثا للسمعة. لكن تينيسي، هذا الرجل المرح، لا يمكن أن ينقل الكلام إلى بولز. فكَّر شكري في إصلاح الأمر في المساء.

- 3 -

في الطريق إلى الفندق، تحت شمس حارقة، لم يتمكن تينيسي من إيقاف سيارة أجرة. فهي على قلتها في طنجة، تمر مسرعة دون أن يلتفت السائقون إلى الناس السائرين على الأرصفة، أو المنتظرين تحت ظل بيت، أو في انعطافة زقاق. هذه هي الجيوب التي ينتظر فيها الناس. في أمريكا السائق هو من يبحث عن الزبائن في الشوارع والأزقة. هذا إضافة إلى ظهور وكالات صغيرة تربط الاتصال هاتفيا بين الناس والسائق. حين وصل إلى الفندق وجد نفسه مجهدا وبه رغبة في الارتماء في السرير. لكنه قاوم وحمل الكتب والأشرطة وغيّر الملابس، ووضع قميصا صيفيا داخل كيس صغير هدية منه لصاحب «من أجل الخبز وحده». فقد لاحظ لباسه الشتوي في صيف طنجة الحار.

حين اجتمع الضيوف في بيت بولز، فتح المرابط النوافذ، وأزاح الستائر ليستمتعوا بضوء القمر المكتمل. فقمر طنجة حين يكون في اكتمال، يشبه تحفة من الضوء يهديها الله لعباده نهاية كل شهر من فصل الصيف. فهذا القمر الذي يكلل الرؤوس، كثيرا ما سهر تحت ضوئه بولز في الصحراء والجبل حين كان يطوف لجمع الأغاني والإيقاعات البعيدة.

المرابط لا يكلم شكري، وشكري لا ينظر جهة المرابط. فالمرابط لم يعد يطيق وجود المغاربة في بيت بولز. جفناه متدليان من كثرة تدخين

الكيف في المطبخ وهو منشغل بتجهيز طعام العشاء. وشكري عينه على قنينة الويسكي الفاخرة التي أخرجها بولز من مغارة علي بابا على شرف تينيسي.

جلست جين على الكرسي الفخم في وضع يجعلها تشرف على الجميع. أعلى منهم قليلا لدرجة أنها تستطيع رؤية رؤوسهم من فوق لو مدت عنقها قليلا نحو الأعلى. جلس بولز على الكرسي الواطئ القريب منها. ثم خاطبهم قائلا:

- ألا تشعرون أن طنجة متوترة أكثر من أي وقت مضى؟

نظرت جين إلى تينيسي، ثم غيرت الموضوع. فتينيسي يصاب بالفزع من مثل هذه الأخبار، هو القادم من أمريكا للبحث عن الكلمات والأفكار.

- هل أطلعت تينيسي على الرسالة التي وصلت إليها من ناشر زيوريخ؟

علق شكري قائلا:

- الرسائل تصل، إذن طنجة بخير.

قبل أن يتكلم بولز نظر شزراً إلى شكري:

- الرسائل تصل حتى خلال الحروب. بل في الحروب تصل الرسائل سليمة. هذه الرسالة أعطاها لي ساعي البريد بوغالب. مدها لي يدا بيد رافضا أن يضعها في صندوق الرسائل.

علق تينيسي:

- آه بوغالب، كيف حاله؟ لابد أن أكلمه عن طرد بريدي يضم رسائل وأعداداً من مجلة «بلاي بوي»، سيرفضون تسليمها لي لأنها باسم تينيسي وليس باسمي الحقيقي الموجود في جواز سفري.

بحيوية قفزت جين:

- غدا سيعود بوغالب وأكلمه في الأمر، ففي الأسبوع الماضي كان هنا ليسلمني رسالة من شخص أمريكي لا نعرفه، لكنه قدم نفسه في الرسالة بأنه قرأ روايتي «سيدتان حازمتان» وشعر بالنفور من لغتها وأحداثها. ومع الرسالة بعث رواية تحمل عنوان «رحيق في غربال» لكاتبة لا أعرفها تدعى «كمالا ماركاندارا»، وهي هندية بحسب صورتها والتعريف المقتضب المثبت على الغلاف. وكتب في ورقة صغيرة: «هذه فكرتي عن الرواية الجيدة».

سأل تينيسي وهو يبتسم:

- وهل هي رواية جيدة فعلا؟
- الكاتبة شابة هندية جميلة بشكل مدهش. لكن بولز أخذ مني الرواية وشرع في قراءتها.
- نعم لقد قرأت القسم الأكبر منها، وهي رواية مهمة فعلا. سرد مدهش وتفاصيل الحياة الهندية التي لا نستطيع نحن السيطرة على حبكتها. يبدو أن الكاتبة تعيش في لندن. المهم كل من يقرأ سيشعر

بأنها تعيش في الخارج، في أوروبا، لأنني شممت رائحة تقنيات السرد الأوروبي.

مدّ بولز الرواية إلى تينيسي، فعلق قائلا ما أن قرأ الغلاف ورأى صورة الكاتبة:

- لها وجه شاعرة.

في هذه اللحظة خرج شكري عن حياده، فالنقاش لم يعد أمريكيا، بل أصبح يقترب من نقاش معرفي حول السرد الأوروبي.

- للهنود تقاليد سرد عريقة منذ ليل الأزمنة، تماما مثلنا نحن العرب.

بخبث وجه تينيسي سؤالا لشكري:

- ماذا تكتب هذه الأيام يا محمد؟

- رواية عنوانها «الخيمة».

- أنتم العرب لم تفترقوا عن الخيام.

- لأن شمسنا حارقة.

تحسس شكري الكيس الذي أعطاه إياه تينيسي. القميص داخله، كم تمنى لو رماه على الأرض وغادر البيت! لكنها ستكون خطوة غير مضمونة، فمصيره كأديب يوجد بين أيدي الأمريكيين، والمغاربة: المرابط طباخ بولز، واليعقوبي أصبح أكثر من الأمريكيين في كل شيء.

بقيت جين تراقب الحوار دون تدخل. وهي نفسها مسها نصيب من الإهانات خصوصا حول رواية اعتبرها قارئ أمريكي مجهول أنها أفضل

من روايتها «سيدتان حازمتان». فقررت الشروع في قراءتها هذه الليلة. استرخت أمام الجميع، واتجهت بنظرها نحو القمر، فبدت كأنها تحلم. فجأة دخل اليعقوبي، ووجدنا غارقين في نقاشات وتأملات مختلفة عما عهده في الجلسات والزيارات السابقة. يعرف شكري أن اليعقوبي جالسٌ في سطيحة مقهى باريس، قبالة القنصلية الفرنسية، ينتظر غروب الشمس. دائما يجلس في ذلك المكان ليشاهد الشمس تغيب وراء بناية القنصلية.

قال شكر بصوت مرتفع وبإلقاء شبيه بشاعر يقرأ قصيدة:

- نحن نشاهد رجلا قادما من وداع الشمس.

جلس اليعقوبي ومد لتينيسي عددا من مجلة «هيرالد تريبيون». شكره تينيسي وقال بصوت وطريقة محمد شكري:

- نحن نشاهد الرجل الذي سيرافقني غدا في جولة إلى السوق الداخلي.

رد اليعقوبي:

- لقد ازداد السوق سوءا، لا يمكن زيارته في هذه الأيام. لقد امتلأ بالمتسولين واللصوص والداعرين.

استفسر تينيسي بدهشة:

- يا إلهي، العالم يزداد سوءا.

لم يتمالك شكري نفسه:

- الرجل الذي ودع الغروب يبالغ. من كثرة ما عشت في أمريكا صارت لك نفس تخاوفه.

ظهرت على شكري علامات التوتر. بولز غير مهتم بمشاعر الآخرين. بل في لحظة بدا غير مهتم حتى بصديقه وضيف تينيسي. بقيت جين تراقب تينيسي وشكري واليعقوبي الذي لم ينبس بكلمة واحدة. أما بولز فهو إمبراطور الليلة. جين تمتلك قدرات تحليلية نفسية فطرية. وقدرتها تلك تفوق بكثير قدرات بولز. جاء المرابط ووضع طابق سميك رائحته شهية. دفعه نحو تينيسي وقال:

- هيأتُ لك سيد تينيسي سمكة على الطريقة المغربية.

أما بولز فقد أومأ للمرابط إيماءة تعني: «هات غليون الكيف». أما شكري فسرح في غياهب ماضيه. الحالة تنتابه كلما تعرض للإهانة.

لكن ما الذي يعنيه كل ذلك في النهاية؟ يعني ببساطة أن الروح سفينة جميلة تغرق، يبقى الناس يتحدثون عنها بعد مرور مئات السنين. وهناك من يغوص ليبحث عنها وفيها. وشكري يعود على الدوام إلى السفينة الجميلة الغارقة. وإن ترددت ذاكرته أو عجزت يقوم بإتلافها وتمزيقها بنصف زجاجة ويسكي. وإذا لم تنجح كل هذه الحيل والأساليب يتخيل أنه يمسك في يده بندقية ويبدأ في إطلاق الرصاص على جدران البيت. أو يذهب للبحث عن قبر أبيه فهناك كلام كثير يريد أن يقوله عند رأسه.

أخيرا يرى محمد شكري تينيسي وليامز الذي ملأ أسماعه من سنين. فيتوجه له بالقول:

- تعرف سيد تينيسي، أنت تشتهي السمكة التي أمامك، وأنا أشتهي الوقوف عند رأس أبي وهو في قبره. وهذه ليست فكرة تمردية تدور في رأسي فقط، بل هي مشهد مسرحي أريد أن أؤديه أمامك أيها المسرحي الأمريكي تينيسي وليامز. ونهض شكري ووقف على يديه وبدأ يصفق برجليه ويقول:
- سأقف عند قبر والدي وأقول له «جيت نزورك يا بابا».

كان أيامها تينيسي يعاني من عقم شديد في الكتابة. فوجد في المشهد الذي أداه أمامه محمد تجديدا للإلهام. ضحك الكاتب الأمريكي حتى الصخب. الشيء الذي زاد محمد إبداعا جسديا وحركيا مقرونا باللغة والحوار. صمت تينيسي وأشعل سيجارة، وتبادل النظرات مع بولز، ما معناه أن هذه الحركات واللغة ينقصهما المعنى، تنقصهما المقبرة والقبر. هذا هو المعنى المفقود في هذا المشهد القصير. مفقود لأن شكري لا يعرف قبر والده في المقبرة. لم يزره مرة واحدة منذ دُفن. وحين سأله تينيسي ويليامز عن مكان قبر والده في المقبرة، أجاب: «القبر موجود في مكان ما من المقبرة، ومن السهل أيضا ألا يكون موجوداً.

كان تينيسي وليامز في تلك المرحلة يريد سماع الكلمات التي يبحث عنها، والتي ستشكل بداية عمل أدبي. وكان يفضل انبثاقها من الصمت لا

من الصخب. إنه قادم وخَلَّف وراءه الأمسيات الجميلة التي أنارتها مسرحياته في برودواي. لذلك كان كلما وجد نفسه يتلذذ بمشهدية شكري، يبدأ في ترديد سؤال الواعظ المسيحي يوحنا بنيان: «ما الذي ينبغي أن أفعله لكي أنجو؟». والجواب كان على شفتيه: «علي أن أغادر الآن».

قبل أن يغادر تينيسي بيت بولز، صافح جين وأوصاها بتناول الدواء، تاركا وراءه شكري واقفا على رأسه وهو يردد بصوت مرتفع: «جيت نزورك يا بابا». كلمات شكري تسمع حتى في العاصفة. ضحك تينيسي من جديد. وما أضحكه ليس كون شكري الذي أمامه يختلف عن شكري الذي التقى به صباحا. ما أضحكه هو وقوفه على يديه ورأسه والحركة التي يقوم بها برجليه في الهواء وهو يقول: «جيت نزورك يا بابا».

انحنت جين والتقطت رسائل سقطت من الجيب الخلفي لسروال شكري، ووضعتها على الطاولة منتظرة عودة البهلوان إلى رشده. كانت رسائل موجهة إلى أصدقائه دون شك. لم تفلح جين في قراءتها لأنها لا تعرف قراءة العربية. صفق بولز بيديه معلنا نهاية السهرة ومنبها شكري إلى المغادرة. بسماعه تصفيق بولز حضر المرابط لينظف المائدة من الكؤوس، ويحمل السمكة التي لم يأكل منها أحد شيئا، وخصوصا ليطرد شكري الذي بلغ أوج نشوته.

– 4 –

خلال سهرة البارحة لاحظ الجميع أن بولز كان صارما مع جميع الضيوف، حتى مع تينيسي القادم من أمريكا. لقد أصبح يشعر بعدم الراحة في وجود الآخرين. فلم يكن هناك ما يدعوه لمشاركتهم في أحاديثهم وتبادل الأسرار معهم. وعزلته الجزئية البارحة هي مقدمة لعزلة كاملة سيرتمي في أحضانها خلال الأيام القادمة. وزاد من حدة ذلك أن لا واحد كان مستعدا للعب لعبة الجسر، الشيء الذي جعل الجميع يوجدون داخل روتين سهرة البيت. لكن أكثر ما كان يشغل بولز هو تلك الرسالة التي جاء بها ساعي البريد بوغالب، وهي من والدة بولز تخبره فيها أنها ستصل رفقة والده إلى المغرب في الشهر القادم. وبذلك عليه القيام بعدة أسفار بين اليوم وبداية الشهر القادم، والعودة إلى طنجة في الوقت المناسب لوضع الترتيبات اللازمة لاستقبالهما. كما أن جين ستسافر إلى كاليفورنيا، وكعادتها ستعود رفقة العديد من الأشخاص، منهم حتى أولئك الذين قاموا بزيارات عديدة للمغرب ولم يكونوا معجبين به كثيرا. فلماذا يعودون مرة أخرى؟

كان بولز ينظر إلى البيانو، الذي جاء به إلى شقته من أجل العمل، ويتحسر. نقله على ظهر حمار من المحل التجاري إلى هنا. لكن الحمار رفض اجتياز بوابة الدار، فسقط البيانو على الأرض، وساعده مغربيان في

حمله مجددا. وهكذا رُكن البيانو في هذه الزاوية وهو في أسوأ حالاته، قبل أن يأتي الإسباني، مصلح الآلات الموسيقية لإصلاح الفاسد فيه.

كانت رأسه مليئة بأفكار موسيقية عديدة لا يستطيع إنجازها. أفكار عامة وإيقاعات متنوعة جاء بها من الأماكن المختلفة التي زارها في التلال المحيطة بطنجة خلال السنوات الأخيرة. والكراسات العديدة ومختلفة الأحجام الموجودة في درج مكتبه تنتظره كل يوم، دون أن يستطيع إخراجها ولمسها والتفكير فيها. كما أنه خائف من شكري. فهو غير مطمئن لملازمته لتينيسي طوال الوقت. ربما يريد كتابة كتاب عنه، كما فعل مع جان جونيه «جان جونيه في طنجة». سيسأل اليعقوبي عن الأمر، وسيحذر تينيسي حتى يضرب حسابا لتحركاته وألفاظه. فلشكري ذاكرة قوية مثل آلة تسجيل، وخيال جامح، يمكنانه من كتابة كتاب في ثلاثة أسابيع. وسيورط الجميع من قراء اللغة العربية، بل واللغات الأخرى، مادام قد بلغه أن مترجما يعمل على ترجمة «جان جونيه في طنجة» إلى اللغة الفرنسية، وربما غدا إلى الإنجليزية.

بدأ بولز يقتنع بأن شكري سيصطاد كل من يزور طنجة ليكتب عنه كتابا: ويليام بورز في طنجة، جاك كيرواك في طنجة، جين بولز في طنجة، ألان غينسبورغ في طنجة، ترومان كابوت في طنجة، فرانسيس بايكون في طنجة... إلخ. فهذا الشيطان الريفي لا يمكن معرفة أفكاره، فهو لا يظهرها لأحد حتى تكون مكتملة وصلبة ولا يمكن إزالتها، لقد أصبحت

موجودة فعليا. غير أنه يشك في أنه يمتلك تلك القدرة كاملة، فحياته مقسمة بين السُّكّر والكتابة والقراءة. إضافة إلى أنه لن يستطيع الكتابة عن كل هؤلاء، وخصوصا منهم الذي يمر من سماء طنجة كالشهاب السريع. ومن جهة أخرى لن يكتب في مجالات بعيدة عن الكتابة، كالرسم مثلا. وبذلك لن يستطيع إنجاز كتاب «فرنسيس بايكون في طنجة»، رغم علمه أن هذا الرسام العبقري موجود على الدوام مع أحمد اليعقوبي يعلمه الرسم. وأنه، على خلاف عادته، سمح لليعقوبي بزيارته في مرسمه في القصبة ومشاهدته وهو يرسم. والدافع في تلك الزيارة أن أحمد كان يجد صعوبات كثيرة في تعلم كيفية تدبر صباغة الزيت. إضافة إلى أن أحمد لا يعثر على المواد التي يحتاج إليها الرسام في طنجة. ففتح بايكون مرسمه أمام أحمد للتدريب على الرسم بالمواد التي جلبها معه من لندن في كميات جيدة.

كما أن شكري لن يستطيع كتابة «ويليام بوروز في طنجة»، لأن بوروز يتحدث في كل المواضيع ما عدا الكتابة. وأكثر من مرة قال «بوروز» لـ«بولز» إن شكري كاتب استثنائي، بفضل صفائه النادر وذكائه الخارق، وأنه قد حدثه في أمر كتابة كلمة يصدر بها ترجمة كتابه «جان جونيه في طنجة» إلى الإنجليزية التي سترى النور قريبا، وأنه موافق وملتزم بكتابة التصدير. إضافة إلى أن بوروز يظهر ويختفي، ولا يترك وراءه أثرا يستطيع شكري اقتفاءه. أما ترومان كابوت فهو شبح بالنسبة إليهم جميعا. فزياراته

خاطفة إلى طنجة، وسرعان ما يعود إلى شقته في بورتو فينو بإيطاليا، حيث يفضل قضاء لياليه وتصريف حماقاته. هذا إضافة إلى ضعف فرضية عودته مرة أخرى إلى طنجة، فقد كان دائما يحاول إقناعنا بأن طنجة تعيش ظروفا جديدة، ومظاهر العدوانية فيها راشحة، وستتوقف قريبا على أن تكون مكانا صالحا لإقامة الأجانب. كما كان ينصحنا دائما بالانتقال إلى مدينة فاس. يكفي احتضانها لأمكنة طبيعية، ووجود روائح أشجار التين والأرز وأحواض النعناع. فهي مدينة تعيش عصرها الذهبي. وفعلا كان يثيره هدوؤها، فضجيج الحركة المرور فيها لا يتعدى أصوات الأجراس المعلقة على أحصنة العربات التي تقطع الطريق الفاصل بين «باب بوجلود» و«الملاح». ولن ينسى أبدا أنني كتبت فيها إحدى رواياته. وهو يذكر اليوم الذي وصل فيه إلى فاس عند الغروب. ومنذ ذلك اليوم وكل شيء يتبدى له أشد غرابة وأكبر حجما ولمعانا عشرات المرات قياسا إلى طنجة.

أما تينيسي فصيد ثمين، والطعم في صنارة شكري وفير. لذلك فـ«تينيسي وليامز في طنجة» كتاب ممكن جدا. وهناك، بحسب بولز، عدة عوامل مساعدة. تينيسي سيبحث عن بيت أو فيلا للإقامة فيها. وشكري سيبحث معه. تينيسي يحب الغلمان، وشكري جور إليهم. تينيسي يتردد كثيرا على مركز البقريد لاستلام الطرود التي تصله من كل العالم،

وشكري صديق لساعي البريد بوغالب. إذن شكري وتينيسي لن يفترقا لحظة واحدة، وتلك هي المادة الخام للكتاب.

نام تينيسي تلك الليلة في غرفة هادئة ورأى حلما. وكان من عادته أن ينهض ويدون الأحلام التي تنتابه. رأى طرقات وسلالم وأشجار زيتون وخيزران. شعر بسعادة هادئة هي أصلا في جوهر الحلم. وعلى التو نهض من فراشه وتوجه إلى المكتبة وأخرج غلافا كبيرا به مجموعة هائلة من القصص القصيرة. شغل موسيقى مغربية أندلسية يستمع إليها كثيرا قياسا بالأغاني الأخرى، وبدأ يقلب الأوراق ويرتب القصص. بقي وحيداً يقلب الصفحات والرفوف دون أن يشعر به أحد، فالمنزل تتسع أرجاؤه لحركاته فلا يشعر به أحد. في تلك الفترة كان قد نشر قصة قصيرة بمجلة «بارتيزان ريفيوز». وجد القصة ضمن المجموعة، لم يذكر كيف احتفظ بها، ربما في فترة فاصلة بين سفر وسفر، وهي قصة وصف فيها مشاهدات من شمال إفريقيا. وبين أوراق الملق وجد مقالة صحفية عن رواية «اجري أيتها الخراف، اجري» لصديقه الروائي «غوردن ساغر». وهي مقالة استاء منها ساغر كثيرا. وهو روائي يحب المغرب كثيرا، وإذا ما استقصت عليه الكتابة فيه، قام بتعويضه بإيطاليا. كما عثر أيضا على مخطوطة مسرحية «في المنزل الصيفي» لزوجته جين. كم كانت تبحث عنها، وعلى مخطوطة لعمل موسيقي من تأليفه نسخته بيدها صديقته الموسيقية «بيغي كلانفيل هيكس» بخطها الواضح. ثم زفر بأسى «إيه، تلك العبقرية التي

كان يضربها زوجها «ستانلي بايت» على الدوام، ويترك آثار دمائها على الحيطان». حين شعر بالتعب وبعودة النوم إليه، أعاد كل شيء إلى مكانه، ورجع إلى السرير. فغداً يوم جديد.

في الصباح الباكر استيقظت جين وعملت كل ما في وسعها لاجتناب إيقاظ بولز. هيأت الفطور بنفسها، وهو عبارة عن خبز اشترته من السوق، زيت زيتون جلبه المرابط من عند أحد بائعي الزيوت في بادية محيطة بطنجة. جلست تتناول فطورها في الصالون الذي جمع أصدقاء الأمس. وشرعت في قراءة رواية «رحيق في غربال». كانت تعيد قراءة الجملة مرات ومرات. فالكاتبة شاعرة فذة، وعقلها مليء بالحكايات، وعينها ملتقطة ماهرة. أحست بالكآبة والخمول، فالطقس في الخارج يبعث على ذلك. سمعت هسيساً منخفضاً، فالريح تهسهس وتحرك أشجار الأوكاليبتوس وأجمات الخيزران التي تحد الشوارع. تلك الأشجار التي تصغي جين كل ليلة لأصوات الزيز المختبئ فيها. للتغلب على حالة الكآبة والخمول ارتدت جين ملابس الخروج وتوجهت نحو مركز المدينة للسير سيرا متاهيًّا. مرت أمام فندق جيرترود شتاين، فيلا فرنسا، وكان يغص بالسياح. هل جرترود هنا أم أنها رفقة أحد الرسامين؟ فقد أخبرتهم الأسبوع الماضي عن رسام سوريالي هولندي يقيم في طنجة يدعى كريستيان توني. ودعتهما للقاء به رفقة صديقته «أنيتا». لكن بولز أبدى موافقته ظاهريا فقط. فهو، كما قال لجين، يتوقع لقاء رتيبا مع هذا الرسام الهولندي. فما

الجديد في الأمر؟ رجل هولندي سيريهم لوحاته الواحدة بعد الأخرى. وماذا بعد؟ رغم أن جيرترود أكدت أنه رسام مهم يجيد رسم المناظر المغربية. وفي النهاية، ورغم الممانعة، زار بول مرسم الهولندي، وشرب جعة رفقة صديقته أنيتا، وجيرترود المبشرة به.

وجدت جين نفسها أمام مركز البريد دون قصد منها. فقد بدأت تنتابها حالات من السهو. دخلت المركز وبدأت تبحث عن صديق شكري، بوغالب ساعي البريد الذي يشبه رجلاً إسبانيًّا. أخبرها أحد أصدقائه أنه غادر المركز منذ ساعة، ولن يعود إلا في الرابعة زوالا. أكدت جين على الموظف أن يخبره بضرورة المرور في المساء إلى بيت بول بولز. وسر هذه الدعوة أن جين سمعت من شكري أن بوغالب يكتب قصصا قصيرة وأشعارا.

وهي عائدة إلى البيت، تذكرت ما قاله بولز عن طنجة: إن «سحرها كامن في توبوغرافيتها التي تزخر بمشاهد حلمية نموذجية: شوارع مغطاة كما لو كانت ردهات تفضي أبوابها إلى غرف في كل جهة». أين هي الشوارع المغطاة التي امتدحها بولز؟ بقيت جين تمشي تحت الظلال، مجتنبة لسعات الشمس التي لا تتحملها. إضافة إلى شعورها بالتعب، فهي أيضا لم تستطع النوم في الليلة الفائتة. جين تفضل شتاء طنجة على صيفها. يروقها اعتكاف الشتاء الاضطراري، وهي تسمع صوت الريح

وهي تزمجر، وتصفع نوافذ البيت. تستمع للعاصفة طيلة الليالي وهي تحني أشجار الشوارع.

مرت جين من أمام مقهى إسباني، بلغتها رائحة البن المطحون القوية، فهي تؤمن بالعلاج بالروائح. دخلت المقهى وطلبت من النادل الإسباني كأس قهوة مركزة من نفس البن الذي شمَّت رائحته. تكلم النادل بالعربية قبل أن يستدرك وينطق بجملة ترحيبية بإنجليزية ضعيفة. فكرت جين أن المغاربة على حق حين لا يعتبرون الإسبان أوروبيين. لم تتوقع أن تقوم بتعديل في برنامجها، إذ خروجها من البيت كان بغرض السير في جميع الاتجاهات ثم العودة، والاستحمام والجلوس مع بول لمعرفة برنامجه الأسبوعي، إذ إنه في تلك الأيام كان قد عقد اتفاقا مع شخص مغربي للذهاب في رحلة إلى الجبال لاستكمال برنامج تسجيل موسيقى جبلية مغمورة. ولقول الصراحة، جين لم تكن موافقة على تلك الرحلات، كما أوضحت لأمها ولصديقاتها في الرسائل. فبولز كلما ذهب إلى جبل أو صحراء عاد بدون تسجيل. يعود متعبا ومتذمرا وساخطا، ويعلن أمامها عدم تكرار تلك التجربة، فعوض تضييع الوقت والجهد والمال في رحلات فارغة، سيجلس ليكتب رواية جديدة اختمرت في رأسه. لكنه سرعان ما يعتزم تكرار التجربة، آملا النجاح في التجربة الجديدة. وذريعة نجاحه هي أن السلطات المغربية أوصلت الكهرباء إلى تلك المناطق. لقد أصبح هو نفسه بطل أسطورته هذه.

لكن بولز مصر هذه المرة، كما السابق، على خوض تجربة جديدة خلال هذه الأيام، فوالداه، كما أخبراه في آخر رسالة، سيقدمان إلى طنجة مع بداية الشهر القادم. تحسست جين حقيبتها استعدادا لمغادرة المقهى، لكن رائحة البن المطحون جعلت قشعريرة نشوة تسري داخلها. رفعت يدها عن الحقيبة وسرحت في ملكوت جديد. لاشك أن البن قد أعاد إلى وعيها يقظة جعلتها مسرورة ببرنامج اليوم. جاءها إحساس أن المقهى باخرة من تلك البواخر التي استقلتها من أمريكا أو برشلونة إلى طنجة، حيث جمعتها تجربة عيش مشترك مع أناس لا تعرفهم من كل الجنسيات، ومن مختلف المهن والوظائف. كانت تلك الرحلات تكلل بالنجاح، لأنها تشعر أن المرض يغادر جسدها، فتبدأ تجربة عيش جديدة كأنها ولادة ثانية.

وهي سارحة في ملكوتها الخاص، تناهى إلى مسمعها موسيقى كلاسيكية يبرز فيها عزف بطيء للبيانو. تذكرت هذه المعزوفات الخالدة التي لم تسمعها منذ سنوات طويلة. موسيقى حميمة وقريبة من العقل قبل القلب. فتولَّد لديها انطباع بأنها هي من ألفتها دون دراية منها. شكرت الله لأنها ما زالت قادرة على الاستمتاع بالموسيقى، وبهذه الظلال التي تنعش النفس. رفعت بصرها وتأملت فضاء المقهى الذي وجدته نموذجا للمعمار الإسباني. على الحائط لوحة لسالفادور دالي. اللوحة هي نفسها المنشورة في مجلة «بازار هابر» الموجودة بأعداد كثيرة في مكتبة بولز.

تحسست جين حقيبتها من جديد، فلاحظت وجود شيء داخلها على شكل كتاب. حين فتحت الحقيبة وجدت رواية «رحيق في غربال». وشرعت على الفور في قراءتها مع النظر إلى صورة الكاتبة على الغلاف بين الفينة والأخرى. بعد قراءة بضع صفحات، نادت على النادل لتؤدي ثمن القهوة وتغادر، لكنه لم يسمعها. أرادت الخروج للسير في أزقة طنجة، لكنها لم تستطع، فعادت لقراءة الرواية. وحين تثيرها في الرواية فكرة أو شخصية ترفع نظرها إلى لوحة سلفادور دالي المعلقة على الحائط. وحين اقترب النادل من جين قال له:

- ألم تفكروا في شراء بعض الزهور ونثرها على الطاولات. إنها موحشة هكذا بلا زهور.
- أنتم الأمريكيون تنثرون الزهور حتى على الأسرة. لقد دخلت بيوتكم وأقمت في فنادقكم. أما نحن الإسبان فلا.

نظرت جين إلى طفح جلدي حاد في يدها، وفكرت في ألا تترك تعليق الإسباني دون تكملة:

- غدا سأعود ومعي ما يكفي من الزهور.
- شكرا سيدة جين، بلّغي سلامي إلى السيد بولز. لقد التقيت به الأسبوع الماضي في «ريتز». كان يسأل عن بيت صغير يريد شراءه. هل وجدتم ذلك البيت؟

تصرفت جين كما لو أنها لم تسمع شيئا من فم النادل. فبولز في بحث دائم عن البيوت. يريد الابتعاد عن صخب المدينة. بيت يسمع فيه الموسيقى ويكتب الروايات والقصص. في تلك الأيام كان كل الرسامين والكتاب والموسيقيين يمتلكون بيوتا يكتبون فيها، ويرسمون، ويضعون الألحان. بول لا يقلدهم أو ينافسهم، فهو كان دائما في طليعة من يمتلكون بيوتا إضافية، هي عبارة عن ورشات للكتابة. لكنهما كانا قد تشاورا في امتلاك فيلا ذات مساحة كبيرة حتى يفعل كل واحد ما يشاء دون أن يشعر به الآخر.

من ينظر إلى جين يظن أنها امرأة عسراء، فقد كانت تتصفح الرواية بيدها اليسرى. وبها كانت ترفع كأس القهوة إلى فمها، أو ترفع خصلة الشعر عن جبينها. بدأت تسمع أصواتا سريعة ومتتالية في الخارج. «أصوات في المدينة» رواية رائعة للكاتبة الهندية «أنيتا ديساي». هي كل ما تعرف من الكاتبات الهنديات. لكن كيف لم تجادل باسمها أمام بولز الذي ظل يمتدح أمامها رواية «رحيق في غربال»؟ لا تعرف حقا. ومهما يكن من أمر فإن الإطالة في هذا الموضوع لن تولّد في نفسيتها إلا الضجر والحزن. هي تحب «أنيتا»، هذه الكاتبة الشابة الواعدة، لأنها أجادت الحديث عن القيود المجتمعية الخانقة، وعن الصراع بين الهنود والمسلمين. هذا إضافة إلى اشتراكهما في حب الشاعرة «إميلي دكنسون». وتبقى «أنيتا»، في نظر جين، كاتبة برعت جدا في الكتابة عن الهند الجريحة

المقسمة إلى بلدين: الهند وباكستان. شبكت يديها فوق صدرها وفكرت في الأسى الذي يجتاح الكاتب حين يقارن بغيره، ويخاف أن يكون غيره أفضل منه. يشعر كأن نارا أُضرمت داخله ولا يعرف كيف يخمدها.

على رصيف الشارع المحاط بالأشجار، وفي الجهات الظليلة، بدأت الطيور تتنادى. سمعتها جين وفرحت. فبدأت تتمايل برأسها المليء بالأفكار والأحلام والمخاوف. تتمايل برأسها تماما كما تفعل حين يعزف بولز أمامها قطعة مستوحاة من مسرح تينيسي. وكان بولز يُعلّق حين يراها تتفاعل مع ألحانه:

- هذا لحن صافٍ، وصفاؤه من صفاء أفكار وشخصيات تينيسي.

نعم، إن تفاعلها مع أصوات الطيور يتم بفضل صفاء أصواتها. بل إن الألحان التي يضعها الإنسان تظهر بهيئة أن كل ما فيها خطأ، إذا ما قورنت بهذه الأصوات الطبيعية التي تجعلها تفكر بطلاقة. بدأت جين تتساءل كيف يمكنها مغادرة المقهى والطيور تضاعف من أصوات وموسيقى ندائها على بعضها. ترى ماذا تقول؟ هناك من توصي بالاعتناء بصغارها. وهناك من تنادي ذكرا. وهناك من ينادي أنثى، ومن يقول إنه تناول وجبة لذيذة في الحقول المجاورة، ومن يشتكي من أصوات طنجة المتنافرة. ومن يسخر من سكير خرج مترنحا من حانة، ومن يقول إن امرأة مريضة ووحيدة تنصت إلى لحن أصواتها وتتفاعل معه، ويرد طائر آخر: أكثروا من ألحانكم لتتعافى السيدة جين بولز.

شغلتها الأفكار الشعرية عما يجري حولها. فأخذت تحفر في أعماقها، مثلما يفعل نقار الخشب بالخشب، بشجرة عالية في غابة كثيفة. وبسرعة أعادت رواية «رحيق في غربال» إلى الحقيبة، ونهضت في اتجاه مركز البريد. ففي مثل هذه الساعة يكون بوغالب هناك، كما أخبرها شكري. تاركة وراءها الطيور تغني، تماما كما تسمعها كل فجر.

– 5 –

طيلة الأسفار التي قام بها بولز إلى أوروبا وأمريكا كان يشعر بتأنيب الضمير. يحس أن قلبه يقف ضده، وأن لونه لم يعد أحمر، بل لم يعد موجودا تحت ضلوعه اليسرى، هناك في مكانه الذي تشع منه السعادة أو تنفجر الأحزان. كان يرى أحلاما بطلتها حبيبته جين المريضة. وحين يستيقظ يجد نفسه غارقا في العرق بعد ليلة طويلة وثقيلة الوطأة. فيهرع إلى الحمام ليغتسل ويزيل رائحة العرق، ويعيد لجسده حيويته. بعد ذلك يمسك قلما وورقة ويكتب رسالة إلى جين. يتكرر هذا الأمر أينما وجد على هذه الأرض.

ذات صباح، نهض من سريره وتوجه مباشرة إلى مركز البريد لوضع رسالته إلى جين، فوجد المركز مغلقا. لم ينتبه أنه يوم عطلة عيد وطني. كان في لشبونة يقيم في بيت ترومان كابوت. عاد خائبا وحزينا، فما لم يضع الرسالة في الصندوق سيظل الشوق يأكل قلبه. الأمر يشبه السحر، فحين توضع الرسالة ينتهي الشوق، كأنه عانق جين وضمها إلى صدره.

عاد وجمع حقيبته وقرر العودة إلى طنجة على متن باخرة لا يغادر بخارها سماء المتوسط أبدا. فوجد جين في رعاية صديقه تينيسي. يذكر كيف أنها عانقته بقوة لوقت طويل، وبكت بين ذراعيه مثل طفلة. كان على وشك البكاء، فقد لاحظ أنها مصابة بنوع من الانتفاخ بفعل تناول الأدوية.

لكنها كانت في كامل أناقتها كأنها تنتظر الموت وهي كما هي جين الجميلة. وحين مسحت دموعها أنعشت نفسها بكأس من الويسكي. مدت كأسا إليه وآخر إلى تينيسي. دائما تبقى محافظة على قدرتها على تقديم الخدمة للآخرين. تناول الكأس وقال في نبرة تشبه الصراخ:

- نخب الإقامة الدائمة قرب جين. لا سفر منذ اليوم.

لذلك حين قرر السفر إلى جنوب المغرب والطواف على القرى والجبال لتسجيل وجمع ذخيرة من الألحان والإيقاعات والأغاني، شعر بالخجل من كونه ينكث عهدا قطعه على نفسه أمامها وأمام تينيسي. هي لن تعترض، لكن ضميره سيكون سيد المعترضين. ذكرته جين بموعد وصول والديه إلى طنجة. كان قد نسي هذا الأمر الهام الذي أدخل سرورا نادرا إلى قلبه. التفت إلى تينيسي وسأله:

- منذ متى لم تر والدي؟
- لا أذكر بالضبط، لكن يمكن القول إنني نسيت صورتيهما ونبرة صوتيهما.
- في نظرك تينيسي، كم من الوقت يقتضي نسيان إنسان ما؟
- عشر سنوات؟ عشرون؟

نهضت جين ورفعت قنينة الويسكي:

- هل تريدان المزيد؟

مدّ تينيسي كأسه، بينما رفض بولز متحججا بكونه سيسافر غدا إلى الجنوب. ثم نظر إلى جين محاولا قراءة ردّ فعلها. لكنها توجهت بالسؤال إلى تينيسي:

- هل تنسى شخصيات رواياتك وقصصك؟
- من الصعب نسيانها. لا أستطيع، فأنا أتذكرها دائما أكثر مما أتذكر الأشخاص الذين يعيشون معي.

أطلق تينيسي تنهيدة جعلت جين تكف عن سؤاله مرة أخرى. وضع الكأس بيد مرتعشة ثم سرح في ملكوت رواياته وقصصه ومسرحياته، يتذكر شخصياتها وأفعالها وأقوالها. بينما رفع بولز من صوت الموسيقى وهو يعضُّ بأسنانه على شفتيه. رفع الكأس وشرب ما بقي فيها من شراب وهو يردد الألحان بصوت مسموع.

سأله تينيسي:

- ما نوع الموسيقى التي تريد تسجيلها في جنوب المغرب؟

بيده اليسرى انشغل بولز بإدخال الأزرار في فتحات قميص نومه.

- لا أطمح إلى تسجيل لون موسيقي واحد. ينبغي أن أعمل في كل الاتجاهات حتى لا أعود مرة أخرى للبحث عن تلك الألحان والأهازيج والإيقاعات. فرصة واحدة كافية للإلمام بكل شيء.
- بأي لغة تُغنى تلك الأغاني؟

- بالأمازيغية وقليل من الدارجة المغربية. لن أجد صعوبة في هذا الأمر. سيرافقني التمسماني، وهو يتحدث الأمازيغية. والأهم من ذلك هو مسلم. الناس في المغرب يعطون أهمية قصوى لهذا الجانب الديني. تستطيع أن تقول إن وجود شخص مسلم معي يجعلهم يشعرون بالثقة والاطمئنان.
- هل يوجد بينهم شعراء؟
- نعم، نعم، بكثرة. بل إن الرجل يصبح شاعرا في الحين. لم أر أقواما يستطيعون ارتجال القصائد مثلهم. شيء مدهش حقا. هل ترافقني يا تينيسي؟
- لا، عندي موعد مع شكري غدا صباحا من أجل البحث عن فيلا للكراء.
- تصبحان على خير، ليلة سعيدة.

حين بقي تينيسي وجين وجها لوجه، قررت جين انتهاز الفرصة لمعرفة رأيه في العديد من الأمور الأدبية، منها رأيه في ما قاله بولز عن رواية «رحيق في غربال». لكن تينيسي بعد برهة صمت سألها بغرابة:

- حين تنظرين جنبا تبدين حزينة يا جين. كم عمرك اليوم؟
- كم تظن؟
- خمسون سنة؟
- أحسنت.

- هل تذكرين متى جئت إلى طنجة؟
- منذ الأزل. الناس دائما يعتقدون أنهم وُجدوا دائما في الأمكنة التي يحبونها.
- أراك تحملين معك رواية «رحيق في غربال».
- ما رأيك فيها؟
- سمعت من بول أنها رواية جيدة. لكني كنت سأتحمس لكاتبتها لو كانت تكتب بلغتها الأم. أنا حذر تجاه كاتب يكتب بغير لغته. أين خدمة الأدب الوطني من الأمر؟ هل تتصورين هيمنغواي يكتب بالإسبانية مثلا وهو أمريكي؟
- نعم معك حق. حتى من الناحية النفسية. أنظر إلى محمد شكري مثلا، لقد كتب سيرته باللغة العربية ولم يجد ناشرا ينشرها. فقام بول بترجمتها إلى الإنجليزية، وسمعت أن كاتبا مغربيا يعمل على ترجمتها إلى الفرنسية. لكن شكري لن يطمئن حتى تنشر بالعربية، ويقرؤها المغاربة، الطنجيون منهم على الخصوص. فهو يخاطبهم مخاطبة صريحة منذ الصفحة الأولى. وتلك المخاطبة تستمر مستترة طيلة صفحات الكتاب. إنه كتاب جرح وحكمة، ونشره بالعربية أفيد من نشره بأي لغة أخرى.
- متى ينشره باللغة العربية؟ عنوانه كما قال لي بول «من أجل الخبز وحده»؟

- نعم «من أجل الخبز وحده». لكنها في الإنجليزية لا تعني الشيء الكثير. بل قل لا تعني شيئا. وقد حدثني شكري عن صيغة في العربية، وفي اللهجة المغربية ينوي نشره بها لأنها تؤدي دلالة الكتاب، أظنها «الخبز الحافي».
- يظهر لي شخصا شقيا جدا.
- نعم لكنه ذكي وطموح وسيصبح من كبار الكتاب في المغرب. هل قرأت كتابه عن جان جونيه؟
- لا، لكن حدثني عنه ويليام بوروز.
- إذا رأيت شكري يرافقك في كل مكان، ويهتم بأفكارك وأحاديثك فاعلم أنه سيكتب عنك كتابا.
- هذا ما فعله مع جونيه؟
- نعم وأكثر. سجل كل شيء، حتى مشية جونيه البطيئة وإدخال يديه في جيبه أثناء السير، وملابسه المهملة، ونظراته التي كان يوجهها إلى سطيحة مقهى سنترال... سجل كل شيء عنه. إنه روائي شاب بارع.
- وكيف تعرف عليه، فأنا أعرف أن جونيه يتضايق كثيرا من معرفة الناس؟
- وهذا ما كان يعرفه شكري، أو على الأصح هذا ما أُخبر به. فقد قيل له إن جونيه يمكن أن يصفع شخصا اقترب منه أو مدّ يده

لمصافحته. ومع ذلك أصر على التعرف عليه. فربطت بينهما صداقة من أصفى وأجمل الصداقات التي عرفتها.

نعم، إنه أمر مدهش كيف تعرَّف شكري على جونيه، وكيف قبل به هذا الأخير منذ اللحظات الأولى، وكان حينها شكري لم ينشر سوى قصتين في مجلة «الآداب» البيروتية. ومع ذلك قدم نفسه لجونيه باعتباره كاتبا مغربيا. أما جونيه فكان قد أصدر كتابه ذائع الصيت «مذكرات لص». ولم يكن تُرجم إلى اللغة العربية بعد. وكان يزور طنجة رغم أنه بكرهها ويعتبرها مركزا للخيانة والخونة. فقد زار مدنا جميلة عدة في العالم، لذلك كانت تبدو طنجة في عينيه رتبة أدنى من مدن آسيوية أجمل منها بكثير.

توجه تينيسي إلى جين بالسؤال، وكأنها على معرفة تامة بدقائق العلاقة بين شكري وجونيه:

- هل كُتُب جونيه مترجمة إلى العربية؟
- لا، العرب لا يمكن أن يترجموا جونيه، بسبب حساسيتهم الأخلاقية المفرطة. و«من أجل الخبز وحده» لشكري يعرف نفس المصير. فالناشر العربي رفض طبعَه بسبب نفس الحساسية الأخلاقية. لذلك تجد أن غربة هذا الكتاب هي أنه كتب بالعربية ونشر بالإنجليزية، ولاحقا بالفرنسية. سيأتي دور نشره بالعربية لكن

ليس في هذه المرحلة. فاليوم ليس لي أو لك أو لبولز أو جونيه أو شكري أو بورروز.

- كيف دخل شكري إلى قلب جونيه بهذه السرعة؟
- الجواب موجود في كتاب شكري «جان جونيه في طنجة»، لقد بسط أمامه ثقافته الفرنسية، حدثه عن ستاندال وكامي وسارتر. فيما انكشف جهل جونيه بالأدب العربي، باستثناء كاتب ياسين الذي كانت تربطه به صداقة. وقد واجهه شكري بهذه الحقيقة: كيف لا تعرف طه حسين وتوفيق الحكيم رغم أنهما مترجمان إلى الفرنسية.
- وماذا كان رد فعل جونيه؟
- جونيه في مثل هذه المواقف يصمت، أو يمد يده ليودعك.
- وكيف هي علاقة جونيه ببولز؟ لا أعرف عنها شيئا.
- بولز يقرأ جونيه ويقدر أسلوبه تقديرا عاليا. لكنه يردد أمامي أنه لا يتعلم منه شيئا.
- وشكري؟
- شكري يخفي أسراره بإحكام. لكنني ألومه لأنه طيلة مرافقته لجونيه لم يكشف لنا الشيء الكثير. فما قاله عن جونيه نعرفه جميعا. كان مثلا، بذكائه وقدرته الخارقة على التسلل، لقد كان لصا مثله، أن يسرق منه بعض الأسرار التي يخفيها جونيه. كان «براين جيسن» يقول بأن هناك جونيه ثالث بعد اللص والكاتب

العبقـري. يقصـد أن جونيـه مـتعلم جـدا، بـل ويعـرف اللغـات كالإغريقيـة واللاتينيـة. وشـكري لمـس أن جونيـه يعـرف الإسـبانية لكنه ينكر الأمر. ألم يقض فـترة في شبابه في لشـبونة. يخبـئ جونيـه سرّا عظيما لـم يكشفه شكري، وهذا ما كان عليه فعله في كتابـه ولـم يفعل.

- أنـا أحتـاط مـن جونيـه. وصلـني أنـه قـال بأنـه يكـره كـل مـا أكتـب. يعتـبرني كاتبـاً غيـر مهـم. الغريـب أن أحكامـه مبنيـة علـى مقـالات قرأها عني، وليست مبنية على تبيّن نقدي خاص به. عندما كنـت في باريس كلمته هاتفيا، كـان مريضـا، واتفقنـا علـى أن نلتقـي في اليـوم التالي، لكنه لم يأت، فقد اشتد عليه المرض.
- جينيه يكره الأمريكيين، يقول إننا نأكـل مثـل طائراتنـا أينمـا كنـا، في فيتنام أو الشرق الأوسط أو في المطاعم. وعندما يسمع موسيقى لم ترقـه يقـول إنهـا تشـبه طريقـة مضـغ الأمـريكيين للطعـام. والنـاس يصدقون ما يقول. إنه يحظى بسـمعة طيبـة في كـل العـالم، باسـتثناء فرنسا طبعا.
- ما سرُّ مجيئه المتكرر إلى طنجة؟
- لا يمكث فيها مطولا، يـأتي، يفعـل الخيـر مـع النـاس، يلتقـي بعـض الأشخاص في المقاهي والبارات. يحب كثيـرا الـتردد علـى السـوق الداخلي. يتقـزز كثيـرا مـن مظـاهر الحيـاة والبـؤس هنـا. ثـم يرحـل مخلفا وراءه زوبعة من الحكايات والإشاعات وأفعـال الخيـر التـي

تضخم منه ككاتب وإنسان. ونحن ماذا يشدنا في طنجة غير صورتها حين كانت مدينة دولية. الآن أنظر، عدد المتسولين يتزايد، والجرائم تقض مضجع الناس أينما كانوا. وقد ساد الاعتقاد لدى الناس هنا أن كل أجنبي يزور طنجة فمن أجل الدعارة اللوطية فقط. لذلك تجد بولز قد حدّ من العلاقات هنا. طنجة اليوم مدينة مخنوقة وملوثة بالمعنى المادي والمعنوي للكلمة.

ما زال ضوء غرفة بول مضاء. فكما هي عادته يصعد قبل الجميع ويضيء الأباجورة ويشرع، كما أخبر جين، في كتابة «قصص عن المغاربة». وإذا ألّف بول كتابا عن كيفية تأليفه لقصصه ورواياته سيطلع القارئ على أغرب الطرق في الكتابة. يبدأ بحكايات، واستشهادات، وجمل بسيطة، مع تدخين للكيف الذي يوفر له لحمة فعالة يربط بواسطتها بين الأجزاء المختلفة. فالكيف يثير داخله المحفزات. بهذه المنهجية أصدر حكاياته «مائة جمل في الباحة»، التي صدرت بغلاف عليه صور لغليون الكيف.

ظهرت علامات التعب على جين، ففضل تينيسي الصعود إلى غرفته لينام، فغدا يوم جديد كما يقول الأمريكيون. شعر بالأفكار تتطاير في عقله كالفراشات. هذه ليلة مناسبة للحلم في سرير تصل إليه من بعيد أصوات حفيف الأشجار ونعيق البوم. أصبح على قناعة تامة بأن كل ما قيل في هذه الليلة رفقة جين سيدخل صفحات كتابه القادم. فالتذكر والتخيل متطابقان في الدماغ. جين امرأة عظيمة تشفي نفسها بنفسها، ورغم مثابرتها على

تناول الأدوية، فإن ما يشفيها هو روحها وعقلها. هذا إلى جانب ممارستها للرياضات: الصعود المبالغ في الدرج والهبوط منه، رغم عدم وجود أسباب لذلك. الذهاب إلى شاطئ طنجة والسباحة في أوقات كثيرة من اليوم، هذا إلى جانب رغبتها الدائمة في مرافقة بولز إلى الجبال، والركض من قرية إلى قرية مثل امرأة مبحوث عنها. فقد كان تينيسي يراها في مرات عديدة واقفة على قدم واحدة وهي تعد من واحد إلى مائة. وفي بعض الأحيان كانت تعد الطعام في المطبخ وهي واقفة على قدم واحدة. لكنها حين تفتر عزيمتها وتعزف عن نشاطها الرياضي يظهر عليها الهزال والكآبة والشحوب. فتدخل مغامرة المستشفيات والحقن والأدوية. الحياة فعلا ليست عادلة. أما بولز فقد كان يظهر على هامش مشاكلها. هذا ما يؤاخذه عليه تينيسي. الشيء الذي يضيف قطرة من المرارة إلى مآسي جين الصحية.

حين أراح تينيسي جسده على السرير دار حوار طويل بين رأسه والوسادة. حضرت إلى ذهنه حركة العربي التي لا يمكن أن يقوم بها سوى قرد وهو يضع السمكة المشوية على المائدة. فعلق بولز وهو يدخن: «المنتصر سيأكل المنهزم». نحن لسنا منتصرين. صائد السمك هو المنتصر ونحن مجرد وسطاء بينه وبين السمكة المنهزمة، قال تينيسي في ذهنه.

- 6 -

بدأ بولز يفكر جديا في فتح حوار صريح مع تينيسي بخصوص زوجته جين. فوجود جين معه طوال الوقت خطر على صحتها. هذا دون حاجة إلى الدخول إلى عقل بولز وتصفح أوراقه الغزيرة. فترك امرأة مريضة مع رجل مقبل على الحياة بشكل نشيط أمر غير سليم. فهو يذكر جيدا كيف حوّل تينيسي، منذ عشر سنوات، جين إلى خرقة بالية. فقد كانت معه كل يوم بفندق سان بيتش وسط كؤوس الخمر والكراسي الفارغة. والنتيجة كانت خضوعها لعمليتين جراحيتين خلال بضعة أشهر. غدت جين نحيفة جدا وفريسة لنوبات الأرق. صحيح أن تينيسي كان منشغلا بحالتها الصحية السيئة، وقلقاً على أفق مرضها الذي بدأ يتسع بشكل غريب. لكن قلقه هذا كان ينبغي أن يتحول منذ البداية إلى حماية لها، لا جرها إلى سلسلة من العبث الذي لا ينتهي. خصوصا وأن بولز كان رفقة ألان غينسبورغ في مراكش، حريقا مهولا يلتهم الجهة الجنوبية بكاملها من الأسواق المحيطة بجامع الفناء. نفس تلك النار، وربما في نفس اليوم، كانت تلتهم جزءا مهما من جسد جين، وتينيسي يتفرج.

حالة جين الصحية عرَّضت حياة بولز لتغير كبير. فالعيش الذي كان ممتعا تحول إلى عيش مليء بمسلمات المرض والموت الوشيك. وحين يأتي أصدقاؤه من أمريكا: بوروز، غينسبوغ، كابوت... إلخ يشغلون يومه

وليله عن رعاية جين التي تحتاج إلى مراقبة مستمرة. ثم يعودون ويبقى هو غارقا وسط تجربة سوداء مليئة بصور جين في كل حالات مرضها وانهيارها وأرقها.

كانت والدة جين واعية بهذا الأمر، فقد كانت تتفرج من بعيد على المرض وهو يأكل من جسد ابنتها كل يوم وليلة. فزياراتها المتكررة لابنتها في طنجة جعلتها تقف على طبيعة الحياة التي تعيشها رفقة رجل يحبها، لكنه يحب أشياء أخرى أكثر منها. لذلك كانت تقوم بحملات قوية لكي تقوم جين بالعودة إلى أمريكا، أو على الأقل رد الزيارات. تماما مثلما كان يفعل والدا بولز معه. لكن بولز كان يرى أن نيويورك أخطر على جين من طنجة. واستطاع أن يقنع والدتها بذلك، بحيث اتفقا في الأخير على القيام بزيارة لها ولوالديه معا في نفس الفترة. وفعلا، قام بولز وجين بالذهاب إلى أمريكا، عبر إسبانيا حيث مكثا بعضة أيام عند أحد معارف جين. قاما بزيارة ولدة جين ووالديه. وبعد أن لاحظ أن جين بدأت تتخذ إيقاعا حياتيا مختلفا ومدمرا في نيويورك، وضعها على متن سفينة متوجهة إلى جبل طارق. وقد اتخذ قراره هذا بعد أن شرع في أنشطة مكثفة ستشغله عنها. وهذا أمر سيئ للغاية. إذ إنه بدأ يعمل مع تينيسي على وضع موسيقى لمسرحيته الجديدة «لم يعد قطار الحليب يتوقف هنا».

في البداية رفضت جين العودة، لقد سحرتها من جديد حياة نيويورك بلياليها وعدد أصدقائهما بها. إذ أنهما كانا يمضيان كل ليلة عند صديق.

وهذا أمر مرهق لهما معا، خصوصا بعد أن اعتادا حياة طنجة الهادئة وبطيئة الإيقاع. وحين شرع بولز في عمله الفني مع تينيسي، قرر إقناعها بالعودة إلى طنجة، على أن يلحق بها بعد أسبوعين. وذلك كان هو رأي تينيسي وغينسبورغ معا. لكن قوة الإقناع كانت في يد والدتها التي توصلت إلى قناعة أن حياة ابنتها ونيويورك شيئان لا يلتقيان، وأن طنجة ستقدم أحسن ما تملك لجسد جين المنهك.

لا يخاف بولز على جين من جين، بل يخاف عليها من الآخرين. فأصبح كلما اضطر إلى السفر من أجل العمل، لا يتركها وراءه في المغرب. فمثلا حين كان يعمل على تأليف كتاب عن المدن العالمية، سافرا معا إلى نيويورك، فوضعها على متن قطار متوجه إلى فلوريدا وواصل هو رحلته عبر الباخرة إلى تايلاند. فالسماح لها بالبقاء في طنجة في ذلك الصيف، رفقة تينيسي، بوروز، كابوت وغينسبورغ، الذين كانوا في زيارة طويلة إلى طنجة، أمر غير مضمون النتائج. كانا ينتظران وصول سوزان سونتاغ، لكنها لم تأت. فسوزان امرأة متوازنة وحازمة وتحب جين، وتحاول دائما إقناعها بنشر قصصها، وتشجعها على الاستفادة من وتيرة الحياة اليومية في طنجة التي تتميز بالفراغ اللامحدود، بحسب تعبير سونتاغ، الضروري للكتابة والتفكير.

لكن يمكن التفكير في فرضية أخرى قابعة في عقل بولز العميق؛ تينيسي يأتي إلى طنجة في أي وقت يشاء، صيفا أو شتاء. فكلما أنهى مجموعة من

الأعمال التي كانت تثقل كاهله يفكر في السفر إلى طنجة، وجين المريضة موجودة في طنجة، وبولز المنهك بمرض زوجته موجود أيضا في طنجة. فما العمل؟ اتفق بولز مع جين، كما يتفق زوج مع زوجته، حول ضرورة أن يصارحا تينيسي بالأمر. فهما أيضا لهما أعمالهما التي تؤرقهما طوال الوقت، ويفكران في مشاريع أدبية وفنية وحياتية يضعانها في أفق حياتهما، ومن غير المناسب لهما استقبال كل القادمين من شقاء أمريكا طوال فصول السنة. واتفقا أيضا على أن يعمل تينيسي على نشر هذا الوضع بين أصدقائهما في أمريكا، نساء ورجالا، فنانين سينمائيين وموسيقيين ورسامين وشعراء وروائيين وراقصين وفلاسفة. كلهم عليهم أن يعوا أن جين آور بولز لم تعد كما كانت، وأن الأيام والأحوال قلبت بولز رأسا على عقب، وأصبحا يتعافيان في الصمت والعزلة والفراغ الهائل الذي قدرته حق تقديره سوزان سونتاغ. وأن جين لم يعد بمقدورها، رغم مهارتها وتجربتها الطويلة في الطبخ، إعداد بعض الأطباق الاحتفالية للقادمين إلى طنجة عبر البواخر والطائرات، وكان أحد تلك الأطباق التي يفتقدها بولز بنفسه طبق البط بالليمون. وكل ما أصبح باستطاعتها القيام به هو إعداد طبق متواضع يساعدها على إعداده زوجها، مع جرعات متكررة من زجاجة السكوتش التي تضعها بجوارها في حوض غسل الأواني. وحتى تلك الوجبة الزهيدة لم يعد بمقدورها إتمامها. لذلك ارتأى بولز إعفاءها من دخول المطبخ، فجلب لها خادمة تقوم بأشغال

البيت، تسهر على تناولها الدواء في الموعد، وتبقى إلى جانبها حتى تنام مثل طفلة تعبت من اللعب.

استقبل تينيسي الوضع الجديد بسعادة، أليس الأمر يتعلق بصحة وحياة امرأة يعتبرها واحدة من أكبر كُتّاب النثر في القرن العشرين؟ لكنه اشترط عليهما تناول آخر وجبة عشاء في بيتهما، فوافقا بسعادة. خرج بول إلى السوق بنفسه واشترى سمكا وبطة وكل أنواع الخضر التي وجدها أمامه. دون أن ينسى زجاجة ويسكي من النوع الذي يفضله تينيسي وجين. وأثناء تناول العشاء ظل تينيسي يردد عبارات الثناء: «لم أذق في حياتي بطًّا بهذه اللذة»، هذا أعظم عشاء تناوله في حياته»، «ماذا تفعل جين لهذا البط حتى يصبح بهذه اللذة»... لكن جين لم تكن حاضرة لتسمع كل هذا المدح. فمنذ زمن طويل وهي نائمة في سريرها.

استعان تينيسي بمحمد شكري للبحث عن فيلا للإيجار. وشكري استعان بساعي البريد بوغالب الذي يعرف طنجة جيدا. على تينيسي أن يترك بولز وجين داخل ملكوتهما الصغير الهادئ. وعلى كل الأمريكيين المذكورة أسماءهم أن يحذوا حذوه. لكن محمد شكري هو أكبر المتضررين من هذا التقنين. وتينيسي بقي ينتظر الفرصة لإبلاغه إلى أن أتت بنفسها حين سأله شكري:

- هل ستنهي إقامتك عند بولز وجين؟

- جين مريضة، وبولز مشغول بترجمة المسرحيات، وبأعمال أخرى، وكل من يزورهما دون موعد أو سبب فهو متطفل ومزعج. لقد أصبح بولز يخاف على جين، خصوصا في الصيف حين تأتي قبيلة البيتز برئاسة غينسبورغ. فكلما تكاثر أفراد هذه القبيلة كلما تكاثرت السعادة. لكن ينبغي أن نعترف بذلك، يتكاثر أيضا التعب والتدمير الذاتي. وجسد جين لم يعد يقدر على تحمل ذلك. فجين كلما أزاحت عنها ظلال التعب تحاول العودة إلى الكتابة لكنها تفشل، وذلك ما يزيد من شقائهاومن تعاسة بولز. صحيح أنه كان غزير الإنتاج، لكنه يشعر دائما أنه رهن تصرف أشخاص آخرين، من جنسيات متعددة. وأنا أفهم شقاءه الخاص. على كل أصدقائه أن يبتعدوا عنه، ويجتنبوا الالتصاق بحياته.

شعر شكري وكأن تينيسي يقصده بكلامه. فقد ظل طيلة سنوات شبه ملتصق ببولز، إذا استعمل كلمة تينيسي. غير أن ذلك الالتصاق كان بقصد الإثمار، بقصد العمل في الكتابة والترجمة. فلولا شكري لعجز بولز عن إنجاز بعض الأعمال. فقرر الدفاع عن نفسه، فهذا الأمريكي سيذهب إلى نيويورك ويشيع عنه أن شكري، إضافة إلى مغاربة آخرين، يزعجون عزلة بولز وزوجته إلى درجة غير معقولة.

- كل هذه الدراما تحدث بالقرب منا ونحن غير شاعرين؟

- لا، لا، ليس دراما، فقط مرض جين يعني قطيعة في برنـامج حياتها، وبـولز في حاجـة إلـى تبنـي خطـة عمـل مركـزة وجديـدة. فطلبـات العمل تصب عليه من كل الجهات كالرياح، أو لنقـل كالأعاصـير. وهو لا يعرف كيف يبدأ.
- بولز يعتبر طنجة مدينة سحرية. فمنذ 1931 وهو يتسكع فيها. إنها بحسب تعبيره المكان الذي يرغب دائما أن يكون فيـه أكثـر مـن أي مكان آخر. فشمال إفريقيا يتسم في نظره بطابع أسطوري. أليس من وحيها كتب روايته «السماء الواقية».
- نعم صدى الأغنية الشعبية: «هناك في الأسفل وسط أشجار النخيل الواقيـة». إن أشـجار النخيـل تقـي النـاس، والنـاس واثقـون مـن حمايتها لهم. إنها جدلية سلسة وعفوية.
- يبدو لي أنك يا تينيسي تبحث عن سماء واقية في طنجة؟
- نعم يا محمد، أكون ممنونا لـو وجـدت لـي فـيلا صـغيرة أقـيم فيهـا لفترة. فقد كلمت اليعقوبي في الأمر، لكنك أنت مؤهل أكثر لأنك، بحسب ما قال لي اليعقوبي تعيش باستمرار في طنجة.
- هيا انهض، أظن أن سماءك الواقية موجودة عند وكالات الكراء.
- كان شكري يحمـل في يـده مسـرحية تينيسـي المترجـة إلـى العربيـة «قطة فوق صفيح ساخن». حديثهما عن جين وبولز أنساه أن يطلعه على المسرحية. فجأة ظهـر أمامهمـا اليعقـوبي كالعفريـت الخـارج

من الظلام. ساروا ثلاثتهم تحت شمس حارقة. أين السماء الواقية؟ تساءل تينيسي في نفسه. لحق بهم باكسه مرافق تينيسي، ذلك التمثال الجامد.

قالت لهم الفتاة المغربية في الوكالة الأولى إنهم يتوفرون على شقق فقط. نظر تينيسي إلى شكري وتبادلا نظرات الرفض. غادر اليعقوبي الوكالة مفضلا الوقوف على ناصية الشارع. مازال باكسه جامدا مع آلة تصويره. ساروا حتى بلغوا وكالة ثانية يقف الإسباني المكلف بها على عتبة بابها مفضلا الهواء الساكن في الخارج على الهواء الحارق في الداخل. فوجدوا لديه ثلاث شقق شاغرة. بدا تينيسي متضايقا. فهو على طول الطرقات والشوارع، وعلى الروابي المحيطة، يرى فللا من كل الأحجام، تطل من وراء أسوارها الأشجار، ويصل نباح كلابها إلى أبعد نقطة في المدينة. في تلك اللحظة شغل شكري نفسه بالنظر إلى خريطة تخطيطية قديمة عن شوارع طنجة ومقاطعاتها. مر بيده على زجاج الخريطة فامتلأت بالغبار. نظر إلى تينيسي فأومأ إليه بالمغادرة.

حين غادروا الوكالة قال تينيسي لشكري إنه حَدَسَ بأنهم لن يجدوا شيئا عند الإسباني بسبب قذارة وكالته، لذلك تراه في الخارج هاربا من بشاعة الأثاث المليء بالغبار والقذارة.

من يَر هذه الجماعة تخرج من وكالة وتدخل إلى أخرى، وتحاول أن توقف سيارة أجرة دون جدوى يظن أن شيئا ما يحدث. لكن الأمر في

منتهى البساطة، يقوم به جميع الناس في العالم أجمع. هذه الرؤوس المجتمعة والمترددة تسمع وتنظر وتبحث دون توقف. تبحث عن السقف الواقي، الذي سيختبئ تحته كاتب، ظل يبحث عن ظل يقبع تحته. اشتدت الحرارة واستمرت الرؤوس المجتمعة تبحث عن ظل يوحدها. ترى أين سيجدونه؟ قال محمد شكري في نفسه: «الظل موجود في مرح تينيسي». بدأ يسير إلى جنبه كأنه يحتمي فعلا بظل وارف. أما صاحب «قطة على نار» فظل يلتفت بحثا عن سيارة أجرة تقيه من الحريق القادم من السماء التي فوق رأسه. أصبح يفكر في شيء واحد: الذهاب هو ومرافقه إلى الفندق. ظل تينيسي يرفع يده لسيارات أجرة تمر مشغولة، الشمس الحارقة منعت الناس من التنقل سيرا على الأقدام. وفي النهاية وصلوا إلى مفترق الطرق القريب من البريد المركزي، حيث تمكنا من إيجاد واحدة تنتظر في الظل. ركب تينيسي بسرعة وكأنه غير مصدق، وتبعه باكسه. لوح تينيسي لشكري واليعقوبي والسعادة تغمر وجهه.

فتح شكري واليعقوبي ذراعيهما لطنجة. عندما دفع شكري باب الحانة، واليعقوبي وراءه، أدهشته الرحابة. استرسل بكل رحابة داخل ما يشبه حلي اليقظة. الكراسي والطاولات الناعمة الثوب هادئة وفارغة. وجوه هي لسائقي سيارات أجرة تدخن وتحدق في الفراغ. يعرفهم شكري في السوق الداخلي. شعر براحة داخلية رغم أنه لا يملك درهما واحدا في جيبه. اليعقوبي هو الداعي وهو من سيدفع. وماذا سيدفع في أقصى

الحالات؟ دراهم بالكاد تملأ قبضة اليد. فضل شكري الانتقال إلى طاولة جنب النافذة، فتبعه اليعقوبي. فقرب النافذة، بحسب اليعقوبي الرسام وشكري الكاتب، توجد الآفاق العظيمة. فعندما يشرب المرء بيرة جنب نافذة، يدفعه ذلك إلى الحلم. منذ أن استيقظ شكري، وطيلة تجواله مع تينيسي وهو يحلم بطعم الفاكهة السائلة المسكرة. أما اليعقوبي فيفضل «زلافة البيصر» مع خبز القمح.

تحول شكري إلى رجل صامت جدا، ظهرت قسوة جديدة على وجهه، في عينيه على الخصوص. وبدأ يجتنب توجيه النظرة إلى نادل الحانة، ما زال عليه دين ثلاث زجاجات في نهاية الأسبوع الماضي. اليعقوبي أيضا يبدو مثل قوقعة، إنه فعلا شخص لا يريد تبادل مشاعره مع أحد. لكن ملامح شكري تتبدى للرائي أكثر صلابة من ملامح اليعقوبي.

مع بداية الليل، كان شكري قد تعب من حرارة طنجة المفرطة كأنها محاطة بالبراكين. من أين هذا اللهيب إن لم يكن يخرج من فوهات البراكين غير المرئية. أما الحمم الخانقة فهي تلك التي كانت فوق سقوف الحانات. شكري يطالب طنجة، في مثل هذا الأوقات، بأن تجيب بصوتها عن أسئلته. طنجة أكلت كل شيء فيها وما زالت جائعة. لم يبق إلا أن يقول كل شيء عنها، هو المطلع عل جميع أسرارها، والشاهد على زوال عهدها الذهبي.

– 7 –

المارُّ من أمام بيت بولز في الخامسة صباحا سيرى ضوءا ساطعا من نوافذ الغرف العلوية. إنه يقضي أوقاتا طويلة في ترتيب حقيبة سفره وأجهزة تسجيل الأغاني. أما كل من داخل البيت فسيرى الإنهاك على وجهه المستطيل النحيف. فهو لم ينم ما يكفيه ليواجه رحلة من أجل عمل يعني الشيء الكثير بالنسبة إليه. فقد اتفق مع مكتبة مؤسسة «غوغنهايم» للحصول على منحة للقيام بتسجيل ذخيرة من الألحان المغربية. ويذكر جيدا كيف أن المسؤول عن الفن في السفارة الأمريكية بالرباط قرأ التقرير الذي تقدم به باهتمام، ثم رفع عينيه عن الأوراق المليئة بالجداول والعناوين، وحدّق في وجهه، ثم قال إنه عمل على غاية من الأهمية. لم يصدق بولز ما سمعه بأذنيه ورآه بعينيه. فلا أحد قبل هذا الموظف قدر مشروعه حق قدره. لذلك كلما ترددت في ذاكرة بولز أصداء تلك العبارة ازداد عزمه على الشروع في العمل.

كان بولز قد نقل آلة بيانو إلى البيت، عليها ألّف العديد من الألحان التي استوحاها من جولاته في محيط طنجة. وها هو بفضل «بيغي غلانفيل هيكس»، التي قامت بحملة لمساعدته على الحصول على منحة «روكليفر» لتسجيل الموسيقى المغربية، تمكن من الحصول على تلك

المنحة، فالأمريكيون لا يهتمون بوجود أي موسيقى في هذا الجزء من العالم.

قام بولز بتنقلات مهمة ومتكررة وحاسمة إلى واشنطن للقاء بالمسؤولين على مصلحة الموسيقى بمكتبة الكونغرس. كما أن السفارة الأمريكية بالرباط التزمت بأن ترسل إليه آلة موسيقية ضخمة تسمى الآمبيكس. استحق على ذلك احتفالا دون ضجة جمعه هو وجين وأحلامهما التي تملأ الأفق. لم تستطع جين تلك الليلة مقاومة جاذبيته، فها هو الرجل الذي قام برحلات عديدة إلى أقاصي العالم يجلس أمامها في مطعم خال إلا من بعض الفرنسيين والألمان المقيمين بطنجة منذ سنوات، كما أخبرهما بيدرو صاحب المطعم. كانت ليلة شديدة الغرابة بالنسبة إليها. فبولز الصامت، الشارد في أحلامه، الهائم بين قبائل أصدقائه في كل العالم يستمع للموسيقى، ويدخن سيجارته وهو ينظر إلى عينيها، ويمسك يدها التي يضغط عليها بين الحين والآخر. من أجل هذا غيرت جين من حياتها كلها. كان يمكن أن تكون قرب والدتها ترعيان بعضهما بعضًا، أو تكون شابة عازبة تعيش في شقة صغيرة وجميلة بنيويورك، مع كل العزلة التي يعنيها ذلك. تتحكم بتفاصيل حياتها، لكنها فضلت العيش هنا، في شمال إفريقيا، قرب هذا الرجل النحيف الذي يدمدم أمامها الآن بألحان غير مفهومة.

تعاملت جين وبول بولز مع تلك الليلة باعتبارها أمرا شديداً وقوي الدلالة. وستبقى جين على الخصوص تتذكر هذه الليلة وكأنها ترى شعاعا من الضوء الساطع. حين سألها بول عن رغبتها الآن، أجابت بأنها ترغب في زيارة المتاحف، والاستماع للموسيقى، والسباحة. لكن لا وجود لأي متاحف في المغرب. والموسيقى أمر مقدور عليه، فأصدقاؤهما الأمريكيين يجلبون معهم كل جديد موسيقي من أمريكا وأوروبا. أما السباحة فشواطئ طنجة تشبع رغبة مثل هذه.

نظر بولز مليا إلى جين فاكتشف، لأول مرة، أن لها وجه امرأة أضاعت شيئا ما.

- وجهك يا جين يلمع بنور نادرا ما رأيته.
- لا، أشعر أن لي وجه متسول.
- هل قرأت رواية إريش ماريا ريمارك «ليلة لشبونة»؟
- نعم، قرأتها واحتفظت منها في ذاكرتي بعبارة «إن حياة المهاجر هي حياة كاهن هندي متسول».
- لقد تصفحتها هذه الأيام، ولاحظت أن من قرأها قبلي، أو بعدي، وضع خطوطا بالقلم الرصاص على مجموعة من الجمل والفقرات، منها جملة الكاهن الهندي المتسول. من وجهة نظر ريمارك أنا أيضا متسول.
- لا، لا يا بول أنت قديس ينشر النور ويشرب الويسكي، هاهاها.

- هل أنت من وضع تلك الأسطر وكتب في الهوامش؟
- نعم أنا. تجذبني جمل روائي مثل ريمارك أو هيمنغواي أو فيتزجيرالد التي تلخص بكثافة إنسانية الإيقاع المأساوي في العالم، مثلما تجذبني تلك المقاومات التي يقوم بها شخصان أحبا بعضهما بعضاً من اجل إعادة اكتشاف الحياة.

حين أنهت جين كلامها رفع بولز نخبا على امتداد ارتفاع يده كمن يحمل بندقية وقال معترفا:

- قدرتك هذه على الربط بين الأدب والفلسفة هي التي جذبت اهتمام تينيسي. فقد كان يقول لي ونحن في نيويورك، في غمرة عملنا على مسرحياته، حين كان يجد نفسه مضطرا إلى تغيير جملة بجملة أو لفظة بلفظة، كان يقول إن جين ما كانت لتعجز في وضع كهذا. لها قدرة على وضع الفلسفة في النثر. وهي قدرة غريبة داخلية لا يمتلكها غيرها.

أشارت جين بيدها إلى قلبها:

- تلك القدرة موجودة هنا.

نظر بول إليها وخفض بصره يقلب أصابعه كأنه يحصيها. ما دار في رأسه يمكن قراءته: يتحول الإنسان في لحظات محاطة بظروف غامضة إلى خلية متحفزة مهيأة للاشتغال الفكري القوي والمتتابع دونما توقف. فيصبح بعيد النظر إلى درجة غريبة.

لم تنتظر جين أن يقوم بولز بتلك الخطوة. فعودته بالموافقة على تخصيص منحة لتسجيل الأغاني من السفارة الأمريكية بالرباط، اعتبرته حدثا عاديا لا يستحق الاحتفال. مثلما أن رفض تخصيص تلك المنحة لا يستحق الحزن والإحباط. لكن موافقة مكتبة الكونغريس تعني لبول الشيء الكثير: إنه يعي أمريكيته.

اختفى النادل فنادى عليه بولز بصوت عال شبيه بنداءات الشخصيات المسرحية على بعضها أثناء التدريب، حين يكون المسرح فارغا إلا من المشتغلين على المسرحية. عاد النادل بعد أن كان في طريقه إلى مائدة عشاء أخرى يجلس عليها شابان في غاية الهدوء. طلب منه بولز أن يقدم لهما زجاجة نبيذ فاخرة مع بيتزا متقنة.

- كل هذا من أجل سعادتنا التي أريدها الليلة سعادة أنانية، أي أن تقدم الخدمات لنا وحدنا دون الآخرين.
- لكن يا بول جمالية الليلة أن تكون مع الآخرين، لا أن تكون وحدك مثل حائط يتردد منه بعض الصدى من حين إلى آخر. هكذا يشعر النادل حين يقدم خدمات لمائدة واحدة.

حين بدأ الشابان الهادئان يتحدثان عرف بول أنهما ألمانيان. فسأل جين:

- هل استطعت يوما تعلم الألمانية؟
- لا، لماذا؟

- حسنا فعلت، لأنه لو خصصوا لك أفضل مدرس لما تحملت هذه اللغة ساعة واحدة. أنا لا أستطيع فهم هذه اللغة، كما أنني أتصور أنني لا أستطيع إفهام أفكاري للآخرين باللغة الألمانية.
- وكيف قرأت وفهمت إريش ماريا ريمارك؟
- قرأته بالإنجليزية.
- وكيف استطاع المترجم نقله إلى الإنجليزية. موقفك هذا يتطلب مراجعة. وأُرجع موقفك العدائي هذا إلى المرارة التي تركتها في نفسك برلين، التي قلت لي إنها مدينة بشعة كانت تهدد وجودك.
- هل رأيت، رأي تينيسي فيك صائب. أنتِ تتفلسفين أكثر منا جميعا.
- يهمني رأيك أنت وليس رأي تينيسي. بالمناسبة هل وجد الفيلا التي يبحث عنها؟
- هو يعول على شكري، وشكري يعول على ساعي البريد الذي يدعى بوغالب. غير أن شكري يبدأ برنامجه بالشرب وينهيه بالشرب. فمتى سيجدان الفيلا إذن؟

رفع بولز كأسه إلى أعلى ما استطاع وأفرغه في جوفه دفعة واحدة. فسألته جين:

- من وشى لك بشكري، المرابط؟
- نعم.

- المرابط يكره شكري.
- من أين عرفت؟
- ألم تلاحظ أنهما لا يتبادلان الكلام حين يزورنا شكري؟
- لقد لاحظت ذلك، لكن فسرته بكون المرابط لا يحدث أحدا حين يفرط في تدخين الكيف.
- شكري أيضا يبالغ في شرب الويسكي، لكنه يبقى مهذبا ويتواصل مع الجميع. إنه يعي جيدا معنى أنه ضيف.
- شكري ضيف؟ لقد أصبح مقيما معنا، وإني أخاف أن يكتب عنّا، أو عني وحدي، كتابا شبيها بالكتاب الذي كتبه عن جان جونيه.
- لقد وضع كتابا جيدا عن جونيه، وإلا لما قدم له بوروز. أنا قرأت الكتاب ووجدته صورة متكاملة عن اللص.
- ليس كتابا عن جونيه اللص، بل عن جونيه الكاتب الخارق.
- المهم أنه كتاب نظيف وشيق.

لم يرغب بول في متابعة النقاش عن جونيه وشكري. ابتسم لحبيبته التي تجلس أمامه. وبدأ يحدثها عن السعادة الداخلية النادرة التي يشعر بها. فبدأ يغني ويصفر ويضرب بأصابعه على المائدة، كما كان يفعل قديما جدا. كان ذلك بمثابة كوريغرافية صُمّمت جيدا لتناسب سعادة فنان يحاول استرجاع زوجته. أما جين فكانت تستمع إلى لحن داخلي يخرج

من كل جزء في جسده. فبعد عدة أشهر من التعثر والركود ظهر فجأة حلّ لجميع مشكلات بول، التي في النهاية هي مشكلاتها أيضا.

حدث بول زوجته جين عن الستة أسابيع التي سيقضيها بعيدا عنها، رفقة الكندي كريستوفر وانكلين، الذي قضى خمس سنوات في طنجة، ويتكلم اللهجة المغربية بطلاقة. فهذا الرجل الودود والمتحضر قرر البقاء مع بول حتى اكتمال المشروع. ورفقة ابن الجبال المقيم أيضا في طنجة، ويدعى محمد العربي الجيلالي.

ظهرت على وجه جين مسحة حزن خفيف، رغم أنها حاولت إبداء روح عالية تجاه سفر بول إلى الجبال والصحراء. فخلال ستة أسابيع ستتغير حياتها بالكامل. فكلمته بخصوص الاتصال بجيرترود شتاين التي كانت تقيم في فندقها الاعتيادي «فيلا فرنسا»، الغاص دوما بالسياح. لكن بول أبدى تبرما غير صريح من الفكرة. فأعادت جين عليه السؤال:

- هل أتصل بجترورد؟
- لا أعرف بالضبط هل ستكون فكرة جيدة. فأنت تعرفين أن جترورد امرأة متقلبة المزاج.
- أخبرني، هل تخفي عني شيئا بخصوصها؟
- لا أخفي شيئا، ليس هذا هو التعبير المناسب. لقد سمعتها أكثر من مرة تتحدث بالسوء عن أناس تظهر لهم الود أثناء وجودهم معها. لقد سمعتها تتحدث عن عزرا باوند. فحين أثرت اسمه أمامها

اتتفضت فجأة: «لن أستقبل عزرا باوند في بيتي مجددا». بقيت صامتا، ثم تابعت بنفس التوتر: «كل ما يقوم به هو الجلوس لنصف ساعة. وحين يغادر يكون الكرسي والمصباح قد تكسرا».

- هاهاها، عزرا باوند رجل طويل القامة تغطي وجهه لحية حمراء. لكن هل كان سقف بيت جيرترود واطئا إلى حد أن باوند يكسر المصباح برأسه حين ينهض؟
- هذا لتعرفي كم هي لئيمة. فالرجل يعامله الجميع باحترام. جيرترود لا تريد إلا الرسامين الذين يبيعون لوحاتهم في أشد أوضاعهم فقرا وحاجة للمال. والأمر الأكثر شناعة أنها عممت على معارفها رسالة تخبرهم فيها أنها ستكون في غنى عن صداقة باوند. ما هذا؟ إنه سلوك عبثي يصعب تصديقه.
- إنها طريقة فظة في الإعلان عن المواقف. أرفض أن يحدث معي ذلك. وإنني في الحقيقة، رغم سذاجتي، أعرف الهدف الجدي الذي لديها. أي مثقفة هذه التي تحوك المؤامرات ضد واحد من أهلها: عزرا باوند.
- جمع المال من وراء أعمال الرسامين المساكين في طنجة التي تريد تحويلها إلى محمية للرسامين الدائمي الحاجة إلى المال.

بدأت جين تشعر بألم خفيف في الظهر. لكنها واصلت الادعاء بأنها بخير. ولا يبدو أن بول لاحظ آثار الألم، أو سمع أنين فقرات ظهر جين. لكنه فاجأها حين قال لها:

- نذهب الآن لنكمل السهرة في البيت ونرقص قليلا. هيئي عمودك الفقري للتمايل والدوران.

– 8 –

حين وضعت جين رأسها على الوسادة استرجعت لحظات السهرة مع بول، وبدت خائفة من أن تكون ثقيلة الظل. لكن سعادة بول ووجهه الأحمر الممتلئ حيوية وتعبيرا كان يقول إنه كان يريد أن يفرش لها البساط الأحمر على الأرض. إن سعادة أحدهما بالآخر ليست مجرد إحساس تصنعه الظروف والمواقف، بل هي بالتحديد تاريخ، تاريخهما معا الذي يتأرجح بين كأس ماء عذب وكأس دمع مرّ «عندما مات نرسيس، تغير غدير لذّاته من كأس ماء عذب إلى كأس دمع مرّ» (أوسكار وايلد). تجد جين نفسها، بحسب قصيدة وايلد، حورية تلال تأتي باكية عبر الأحراش والغاب لتمنح الغدير بغنائها بعض العزاء. أما بول فكان طيلة السهرة مثل نرسيس، يجلس على الضفة ويحملق في مرآة مياه جين، فكان يرى جماله منعكساً بصفاء.

كانت طنجة تبدو مهجورة، لا أحد. وكل من غنّى فيها بصوت عال يسمعه الآخر في أقصى حدودها. لذلك فضل بول الرقص في البيت. وما أن تفوه بلفظة «رقص» حتى بدأ جسد جين يتهيأ للاهتزاز الأكثر حدة. كانت الريح تنقل صوت ريح البحر القوية. ضحكت جين حين استرجعت ما قاله لها بول همسا وهما يرقصان: «أنا وأنت برقصنا هذا

سندخل معجم الأعلام». مع انتهاء الجملة شعرت برغبة في طعم القهوة. هيأت لنفسها فنجانين، واحداً لها، وواحداً لبول نام قبل أن يشربه.

ما سيقوم به بول غدا تعوّد على القيام به في برلين، حين كان عمره عشرين سنة. تسجيل الموسيقى والألحان، والبحث عنهما أينما كانت هو الجانب الأمريكي الأبرز لديه. كان قد وضع الترتيبات اللازمة لمشروعه حتى قبل الحصول على الموافقة من مكتبة الكونغرس. وقد كان سعيدا أكثر بالشمس التي يكون دائما حريصا على اجتناب التعرض لأشعتها وهو يجلس في مقهى على ناصية شارع. لكنه ما أن يغادر المدن الكبرى، حيث الشمس تصيب بضربة حقيقية، حتى يظهر لديه ذلك الهوس الأمريكي بالطبيعة. وحين يعود من أمكنة الشمس تلك يتخذ جلده لونا أحمر كما لو كان يحترق. بذلك اللون كان يعود من برلين على الخصوص. لكن الشيء الذي يجعله مطمئنا أنه سيكون بين المغاربة الذين يقول عنهم دائما إنهم، حين يكون بينهم غريب أوروبي أو أمريكي، لا يتصرفون تجاهه كما لو أنهم أعضاء في جمعية سرية يتعاملون بأشياء ويتحدثون بلغة وحركات غامضة لن يعرف سرها أي أحد خارج المجموعة. له في هذا الأمر تجربة مرة في ألمانيا وإنكلترا وإسبانيا. وهذا ما كان يولد لديه إحساس بأنه في تلك الأمكنة شخص غير مرغوب فيه. أما هنا في طنجة فالتجربة مختلفة تماما. إنه بين قبيلته.

استيقظت جين مباشرة بعد سماعها صوت يد بول وهي تغلق الباب من الخارج. وجدت على المائدة فطور بولز القاتل: طاقم ضخم من القشدة، خبز شوكولاتة ومربى الفراولة، وذلك ما سيشكل الأساس لآلام الكبد التي ستقض مضجعه لسنوات عديدة. تجاهلت جين المائدة وهيأت مائدة مغايرة، صِحيَّة بحسب حالتها وذوقها: زيت زيتون وعسل، ثم الخروج إلى أشعة الشمس في شوارع طنجة، وهي في طريقها إلى مركز البريد.

ألقت جين نظرةً على دولاب ثياب بولز لتتأكد من أنه أخذ ما يلزمه من الملابس، فلم تجد القمصان والسراويل. لقد حمل معه ثيابا تكفي لأربعة رجال. فمن يسمعه يتحدث عن فوائد شمس المغرب يظن أنه سيبقى عاريا. القليل من الثياب، الكثير من الثياب، كلا الفكرتين سيئة جدا. وحين يعود من رحلته ستجد حقيبته شبه فارغة. فثيابه غالبا ما تُسرق منه. والمتهمون ينكرون دائما ما قاموا به. آخر سرقة هي ما قام بها رجل يدعى عبد القادر الذي سرق كل ثيابه في مراكش، وشوهد وهو يبيعها طيلة أيام في ساحة جامع الفناء.

كما أنها حين علمت أنه ذاهب إلى مناطق جبلية حذرته من شرب حليب الماعز. فلهذا الحليب ذكرى سيئة في نفسه، فبسببه أُصيب بحمى مالطا، ولازم الفراش في المستشفى الأمريكي بـ«نويلي» ليخضع لسلسة من الفحوصات. كما أوصته بحلق لحيته يوميا، فحين يهملها تصبح بشعة

بسبب لونها الأحمر، وحين صعد لينام في غرفته بعد تلك الرقصة الرومانسية التي تلت عودتهما من المطعم قالت له: «لا تعد بلحية المسيح تلك». فتوجهت إلى الحمام وعادت وهي تحمل في يدها موسى الحلاقة. أما بول فكان على قناعة من أنه بعد هذا الأمر الصادر عن جين فإنه لن يقضي يوما واحدا دون حلاقة.

تشهد جين أن بولز توجه إلى الجنوب بشعور من التفوق. فاللون الموسيقي الوحيد الذي يقدره كثيرا هو الطرب الأندلسي، أما باقي الألوان الموسيقية فهي مجرد تنافر أصوات وصراخ وقفز. وذلك ما سيحكم على مشروعه بالفشل. بل وذلك ما كان وراء معارضة مجموعة من المفكرين المغاربة لمشروعه هذا. فقد كانت بداية مرحلة التوق إلى التحرر ومحاربة الكولونيالية ثقافيا وفنيا. كان عليه الاستفادة من الآثار السيئة التي خلفتها جرترود، ليس بين المغاربة فقط، بل بين فنانين وشعراء من كل العالم. فالكل بدأ يحس بأنه أمام امرأة يهودية، وليس فنانة أو كاتبة أو مثقفة. والدليل هو شهادة والدة بولز نفسها التي نبهت بولز وهي تسخر منها: «إنها تبدو كعمود الباقلاء. من الأفضل لها أن تحترس. إن ظهرها أحمر كسرطان البحر. لا أصدق أنها لا تتألم به». كل ذلك مصدره أن جين خائفة على مستقبل بولز في هذا البلد الذي اختار العيش فيه إلى آخر أيامه من بين مجموع البلدان التي زارها وعاش فيها لفترة قد طالت أو قصرت.

لم يسبق لبولز، على الأقل بالنسبة لجين، أن نطق بكلمة «شرق». فهي غير موجودة ضمن قاموس مفرداته. بل كان يُعبّر عنها بمفاهيم أكثر شمولا وعمقا مثل «الملحمة اللامعة». وفي مناسبات كثيرة كان يحاول تحليل بعض ملامح المغاربة، كالتطير، وغرابة الطباع، والتعصب. وقد كانت جين تفهم ذلك، ففي دماء بول تجري دماء الإغريق والرومان حيث الرصانة وبرودة الدم. وتذكر مرة عندما كانا في إسبانيا قال أمام فنانين إسبان إن إسبانيا تتحمل مسؤولية عظمى في ما وصل إليه العرب اليوم، فحين طردتهم إسبانيا، عمّ بينهم الجهل وسيطرت عليهم سلوكيات قاسية وظلامية ما زالت إلى اليوم. إسبانيا، بحسب بولز، مسؤولة عن إنتاج جنس بشري فظ.

هذه «الفظاظة الشائعة»، بحسب تعبيره، على هذه البقاع الجميلة هي ما ظل يهم بولز. لقد نقلها في قصصه ورواياته ورحلاته ومقالاته وألحانه. إلى درجة أن جين كلما رأت بولز يدخن وهو شارد الذهن والنظر تقول في نفسها: «لأدعه يتأمل ما سبّبه التعصب للعرب من خراب». وحين يُجابه بالاحتجاج، المتعصب هو الآخر، من طرف أحد المغاربة، يعود إلى فولتير الذي كان في نظره أهم من تأمل في مقالاته مظاهر ونتائج تلك السلوكيات. لكنه يفضّلهم على الأتراك الذين استعمروهم عندما كانوا في حالة الوهن. وسبب تفضيله العرب على الأتراك، أنهم يميلون إلى تفضيل العلوم. لكنهم يشتركون في نعتهم للمسيحيين واليهود بالـ«خنازير». في

هذه المواقف بالضبط يتحول بولز من فنان إلى مفكر. لكن في المجمل كان يؤمن بأن المغاربة، والعرب عموما، كان يمكن أن يكونوا أفضل حالا مما هم عليه.

لكن جين كانت على قناعة تامة بأن بولز يتخلى عن كل أفكاره ويبدأ من درجة الصفر للفكر، ويشرع في الاكتشاف الفطري البريء لكل ما هو في غمرته. لقد كان يقول لها إنه وهو ذاهب إلى تسجيل موسيقى البادية والجبل لا يفيده فولتير أو رينان أو فلوبير في شيء، إنه ذاهب ليكتشف بنفسه، وهناك على الطريق مفاجآت لم يعشها لا هذا ولا ذاك.

حين خرجت جين من البيت إلى الشارع، شعرت كأنها قطرة ماء سُكبت من إناء إلى إناء، وعين ما ترصدها. إنها رحلتها الاعتيادية من النقطة «أ» إلى النقطة «ب». هذه هي القصة التي لم يستطع بولز قراءتها. فجين تقرأها وحدها وهي تسمع قلبها يخفق، وترى إبرة التخطيط الباني ترسم ببطء الصعود والنزول والمنعرجات. صمت يحيط بها في الشارع. الأشجار تحركها ريح خفيفة، والسيارات القليلة تمر جنبها، والناس يتحدثون ولم تسمع شيئا، فهل عادت إلى زمان الفيلم الصامت؟ إذا قرأ بولز هذه القصة لن تعجبه أحداثها ونهايتها.

هذا الصمت ليس خدعة سيئة، فقريبا لن تستطيع سماع حتى صوتها وأنفاسها. قالت شاعرتها المفضلة «فيسوافا شيمبورسكا» في إحدى

قصائدها: «أهز الذاكرة- لعل شيئا في أغصانها/ هاجعا منذ سنين/ ينطلق صافق الجناحين».

أرادت جين أن تتذكر، لكن يبدو أنها طلبت الكثير. وفجأة بدأت تسيل من عينيها دموع هي خليط من الضحك والبكاء. دموع من وجد نفسه فجأة ينفصل عن شيء لم يفكر ذات يوم أنه سينفصل عنه. بدأت تسير بسرعة مثل طائر يدفع أجنحته بصعوبة وسط رياح قوية. لا يمكنها أن تتذكر. لا يوجد أي شيء على قائمة ذاكرتها. لكن الثابت فيها هو بولز، فهي خائفة عليه من رحلاته داخل المغرب، فكل شيء خارج طنجة يبوء بالفشل. من جديد حضرت شاعرتها شيمبورسكا من خلال قصيدتها «بورتريه امرأة»:

«عليها أن تكون طوع الاختيار
تتغير كي لا يتغير أي شيء.
هذا بسيط، غير ممكن، صعب، يستحق التجربة
عيناها كما تريد، مرة زرقاوان وأخرى رماديتان».

كان تأليف الموسيقى بالنسبة لبولز، ومنذ شبابه، هو العمل الممكن. وكانت أسرته، على العكس من ظنه، ترى في الموسيقى عنوانا على العطالة. وإن أمكن لجين إطلاق عنوان على رحلته الحالية إلى الجنوب لتسجيل الموسيقى، لما وجدت أفضل من عنوان أقدم موسيقى ألفها من وحي لوحات الرسام المغمور آنذاك «أوجين بيرمان»: «نزهة وحيدة

لشاب غريب الأطوار يجمع ويتأمل شذرات قديمة». إضافة إلى أن موضوع الرحلة، بحسب طموح بولز، كما أخبر جين، ليس فقط نقل موسيقى ناس الجنوب، بل أيضا وصف لحياة هؤلاء الناس، رجالا ونساء وأطفالا ومجالا صحراويا ممتدا ومتاهات فكرية نادرة في العالم. تماما كما كانت موسيقى بالي «نزهة وحيدة لشاب غريب الأطوار يجمع ويتأمل شذرات قديمة»، ليست فقط وصفا للوحات بيرمان، بل أيضا لبيرمان الشخص. كانت عبقرية بولز دوما هي النفاذ من الفن إلى الفنان. وذلك ما ظلت جين تحاول أن تتعلمه منه. أما ما ظلت تجتنبه فهو أن يؤثر نجاحه عليها، وأن يعميها ضوءه الباهر.

– 9 –

حين غادرت جين الدار الكبيرة، كما كان يسميها كل وافد إليها وكل مقيم، تركت وراءها سكينة شاملة في الغرف والمطبخ والحمام. أطفأت الموسيقى وفتحت النوافذ لتدخل الشمس إلى الأرجاء الباردة. منذ أن قدمت إلى طنجة تعلمت أن تترك الضوء يدخل. لا يعني ذلك مجرد فتح النوافذ، بل هو فن قائم الذات، شبيه بعمل الرسام. وهي على علم تام بمن جاء من الرسامين إلى طنجة، وهيأوا إدراكهم وعقلهم ولونهم لضوئها.

مرت جين، وهي في طريقها إلى مركز البريد ببناية مسرح سرفانتس، تلك البناية الشبيهة بالقصر، التي لم يتسن بعد للزمن هدمها بالكامل. لكنه سيفعل دون مقاومة، فالسلطات المغربية لا تهتم لأمر البناية، ولا تعرف من يكون سرفانتس، ولا الدولة التي دخلت وخرجت بعد استعمار دام عدة عقود تاركة وراءها آثارا عديدة. البناية تذبل تحت الشمس وحيدة. والفن يكاد يحرّمه الجميع دون إعلان ذلك صراحة.

كان الهواء يهب باردا من جهة المتوسط، وجين تعتبر جوا كهذا مناسبة للمشي أكبر مسافة ممكنة. فقط ما تخافه هو أن تلتقي أحد أصدقائها وهي تتجول شاردة وخالية البال. فكثير منهم هذه الأيام قدِموا من أمريكا وفرنسا وألمانيا. ولا جديد لديهم سوى أسئلتهم الموحدة عن

الصحة، التي تجتنب جين الأسئلة حولها، والأدب والفن، اللذين لا يشغلان بالها الآن، فبولز يقوم بالدور المنوط به في هذا الجانب، وشكري يأتيها بجديد ترجمات الروايات والمسرحيات من الإنجليزية إلى العربية، وتينيسي هو علبة أسرار وأخبار المسارح الأوروبية والأمريكية وما تعرضه من مسرحيات وسهرات موسيقية. وتلك أخبار متشوق لسماعها بولز أكثر منها. كما أنها، في غيابه، لا تستطيع سماعها والاحتفاظ بها طازجة في ثلاجة ذاكرتها، لتطعمه منها حال عودته من رحلاته. وعند سماعها تظهر بشكل فجائي غيمة من الحزن على وجهه لا أحد يستطيع فهمها غيرها هي، فبولز يصبح حزينا حين لا يتمكن من حضور الحفلات الموسيقية، ويزداد حزنه لأن فرصة الاستمتاع بها شبه منعدمة.

من يرَ جين وهي تسير في شوارع طنجة، وترفع رأسها وتبقيه في الأعلى أثناء سيرها مدة زمنية طويلة، أو وهي تتوقف وتنظر إلى البنايات وما وراءها من مشاهد طبيعية، يظن أنها تتوسل بالمكان لتصفه في رواية جديدة. بهذه الطريقة جمعت في ذاكرتها تفاصيل مناظر من باناما التي مكثت فيها أكثر من عشرة أيام، فأصبحت أمكنة وفضاءات مهيمنة في روايتها «سيدتان جديتان». والمتأمل أكثر في لون وجهها، طمعا في النفاذ إلى حالتها الجسدية والنفسية، سيلاحظ أن سمرة طارئة غلفت بشرتها، فغدت قريبة من سحنة البنات المكسيكيات المرحات. هكذا كانت تُنعت في نيويورك، بعد عودتها من المكسيك. كان الشتاء قاسيا، وكان بولز

منشغلا بالوفاء بالعديد من الالتزامات الموسيقية. وذات ليلة مميزة، أثناء الحفل الذي تلا العرض الافتتاحي لمسرحية «ليبرتي جونز»، تم تقديم جين للضيوف على أنها «زوجة بول المكسيكية، الصغيرة والمرحة». بين نيويورك وطنجة ما زالت جين تلك «المكسيكية المرحة». حين تذكرت ذلك قفز إلى وجهها ضوء لامع، أضاء من عينيها في البداية ثم انتشر في باقي جسدها. بدأت تسرع في مشيتها، وتلتفت كأنها تريد أن تسير في كل الاتجاهات. أصبحت امرأة قوية- تواقة ومنشغلة بألف فكرة تعمل داخل رأسها مثل طاحونة الصامتة.

حين يبتعد عنها بولز تراه بوضوح. لكنها لم تفهم الأسباب التي كانت وراء رفضه لفكرة تبادل الزيارات مع جيرترود، مفَضّلًا مرافقة محمد شكري وتينيسي ويليامز عليها. كان يراها امرأة مليئة بالنشاز، غامضة، تفعل كل شيء دون إتقان شيء واحد، باستثناء التحريض عن الناس واستغلال الضعفاء، دون أن يصرح بذلك أمام الأصدقاء. بولز موسيقي بارع وموهوب يرفض النشاز في الحياة وفي العزف الموسيقي. وكان يذكر أمامها دائما واقعة أفلاطون التي قرأ عنها وبقي يرددها بكل فخر في حالات النشاز، لأنها واقعة تلخص ما يمكن أن يحدثه في البدن عازف لا يتقن الأوزان الموسيقية. زار أفلاطون في أواخر أيامه أحد الفلكيين ورجلا كلدانيا. وللتخفيف من أوجاع الحمى التي كان يعاني منها أفلاطون المحتضر، كان عازف يؤدي ألحانا على مزماره، فنشز في عزفه،

فقال أحد الزائرين إنه ليس في مقدور بربري أن يتقن الأوزان الموسيقية، فعادت الحمى إلى أفلاطون. وجين تذكر كيف أن بولز كان يمتلئ بالشفقة على أفلاطون، ويقول وهو متأكد بأن النشاز هو قاتله.

وهي تمشي في ذلك الصباح المشمس، كانت ترفع رأسها إلى المنازل وتركز نظرتها على الشرفات والأسقف. هكذا تنظر جين إلى ما يحيط بها حين تكون مشغولة بتحدي صعوبات وصف المكان في قصصها. كانت تستمتع بمشاهد مذهلة لدرجة أنها تتذكر يوم رأتها لأول مرة رفقة بولز وشكّت في أنها حقيقية.

حين انتقلت أول مرة إلى طنجة كانت تظن أنها ستُعجب فقط بالمياه والمراكب والضوء، لكن لم يخطر ببالها أنها ستعجب بالعمارة. كانت قد قرأت عند أحد المؤرخين أن المراكب كثيرة في هذه المدينة، حتى إن صواريها وأشرعتها كانت منتشرة مثل الذباب، مما جعلها تغطي مياه المتوسط إلى درجة أنها أوشكت تقريبا على حجبه. لم تعجبها عبارة المؤرخ «متكاثرة مثل الذباب». أصبحت جين لا تميل لمثل هذه التشبيهات القدحية، خصوصا في طنجة المستعمرة الدولية التي يرتاب أهلها من كلمات الأجانب المقيمين أو العابرين. لذلك فهي تفضل القول: «مراكب كثيرة مثل النوارس».

القطط أيضا منتشرة ومهملة على الطرقات، وتحت السيارات والشاحنات. تتحرك السيارة أو الشاحنة فينفر قطيع من القطط تحتها.

بعضه يحمل جراحا لم تندمل. كانت تقيم في مطبخ بيتهما في نيويورك قطة ضالة كانت قد صدمتها سيارة. جرحها لم يندمل. حاولت هي وبولز التعجيل بشفائها بتقديم طعام منتظم وتخصيص مكان دافئ للنوم. لكن ذلك لم ينفع في شيء. فالقطة مسنة ومتعبة من حرب الشوارع ومذعورة من البشر. لقد قضت حياة كاملة وهي تتدحرج بين الأقدام والعجلات. وتذكر كيف أنهم خلال حفلة امتدت حتى الصباح، كان سالفادور دالي في المطبخ يحضر لنفسه قهوة، فأصيب بالذعر حين شاهد القطة الجريحة، فغدا شاحبا، الأمر الذي فاجأ بولز. وحين لاحظ دالي أن بولز انتبه لردة فعله اعترف له قائلا: «أكره القطط وخصوصا تلك التي تحمل جروحا».

تذكرها قطط طنجة الجريحة، التي تقضي حياتها بين الأقدام والعجلات بالقطة الجريحة في نيويورك. وكل شخص يصاب بالذعر حين يشاهد القطط يذكرها بدالي وهو يعد قهوته في المطبخ، وفجأة يصاب بالذعر حين يرى القطة الجريحة.

دون أن تنتبه، وصلت جين إلى مركز البريد. اتجهت مباشرة إلى صندوقها ففتحته بخفة لأنها رأت من ثقب صغير في الصندوق اللون الأبيض المميز للرسائل التي تصل من فرنسا. إنها رسائل عدة بيضاء وصفراء ومن مختلف الأحجام. كتب ورسائل شخصية وبطاقات دعوة. لكن ما أثار انتباهها هو رسالة من طرف سيدة اسمها أنجلينا أناييز، هي الكاتبة «أناييس نين»، كما جاء في التوقيع. فرحت جين كثيرا بالرسالة،

فانبرت جانبا وجلست على كرسي وضع على مخرج مكتب صغير. فتحت المظروف شديد المتانة وأخرجت منه ثماني أوراق مكتوبة بخط يُقرأ بصعوبة. بذلت جين جهدا كبيرا في فك رموز خط أنابيس الرديء. لقد أحصت الآنسة نين كل الأخطاء التي تمكنت من العثور عليها في روايتها «سيدتان جديتان». أعادت جين الأوراق إلى المظروف وأرجعتها إلى مكانها في الصندوق، بينما احتفظت بالرسائل الأخرى التي هي عبارة عن تحيات من أصدقائها في العالم أجمع.

لم تكن جين تعرف صاحبة الرسالة إلا من خلال الاسم. وذلك ما جعلها تكاد تنفجر من الغضب. وبعد حين بدأت تضحك، فهي تعرف بعض أوصاف نين، هذه المرأة قصيرة القامة «قامة قصيرة ولسان طويل»، هذا ما أضحكها.

وهي خارجة من مكتب البريد، برز أمامها فجأة تينيسي ويليامز رفقة محمد شكري. لاحظ بولز التوتر على وجه جين. سألها عن الأمر، فعادت إلى الصندوق وأخرجت منه الرسالة ومدتها إليه:

- اقرأ هذه الدراسة النقدية.

أحصى تينيسي الأوراق، وركز بصره على الخط الرديء. فقالت له جين بصوت آمر:

- اقرأ التوقيع.

قرأ تينيسي الاسم وهو يتذكر:

- أنابيس نين، أنابيس نين.
- نعم هي.

بعد لحظات طوى تينيسي الأوراق وأعادها إلى المظروف وقال بانفعال:

- لكن ماذا تريد بحق الرب؟
- أوه، لا شيء. إنها تريد فقط أن أعلم كم أنا كاتبة سيئة.

بقي محمد شكري يلاحظ الحوار بدهشة. فهو لم يفهم شيئا مما قيل. لقد كانت جين تتحدث بانفعال وبإنجليزية أمريكية سريعة. تخيل في البداية أنها تشتم. لكن ردود تينيسي المرفقة بالحركات، خصوصا حركة يده وهو يضعها على كتفها، وعينيه وهو يرفعهما إلى السماء كأنه يبحث عن الكلمات، كل ذلك بيَّن له أن الأمر لا يتجاوز الشؤون الأدبية. لكن اللَبس هو في وجود اسمين في الحوار: أنجيلا أناييز، وأناييس نين. فشكري لم يفهم من الحوار سوى هذين الاسمين اللذين طرقا سمعه. الثانية كاتبة، فهو يعرفها وقرأ بعض قصصها، لكن الأولى من تكون؟ ناقدة؟ ناشرة؟ كاتبة قصص؟ وجَّه شكري هذه الأسئلة إلى تينيسي الذي وضح له أن الأمر يتعلق باسمين مختلفين، لكن بشخص واحد هي الكاتبة أناييس نين التي بقدر ما تحمل من الأسماء تحمل من الأقنعة والهويات. صمت شكري وأطرق، ودخل من باب المركز إلى ممرات

متفرعة بحثا عن ساعي البريد بوغالب، تاركا تينيسي يهدئ من روع جين المجروحة في أعماقها من رسالة كثيرة الورق والرصاص.

اقترح تينيسي على جين السفر إلى مراكش والإقامة في الفندق الأسطوري «المامونية». فهناك ستجد امرأة الشمال ما تبحث عنه. ما أن سمعت جين اسم المامونية حتى استشعرت ذبذبة شاعرية وتاريخية في جسدها النحيف. فالمامونية تعني الحدائق والمروج والطبخ المغربي والهواء والهدوء والعطور الخرافية المتطايرة في الهواء. فكل الناس الذين سافروا إلى أعماق إفريقيا، أو قدموا من الشرق أو الشمال جاؤوا لمراكش، وأقاموا في فندق المامونية، ووضعوا خبراتهم الأزلية فيه. خبرات سافرت وتنقلت بدون جواز سفر واستقرت هناك، وبقيت تطل على المروج. لذلك فهو مكان يجذب الأرواح.

بدا التردد على وجه جين بعد أن اقترح عليها تينيسي السفر معا إلى مراكش. ففي نهاية الأسبوع ستصل والدة بولز من نيويورك، ولا أحد سيتقبلها غيرها إلى حين عودة بولز من الجبال. أقنعت تينيسي بتأجيل فكرة السفر إلى مراكش إلى حين وصول والدة بولز التي سترغب في زيارة المدينة الحمراء.

خرج شكري من بوابة مركز البريد مندفعا كأنه شيء قُذف به من الداخل بقوة دفع عنيفة. إلى جانبه ساعي البريد بوغالب الذي سلّم بيده

على تينيسي وأومأ برأسه لجين. اقترب شكري منها وأظهر لها مسرحيتين لجان بول سارتر مترجمتين إلى العربية:

- هل تُرجمتا إلى الإنجليزية؟
- لا أعلم ولا أهتم بسارتر. فأدبه متجهّم مثل وجهه.
- هل تعرفينه شخصيا؟
- نعم التقيت به حين حل بنيويورك بحفل أقيم يوما هناك. كان يأتي عند صديقه البرتغالي دولوريس أهرنرايش. كان بولز يعمله بتقدير، إلى درجة أنه تناول معطفه من على كتفيه. وحين ذكَّرته بلقاء سابق بيننا بساحة واشنطن، هزَّ كتفيه غير مهتم، وادَّعى أنه لا يذكر. ذلك سلوك غير مهذب. ومنذ ذلك الحين كلما سمعت الناس يتحدثون عنه، أو يحلّلون فلسفته أقول لهم إنه مجرد رجل دائم التجهم، وغير مهذب.

انفجر شكري ضاحكا:

- عظيم، لم أسمع من قبل شخصا يتحدث عن سارتر كما تتحدثين عنه.

فاحت من فم شكري رائحة الفودكا. تقززت جين وأضافت:

- وكل شخص ذي فراسة سيدرك أن سارتر رجل غريب الأطوار. الشهرة يا محمد، الشهرة التي حين تبتسم لشخص ما فعليه أن يلحظ أنيابها الحادة، الطاحنة. أنا دائما في حضرة المشاهير أكون

متوترة. هل تستطيع أنت أن تنسى شيئا، أو شخصا وقع نظرك عليه؟

- حين أكون ثملا أنظر وأنسى ما وقع عليه نظري.
- ما رأي بولز في سارتر، هل هو رأيك؟

تدخل تينيسي بعدما لاحظ الحرج على جين في الحديث عن سارتر:

- بولز من أشد المعجبين بسارتر. قرأ له «الجدار» و«الغثيان». ومن خلاله بحث عن كتب جان جونيه وقرأها. لأن سارتر كان دائم الحديث عنه. بل كان يرتعش من شدة عواطفه تجاه جان.

قاطعت جين كلام تينيسي:

- لم تكن كتب جونيه متوفرة في نيويورك، فاستعار نسخة كتاب «معجزة الزهرة» من جيان كارلو مينوتي. وحين قرأه أبعده من دائرة تأمله الجدي، فهو مجرد كتاب إباحي.

ردَّ تينيسي والأفكار والذكريات تتدافع في عقله:

- لكن بولز غيَّر رأيه في جونيه بعد سنوات، أي بعد أن خبا الوهج الإباحي.
- لقد اقتنع بعمق المأساة عند الإباحيين، هذا ما اقتنع به بولز وليس بلغة جونيه الذي يعتبره في الكثير من الكتب ثرثارا وغامضا.

في اللحظة التي طرقت فيها كلمة «إباحيين» سمع بوغالب الذي كان قادرا على فهم الإنجليزية قال لتينيسي:

- سيد تينيسي، هناك مجلة وصلت إليك من نيويورك، وهي الآن على مكتب الجمركي، ويرفض تسليمها إليك بدعوى أنها مجلة إباحية.

قال تينيسي بانفعال:

- لا شك أنها مجلة «بلاي بوي»، ما الذي أزعجه فيها؟
- كان شديد الاشمئزاز من صور الرجال والنساء العارية.
- يا أخي، ليشمئز كما يشاء ويعطِني مجلة مسجلة باسمي.
- لقد جمع موظفي المركز حوله وقال لهم: «انظروا، هل هذا ممكن أن يدخل المغرب؟ إنها صور قذرة. لا ينبغي أن نسلم هذه المجلة الخليعة».
- أولا المجلة لم تدخل المغرب، بل دخلت طنجة. هذا أمر مهم. ثانيا المجلة تباع في طنجة.

لم يكد تينيسي يكمل جملته حتى توجه غاضبا إلى مكتب الجمركي، وتحدث إليه بفرنسية ضعيفة:

- سيدي جئت لتسلّم مجلة جاءتني من أمريكا.
- هذه مجلة خليعة ولن نسمح بدخولها إلى المغرب.
- لكنها تباع في طنجة.
- كلا، كلا، لقد مُنعت من الدخول إلى المغرب. ماذا ستستفيد من صور رجال ونساء عراة.

ضرب تينيسي كفا بكف وصرخ بالإنجليزية هذه المرة:

- أووووه، لا يمكن أن يحدث هذا هنا. سأغادر المغرب غدا. إن هذا الإجراء لا يحدث في أي بلد في العالم.
- لا، غير صحيح. الرقابة موجودة في كل مكان. في باريس مثلا يفتشون الرسائل والطرود أكثر مما نفعل نحن.

ظل تينيسي يتحدث بالإنجليزية وبالفرنسية بالتناوب، وينظر إلى الوجوه ليرى هل فُهم كلامه. أما الجمركي فأمعن في تفتيش الرسائل الأخرى. لكنه لم يفتح رسالة يطل منها طرف شيك بنكي. أما تينيسي ففي الأخير لجأ إلى سخريته المرحة، فقال بعد أن هدأت أعصابه:

- هل تريد أن تتفرج أنت على صور النساء والرجال العراة. طيب أعطني الشيك، وصفحات المجلة التي تحتوي على قصتي المنشورة فيها. ليست هذه هي طنجة التي أعرفها. ما الذي وقع يا محمد؟ يا جين؟ يا بوغالب؟ يا عالم؟
- توجه الجمركي إلى محمد شكري وسأله بالدارجة المغربية:
- هل هو شاذ جنسي؟
- ليس من حقك طرح هذا السؤال، الرجل كاتب مشهور، وهو صديقي، أما أنا فكاتب أيضا وأستاذ.

بقيت جين تراقب ما يحدث، شاعرة أنها غريبة في المكان الغريب.

بعد هذه المعركة الساخنة، خرج تينيسي وشكري في اتجاه قاعة «مدام بورط» ليشربا شيئا باردا. أما جين فودعتهما وتوجهت نحو السوق، وهي تلتفت للإشارة إلى سيارة أجرة.

- 10 -

استقبلت مدام بورط شكري وتينيسي بفرح وترحاب. كانت جالسة قبالة المدخل شاردة، لكنها انتبهت لما رأت الكاتب المغربي وبرفقته رجلا أمريكيا لم تره من قبل. كان تينيسي يأتي إلى هذا المكان في السنوات الماضية، غير أنه ليس متأكدا من كون مدام بورط تعرفه. جلسا قرب نافذة مفتوحة تطلُّ على شارع موسى بن نصير و«غويا». شعر تينيسي بنسيم منعش، فهو يفضل مثل هذه الأمكنة. والسبب الثاني لشعوره بالراحة هو أن جين بولز تفضل المجيء إلى هذه القاعة.

يدخل شكري إلى هذه الأمكنة وهو مفلس وجائع وعطشان. وسيدة المكان، مدام بورط، تعرف ذلك. فما كان سَيلجُ المقهى لو لم يكن في رفقته شخص آخر، أوروبي أو أمريكي، يدفع ثمن ما أكل وشرب. لم يتناول طوال يومه سوى كوب من الحليب وقهوة. تلك هي مساوئ السكر اليومي، تبدأ يومك مفلسا بعدما سلبتك البغايا كل ما تملك. عندما يكون شكري في هذا الوضع تجتاحه كما يقول «خواطر القنفذ»، فينعت خليلات الليلة الماضية بـ«الفروج النتنة».

توجهت النادلة الإسبانية التي رأى شكري أنها تشبه البطة نحو تينيسي مباشرة فطلب حلوى وكأسي مارتيني بارد. عادت البطة وهي تحمل صينية مليئة بأشكال مختلفة من الحلوى. اختار تينيسي واحدة يفضلها

للونها الأبيض وحبات اللوز التي تزين سطحها. أما شكري فمد يده المرتعشة إلى واحدة لم يسبق أن تذوقها من قبل. سأل النادلة عن اسم تلك الحلوى، فقالت:

- اسمها «الراهبة».

رشف تينيسي من كأسه وأخرج من جيبه صفحات قصته «ساباثا والوحدة»، وضعها أمامه فوق الطاولة. يظهر من الصفحات أنها اقتلعت بعنف من كتاب أو مجلة. وبدأ يقرأ القصة. أما شكري فدفن رأسه في كتاب كان يحمله معه عنوانه «الثعبان ذو الريش» للورنس. وبين الفينة والأخرى يأكل من «الراهبة» ويرشف من كأسه ذي الشراب اللذيذ البارد. جو قصة تينيسي إيطالي، وجو كتاب لورانس مكسيكي، والموسيقى الهادئة إسبانية. كان تينيسي يضحك ضحكة خفيفة وهو يقرأ قصته. وعندما انتهى أعادها إلى جيبه.

كانت تبدو على شكري وتينيسي آثار سكر من ليلة البارحة. فشكري طاف على حانات كثيرة، وصرف ما يملك على الفروج النتنة. أما تينيسي فشرب إلى وقت متأخر من الليل في فندق رامبراند. مشرب هذا الفندق الواقع على الشارع يثير كل داخل، ويبقيه على كونتواره أطول مدة بفضل هدوئه وخدماته الجيدة وموسيقاه الكلاسيكية الساحرة التي تضفي على المكان سكينة مفتقدة في كل مكان آخر. نهض تينيسي وودَّع شكري وهو يضع يده على كتفه:

- محمد، إلى اللقاء. أنت تقرأ كاتبا عظيما، قراءة ممتعة. لا تنسَ أمر الغلام والفيلا. طنجة هذه لا أعرف ما وقع فيها، لقد تغيرت كثيرا.
- إلى اللقاء ياصديقي، نم جيدا. أتمنى أن أعرف غدا رأيك في كتابي «الخبز الحافي».
- آه نسيت، لقد قرأت جزءا منه، إنه وثيقة حقيقية عن اليأس الإنساني. غير أني لاحظت أنك بدأته بالبكاء. هاهاها. لابد أن تنهيه وأنت صامت. إن ما يبدأ بالحزن لابد أن ينتهي بالحزن.

حار شكري كيف يرد على تينيسي. لكنه فضل الصمت حتى تتبين حقيقة ملاحظته. فهو على كل حال خصص وقتا وقرأ جزءا من كتابه، الشيء الذي لم يقم به الكثير من أصدقائه المغاربة.

الجمل القليلة التي نطق بها تينيسي دخلت تحت جلد شكري، واختبأت هناك. الكتاب الأمريكيون والأوروبيون يجهرون بآرائهم في ما يقرؤونه من أدب. هكذا تكون الأمور حين تنفرد بكتاب داخل حجرة منعزلة. تهجم عليه دفعة واحدة، وتمسكه من الأجزاء الضعيفة. أما الأجزاء الجيدة والقوية فتتركها تعمل في عقلك وخيالك وذاكرتك. هكذا كان يعمل بولز مثلا، خصوصا في المرحلة التي قرأ فيها الكثير من الأساطير. فبدأ يستيقظ متأخرا، ويضع ترموسا من القهوة جنب سريره ويأخذ في كتابة أساطير خاصة به.

بقي شكري وحده يفكر وحيدا، وفجأة وضعت النادلة الإسبانية كأسا أخرى:

- هدية منا.

ابتسم شكري وتابع مع لورانس وكأنه على قارب هادئ يبحر فيه نحو الشاطئ. كان الجو يغشاه الضباب. وحركة السير هادئة وبطيئة. من بعيد يُسمع صوت سيارة تعبر، أو ضجيج دراجة نارية متهالكة تعبر الشارع بصعوبة مخلِّفة وراءها دخانا خانقا. فجأة تذكر مسرحية «حانة الغسق» لـ«آرتر كوستلر» التي كان يعمل بولز على إنجاز الموسيقى لها. وهو عمل، كما اعترف له، لم يأخذ منه وقتا طويلا. وسط أفكاره هذا أحس رجل «الخبز الحافي» أنه في مكان قبالة الشاطئ حيث يسهل الخلود إلى النوم، لكن مزامير السيارات أعادته إلى حقيقة موقعه؛ إنه في فندق رامبراند، وتينيسي لم يعد معه. وأنه قبل هذين الكأسين المنعشين كان يملك رأسا بلا فكرة. والآن الفكرة الكبرى التي تؤرقه وتقف على رأس قائمة الأفكار في رأسه هي: لماذا لم يتواصل منذ أسابيع برسالة واحدة؟

لم تكن الرسائل التي تصل إلى محمد شكري تتجاوز ثلاثة كيلوغرامات في الشهر. لا يمكن مقارنتها بالرسائل التي تصل بابلو نيرودا يوميا وهو في جزيرة «إيسلا نيغرا». فالرسائل التي تصل إلى بولز وزوجته جين وصديقهما تينيسي مجتمعة لا تصل وزن الرسائل التي كانت تصل إلى نيرودا وحده. لكن ساعي البريد بوغالب كان يكاد يطير من السعادة

حين يقرأ على الرسائل الأسماء الأربعة: بولز، شكري، جين، تينيسي. وبذلك إذا كان ساعي البريد «ماريو خيمينيث» يحمل على ظهره فيلا وهو يتوجه بالرسائل على متن دراجته إلى نيرودا، فإن بوغالب وهو يتوجه بالرسائل إلى هؤلاء كان يشعر بثقل دجاجة أو دجاجتين. لكن حقيبة بريد بوغالب كانت مثقلة بوزن إضافي: مسرحية تينيسي مترجمة إلى العربية «قصة فوق صفيح ساخن»، ومجموعة قصصية لبولز مترجمة إلى الإسبانية، وفصلان من السيرة الذاتية لمحمد شكري مترجمة إلى الإنجليزية من طرف بولز، والكتاب الأهم ضمن هذه الذخيرة هو رواية «ساعي بريد نيرودا». وأهميته تكمن من كون الرواية تتماهى معه. فطنجة تصبح بسهولة جزيرة «إيسلا نيغرا»، وبوغالب يتحول إلى «ماريو خيمينيث»، وبابلو نيرودا إلى محمد شكري، أو جين آور بولز، أو بول بولز، أو تينيسي ويليامز. لكن لا أحد يعلم هل اشترى بوغالب تلك الكتب من أول راتب توصل به في وظيفته، مثلما اشترى ماريو خيمينيث ديوان نيرودا «أغنيات بدائية» من راتبه الأول. كان يحمل الكتب النارية طيلة يومه كأنها كتب مدرسية سيجتاز اختبارا فيها في نهاية السنة الدراسية.

ثم هناك ملاحظة في غاية الأهمية، وهي أن بوغالب يحمل الكتب المذكورة دون توقيع أصحابها. وينوي أن ينتهز الفرصة التي تكون فيها أمزجتهم رائقة ويقدم لهم الكتب ويطلب منهم كتابة إهداءاتهم عليها. وإن اللحظة المناسبة هي تلك التي يتسلم فيها كل كاتب رسائله. لكنهم كانوا

يكتفون جميعا، كما لو على اتفاق مسبق، بإعطائه نقودا أو هدايا من أمريكا أو أوروبا، أو الاكتفاء بكلمة «شكرا». باستثناء شكري الذي كان يقدم له سيجارة يتكلف هو بإشعالها له. ويتذكر يوم سلَّمه ظرفا فيه مجموعة من الشيكات، ربما شيكين أو ثلاثة. أمسك شكري الظرف بتلهف، كأنه توصل بشيء كان ينتظره. اعتبر بوغالب أن تلك هي اللحظة التي كان ينتظرها منذ زمن بعيد، فأخرج من حقيبته كتابه عن جان جينيه «جان جينيه في طنجة» ومده له مع قلم حبر لتوقيع إهدائه. قبل شكري مبتسما:

- يا بوغالب، لدي كتاب سيصدر أهمّ من هذا.
- ما عنوانه؟
- «من أجل الخبز وحده».
- نعم لقد قرأت فصلا منه. أريد أن أصبح كاتبا مثلك.
- بقاؤك ساعي بريد أهم بكثير من كاتب مدمن على التدخين والخمرة. كل الكتاب في المغرب مدمنون.
- أريد أن أصبح كاتبا لقول كل ما أريد قوله.
- وماذا تريد أن تقول؟
- لست كاتبا لأقول لك الآن ما أريد قوله. لكنني أتذكر طفولتي على الدوام.
- ارجع غدا ونتحدث في الأمر.

بقي شكري في عتمة ركن بالفندق يتذكر الرسائل ويفكر فيها. الرسائل هي شهرته، هي حلمه الأدبي. لينظر كيف يذهب الكتاب الأجانب إلى مكاتب البريد فثمة دائما رسائل تصل من الناشرين والمترجمين والقراء والكتاب والنقاد. لكن أهمها بالنسبة إليه هي التي تحمل شيكات بنكية. حين خطرت على باله كلمة «شيكات» تذكر اليوم الذي سلمه فيه بوغالب رسائل كانت تضم شيكات. وكيف أغلق الباب بسرعة، بعد حوار قصير مع بوغالب، فقد كان متلهِّفا لمعرفة القيمة المالية للشيكات. نزل بوغالب الدرج وهو يردد اسمه. وقف شكري وسط الممر وفتح الظرف. ثلاثة شيكات بقي يتأملها حتى وصل إلى المطبخ. تناول كأس ماء كبير وجلس أمام التلفزيون، وبدأ يقرأ الأرقام ويستمع لنشرة الأخبار. مر بفترة صمت قصيرة وهو يحوّل العملات ويجمع المبلغ. تينيسي هو من سيعطيه مجموع مبالغ الشيكات بالعملة المغربية. ترى أين سيكون في هذه الساعة؟

حين واجه بوغالب الشارع الهادئ شعر بالسكينة الأصلية لمدينة طنجة. وبقي شكري داخل بيته يبحث عن القميص الذي أهداه تينيسي. ومباشرة سيخرج إلى مقهى باريس ليلتقي به. لقد انتقل من الكآبة إلى الفرح بفضل الشيكات. هكذا سيهدي لنفسه ولتينيسي نخب تلك القصص التي نشرها في مجلة أمريكية كان بولز قد ترجم لها تلك القصص. لكنه سرعان ما أحس بسحابة كآبة ثقيلة تجثم على العصفورة

الصغيرة التي تحت ضلعه، قلبه الأحمر الخافق. لقد كان في الحقيقة ينتظر رسالة من تلك المرأة التي أحبها وأحبته الصيف الماضي على شاطئ أصيلة. وسيبقى ينتظرها من يد بوغالب كل الأيام والليالي القادمة. رسالة ستصل في يوم ما، لأنها واعدته بأنها ستبعثها إليه.

لما أفاق شكري من غفوته شعر كأنه داخل السديم. أحس بألم في الرأس. لم تعد الأفكار تسقط عليه من السماء. خرج من زمان ودخل آخر. لا بد أن يختفي حالا من أمام العيون المنذهلة التي لا شك كانت تراقبه من وقت طويل. استيقظ برأس نائم بقيت داخله عدة أفكار صرعى. الوجهة المفضلة في هذه الحالة هي البيت. فقطيع الأفكار والخواطر شبه ميت داخل رأسه. وما حدث قبل ساعة لا يحدث الآن، تغيرت الوجوه والضوء والرائحة، كل شيء يجري داخل نهر هيراقليطس هذا، وعليه هو الآخر أن يبحر، لكن هذه المرة إلى البيت.

- 11 -

حين أفاق شكري من نومته، قفز من السرير، فهو لا شك على موعد مع تينيسي. لا يذكر بالضبط أين أو في أي ساعة. المهم أنه يتذكر بشكل غامض أنهما ضربا موعدا. فخرج يبحث عنه في المقاهي، فعادة ما يشرب تينيسي القهوة ويقرأ جرائد الصباح في مقهى باريس.

يحترق شكري لمعرفة أين يختفي تينيسي طيلة ساعات دون أن يكون في أي مكان من أمكنته المفضلة. يختفي الشهاب السريع، ويبقى شكري يبحث ويسأل ويخمن إلى أن يسقط الظلام ويتجه مباشرة إلى سريره ليقرأ أو يكتب أو يكمل نصف قنينة خمر بقيت من ليلة البارحة. وفي الصباح يجده أمامه في مقهى باريس بصحبة مرافقه الشاب «باكسه» الذي يشبه تمثالا حزينا في حديقة مهجورة.

حين يختفي تينيسي تخطر على شكري فكرة البحث عنه في بيت بولز. لكنه يتردد، فزيارة بولز دون موعد شيء يقلقه كثيرا. ففي الأسبوع الماضي زاره ووجده غارقا في سريره والحمى تأكل من جسده، وحين بدأ في التعافي شرع في كتابة قصة، وكفّ عن استقبال زواره. هذه هي عادته. فقد ورث من جد والده ذي الشاربين البيضاوين المتدليين والنظارات الطبية القابعة على أنفه، البقاء وحيدا في الحجرة والانهماك في القراءة. لكن بولز زاد على جده بحرفة الكتابة. هكذا كتب قصته «تابيانا»، القصة

التي تتمحور حول الحمى. فكيف يهجم شكري على خلوة بـولز ليسـأله عن تينيسي؟ ثم هل عاد شكري من جولته الموسيقية التي ينوي منها جمع اكبر عدد من القطع والألحان الموسيقية الشعبية؟

خـوف شـكري مـن عيـادة بـولز راجـع أيضـا إلـى أنـه يعـرف أن بـولز سيطلب منه أن يجلب له حزمة من الكتب وصلت باسمه إلى مركز البريد بطنجـة، سـيجدها عنـد بوغالـب. وفي أحسـن الحـالات سـيطلب منـه أن يجلب جرائد إنجليزيـة أو إسـبانية. وشـكري مفلـس علـى الـدوام، وبـولز بخيل، فكيف يتدبر مبلغا ماليـا لشـراء كـل ذلـك. فعلهـا بـولز، كمـا حكـى لشكري بحضور اليعقوبي، في لندن حين أُدخل المستشفى هناك على إثـر إصابته بوباء أقعده في فـراش المـرض طيلـة أسـبوعين. وطيلـة تلـك المـدة كان بولز يطلب من كل من يزوره أن يجلب له الكتب. لـن يجـد في طنجـة مـن يشـتري لـه الكتـب، باسـتثناء المقيمـين الأوروبيـين أو الأمـريكيين، فالطنجيون فقراء ومتسولون لا يشبعون من طلب المال، كمـا صـورهم في قصصه.

لا يدع بولز أصدقاءه الأمريكيين بسلام. لا بد أن يبعثـوا لـه بشـيء مـن أمريكا. والأشياء التي تأتيه يمكنه أن يحبها ويحتفظ بها، ويمكـن أن تكـون ثانوية وصغيرة الشـأن، ويـتخلص منهـا. فهـل كـل الأمريكـان هكـذا؟ هـل تينيسي ويليامز يشبه بولز في نزواته وشهيته المفرطة للأشياء المرسـلة مـن قارة بعيدة؟ وهو في لشبونة مثلا فإنه مجموعة قصصية لـ«جيمس بـوردي»

عنوانها «لون الظلام»، قرأها وتأثر بها. والمرسل هو «جيمس لافلين» من أمريكا. وقد التقى به في لقاء أخير قبل وفاته. هكذا تفعل الكتب المرسلة ببولز حين يحبها ويتأثر بها.

بهذه الطريقة ينظر شكري إلى الأمور؛ بولز منطقة خطرة، الصداقة معه تتطلب أن تكون أمريكيا، وإن كنت مغربيا يجب أن تكون غنيا، وإن كنت مغربيا فقيرا سينتهي بك الأمر مثل المرابط الذي قضى معه فترة وهو يطبخ له ويغسل أواني مطبخه ويدخن رفقته الكيف ويقص عليه حكايات خرافية يجعلها الكيف عميقة الغور.

لكن شكري يمكن أن يزوره لو كان في حاجة إلى شرب خمر جيدة. بل إن كل من يعرف شخصية شكري الصلبة والمستقلة والجسورة لن يصدق إذا ما قيل له إن شكري يخاف من زيارة بولز بلا موعد. إنه شخص يصدم الجدار ويخترقه وينظر إلى ما وراءه. وبولز يعرف ذلك جيدا، فمقدار معرفته برهافة وهشاشة العياشي والمرابط، هو مقدار معرفته بصلابة ورعونة شكري. لكن الأمر الذي أبقاه بعيدا من بيت بولز هو كونه لا يعرف هل عاد من جولته الموسيقية أم ليس بعد. تلك الجولة التي «سيحلب» فيها، حسب تعبيره، ما يجود به ضرع تلك المناطق من ألحان وإيقاعات، كما سبق أن «حلب» ضرع العياشي والمرابط.

- 12 -

إذا سألتم أي منتمٍ لدائرة الكُتّاب الأجانب والمغاربة: أي مكان يفضله محمد المرابط، وأي شخص هو الألطف بالنسبة إليه؟ فسيجيب دون إبطاء: المكان هو بيت بول بولز، والشخص هو جين بولز.

ابن الطاهي والحلواني، ذو الأطفال الأربعة والعشرين من زوجتين، الذي يحمل اسم محمد الحجام، والمعروف في الأوساط الأدبية بطنجة تحت اسم محمد المرابط، سيعلم بغياب بولز عن طنجة فيقرر زيارة جين. سيذهب وهو في منتهى الأناقة واللطف. وذلك أمر مُبرّر، فما تحبه جين في المرابط هو أناقته ولطفه.

في تلك الفترة بدأ المرابط يحب الحكايات، فبواسطة مساعدات وكل أشكال الدعم الفكري والأدبي الذي قدمه له بولز، أصبح يجيد صناعة بنية حكائية لا يضاهيه فيها حتى أكبر الكتاب العالميين. أما سلاحه في ذلك فموهبته، وذاكرته، وحياته عديدة الثنايا، وإتقانه للفرنسية والإنجليزية والإسبانية، دون تمكنه من الكتابة بها. أما إذا سألته هو عن سر إتقانه التخيل والحكاية، فسيجيبك وهو يتخذ هيأة من يسدي نصيحة: تدخين «الكيف» الممتاز. لكن ما يُقال عنه، خصوصا من أفواه أصدقائه المقربين، هو أنه يتمتع بذكاء خارق وبذاكرة تشبه الثلاجة، تحتفظ بداخلها بكل شيء طازجا. وهو طبعا كان لا يعرف مواهبه إلا بنسبة

ضئيلة. وفي المقابل كان يدرك أن ما جمعه ببولز هو حب فن الحكايات والقصص.

أثناء غيابه عن بيت بولز، حدثت أشياء كثيرة لم يعلم بها هو. ولذلك فهو يقوم بهذه الزيارة الخاطفة التي يتمنى أن تكون حصيلتها من الأخبار الجيدة في مستوى ما ينتظره. غير أنه يجهل لماذا هو مندفع بقوة أكبر منه نحو ذلك البيت مثل رسول يحمل أخبارا تنتظرها جين على الخصوص، أما بولز فلم يعد يهمُّه مجيئه أو عدم مجيئه بعد أن أفرغ كل ما في جعبته من حكايات وقصص، ما ملأ به خمسمائة شريط، قضى ليال بكاملها في ملئها.

وهو في طريقه شغل نفسه بطرح أسئلة كثيرة أرغم نفسه على الإجابة عنها، من قبيل من ظلم الآخر؟ هو أم بولز؟ هل تصديقه لكل ما قيل عن استغلال بولز له كان أمرا صائبا؟ أم أن كل من حشروا رأسه بكراهية بولز كانوا يحفرون هوة عميقة بينهما؟ ما دخله هو في الطريقة التي يعامل بها بولز زوجته جين؟ هل حقا قسوة بولز على جين هي ما دفعها إلى الإدمان وملازمة المصحات العقلية؟ بأي مقياس يمكن قياس معاملة زوج لزوجته وزوجة لزوجها؟

كان الغروب الشبيه بغروف الخريف، يشق طريقه إلى سماء طنجة. وكان قلب المرابط على وشك أن يطير من مكانه نحو تلك السماء الجهمة. نحو ذلك الغروب الذي يجثم على أسطح البيوت في مدينة تبدو

كأنها مجرد رسم بالأبيض والأسود على قماش رسام حزين وعابر. وهو في طريقه إلى بيت جين وبول بولز، الذي كان يسميه هو والعربي العياشي «الدار الكبيرة»، تذكر عراكه مع الحكايات التي ظلت مختبئة في ظلام نفسه، مثل الأرواح، فيتآمر عليها مع الليل ومخدر «الكيف» لاستخراجها، فتخرج بقوة كالسيل، من ثم فحكاية حكاية بالنسبة إليه هي شبيهة باستحضار أرواح غائبة.

كان المرابط يعيش فترة طفولة ممتدة: تأتيه الحكاية فيحكي، يأتيه الغناء فيغني، دون أن يشك على الإطلاق في أنه حكواتي أو شاعر. كان إنتاجه الحكائي ينتقل منه إلى بولز، الذي يترجمه، أي أنه قد يقصّره وقد يطوّله، وقد يعيد تأليفه أو يقرن حكاية بأخرى، أو يؤلف قُصيصة تصبح تتمة لها. وهكذا تخرج من الحكاية حكايات لا يستطيع إلا المرابط الادعاء بأنها له، من صميمه، من روحه وسرّ من أسراره.

جين في الطابق الثالث من بيت في طنجة، وبولز يجوب الجبال والقرى لجمع الأغاني والألحان، هل هذا جاد ونافع؟ الجواب يعرفه المرابط لكن من اللياقة والعقل ألا يجهر به أمام أحد، وخصوصا أمام جين العليلة. جين تعرف الجواب أيضا، لكنها تخفي أجوبتها وشروحها، حتى تستطيع العيش والموت في هدوء.

كان صيف تلك السنة، بشكل عام جيدا بالنسبة للمرابط. فمباشرة بعد عودته من نيويورك، وجد في علبة رسائله إشعارا بوجود رسائل باسمه في

مكتب البريد. وحين ذهب للبحث عنها بقلب خافق، وجد حزمة من الرسائل من كل العالم، لكن ما همه فيها ذلك الشيك الممهور بتوقيع مدير دار النشر الفرنسية التي نشرت سيرته الذاتية «الليمون». وهي قيمة مالية عن حقوقه لترجمة كتابه إلى اللغة الفرنسية. لو كان يعلم بها لتوجه مباشرة إلى باريس، وزار دار النشر وجلب معه بعض النسخ. كان الأمر سيكون مختلفا تماما في باريس بعد لندن ونيويورك والميسيسيبي. ما الاستنتاج من هذه التجربة؟ إنه استنتاج بسيط ومحزن: بعد هذه الهوية الجديدة التي طرأت على كيان المرابط، وبعد هذه الحياة المختلفة التي أصبح يعيشها، وبعد شهرة الكتاب هذه التي جاءته من حيث لا يدري، يلتفت المرابط ليجد صانع كل ذلك: بول بولز ولا يجده. بل إن الحزن يشتد عليه حين يفيق في الليل ويفكر مليا في الأمر، ويقتنع بأنه نسب إلى نفسه أشياء ليست له. تماما مثلما ينسب الإنسان لنفسه أطفالا ليسوا أطفاله. لكنه يعود ويفكر في الاتجاه المعاكس: إنه مبدع حكايات وقصص يعمل بسرعة كبيرة أدهشت بولز نفسه، بل ويجيد التخيل بسهولة. وهما موهبتان قدرتهما في البداية جين قبل بول بوقت طويل.

عندما وصل المرابط إلى بيت جين، واستقبلته ذلك الاستقبال الحسن، قرر إيضاح الأمر بالكامل: ما منعه من زيارتها أو كتابة الرسائل إليها هو خوفه من ردة فعل زوجها بول، الذي أصبح يكرهه كرها شديدا. كانت جين تسمع كلاما مألوفا لها. ففضلت في البداية وضع مقدمات

للقائهما وحديثهما وشجونهما. كانت نحيفة لا تقوى حتى على حمل كأس ماء بيديها معا. والتلعثم ظاهر في كلامها. عيناها لم تعودا بنفس اتساع وبريق مؤلفة رواية «سيدتان جادتان». لم يكن أمام المرابط سوى تجاوز كل ذلك، ووضع افتراض أن جين بولز، بكل بساطة، كتبت رواية جميلة عنوانها «سيدتان جادتان»، وعاشت حياة بالقرب من كاتب وفنان لا يرحم، اسمه بول بولز. وباتفاق الجميع أن جين كانت أقوى من بول، لأنها عاشت معه، رغم كل شيء، وستموت بالقرب منه، وليست هناك حاجة لقول شيء إضافي.

- يا إلهي، كم أنت جميلة يا جين.

قال المرابط بإنجليزية صافية كأنها خارجة توا من إحدى مسرحيات شكسبير.

- رغم كل شيء سأصدق ما قلته يا محمد. لكن كفّ عن قول ذلك، فأنا لن أصمد أمام كلماتك. انظر إلى يدي إنها ترتعش، هل للنساء الجميلات أيادٍ ترتعش؟ هل مازلت تدخن «الكيف»؟
- منذ قدومي من أمريكا قبل أسبوع بدأت أدخنه من جديد.

نهضت جين واتجهت إلى مكتب بول وجلبت غليون الكيف وحفنة صغيرة من المخدر داخل كيس جلدي صغير، ومدتهما للمرابط الذي أخذهما بتلهف. ثم سألها:

- هل ما زال بول يدخنه؟

- نعم بين الفينة والأخرى، حين يكون وحيدا في الليل. تصل إليَّ رائحته من المكتب.
- من أين يجلبه، من يشتريه ويهيئه له؟
- لا أعلم، ربما العربي العياشي، الذي يأتي مباشرة إلى هنا بعد جلساته في تلك المقاهي المهجورة المليئة بالحشاشين ومدمني «الكيف».
- إذن سأدخنه، فالعربي بارع ومحترف ويعرف كيف يصطاد «الكيف» الجيد، تماما كما هو بارع في صيد السمك.

أنهى المرابط جملته بضحكة طويلة، ثم دخن نفسا طويلا استنفر له رئتيه وحاسة شمه. سرح لحظة وهو يرفع رأسه نحو سطح البيت كأنه يشتم عطر اللحظات النادرة. ثم وجه نظرته وقوله إلى جين:

- أنا من جلب هذا السبسي لبول من الشاون.
- لا، أعتقد أنه اشتراه بنفسه من الشاون وكنت برفقته.

كانت جين تحب مدينة الشاون كثيرا، وكانت تقوم بين الفينة والأخرى بزيارتها لقضاء نهاية الأسبوع. كان بولز قد وضع نظاما صارما لهما. في الصباح الباكر يذهبان للتسوق، وحين عودتهما، وغالبا ما يكون معهما صديقهما التمسماني، يهيئان القهوة، فيأخذ بول معه جين إلى السرير ويعملان إلى منتصف اليوم. كان بول أيامها يعمل على إنهاء الفصول القليلة الأخيرة من إحدى رواياته. ساعده جمال الشاون على

العمل، فصمت هذه المدينة غير موجود في أي مدينة في العالم، لم ينس البتة أصوات ديك كانت تأتي من السهول البعيدة.

بقي المرابط يدخن «الكيف»، وجين تتذكر وتنظر إلى ما وراء وجهه، إلى روحه، فهناك يحدث كل شيء. امتلأ الصولة بالدخان، فنهضت ومشت بضع خطوات وفتحت النافذة، فهم المرابط أن عليه الانتهاء من التدخين. فوضع الـ«سبسي» وذلك الجيب الصغير المصنوع من الجلد الذي يسميه المغاربة «مطوي»، وسأل جين عن بولز:

- أين هو بول؟
- إنه في الجبال والصحاري يطارد أنغام «جهجوكة».
- هل امتلك سيارة خاصة؟
- نعم، جاغوار.

حين كان أصدقاء بول يلحّون عليه كان كلامهم ينزل عليه كالصاعقة. فهو لم يخطر بباله قط أن يصبح ذات يوم مالكا محتملا لسيارة، كما أنه لم يخطر بباله أن المال يمكن إنفاقه. فقد دأب على ادخاره بشكل آلي، بحيث كان ينفق أقل قدر ممكن. وبذلك فكل من يطالبه بشراء سيارة، وعلى رأسهم زوجته، كانت أصواتهم تضارع أصوات الشيطان. لكنه ذات يوم بدأ اهتمامه يتجه نحو السيارات، ولم تمر ثلاثة أسابيع حتى امتلك سيارة من نوع جاغوار. وما أن اشتراها، حتى طولب بالبحث عن سائق،

وكان يجيب بأن ذلك ضرب من المستحيل، فلن يقدر على تحمل أجر السائق.

«الكيف»، ذلك المسحوق الأخضر، الذي ظل المرابط يضعه في «السبسي» بتركيز، ثم يشعله بأعواد ثقاب، ليصعد دخانه من الأنبوب الخشبي الدقيق نحو دماغه مباشرة، جعله يسخر من بولز أمام زوجته:

- تخيلي معي أن يعود بول بشاحنة محملة بفرق موسيقى جهجوكة أو الطرب الأندلسي ليسجل موسيقاهم هنا في البيت، ففي تلك الجبال لا وجود لكهرباء.
- لا يهمني، ليفعل ما يشاء. قم إلى المطبخ وانظر إلى باب الثلاجة إنه مليء بالرسائل التي يتركها لي، ويتوجه إلى عواصم وأمكنة لا أعرفها. وحين أفتقده لن أستطيع البحث عنه، ماذا أقول لهم؟ فهو لم يكن يوما ما موجودا معي.

صمت المرابط أمام هذه الأقوال الحزينة القوية. وركز نظرته على هذه المرأة الشاحبة. نهض وقبّل جبينها:

- لا تقولي ذلك يا جين. بولز يحبك، فقط هو يعمل بشكل مستمر وفق برنامج صارم لا يرحم. ألا تذكرين تذمر والدته منه، فهو لا يزورها ولا يبعث لها حتى بالرسائل.

- أووه، يا محمد، لقد ذكرتني بالسيدة بولز، ستصل إلى طنجة غدا أو بعد غد، وبول غير موجود، وأنا لا أقدر على استقبالها وخدمتها.
- أقترح عليك الاتصال بمحمد شكري، هو من سيتكلف بها.
- شكري هذه الأيام مع تينيسي ويليامز، سمعت أنه يكتب عنه كتابا.

- 13 -

وصلت من باريس إلى طنجة السيدة بولز، عازفة البيانو الرائعة، والدة الابن الشاحب بول بولز، الطائر الذي لا يستقر على غصن، والذي لم يكن في انتظارها رغم إخبارها له بتاريخ وصولها. أن تصل والدتك، أو والدك، أو أحد أقربائك، أو أصدقائك إلى ميناء أو مطار ولا تكون في استقباله، ليست تلك من عادات الأمريكيين.

وصلت إلى بولز رسائل كثيرة أثناء فترة غيابه عن طنجة. الأولى من ألان غينسبورغ يخبره فيها أنه سيأتي إلى طنجة في نهاية الصيف رفقة ويليام بورّوز وغريغوري كورسو. ووصول هذه المجموعة إلى طنجة كان لا شك سيكلف بولز الكثير من المال، فهم دائما يبحثون عن الفنادق الفاخرة، والشقق الشاعرية التي تطل على المرفأ. هذا إضافة إلى ما تكلّفهم تجاربهم في الكتابة الآلية من حشيش وزجاجات خمر وكبسولات وضياع في جيوب طنجة. ينقلون تجاربهم حرفيا كما عاشوها في عواصم أخرى مثل باريس ونيويورك وهارفارد وغيرها، دون تمييز بين مدينة تبقى لامعة مثل نجم وأخرى تبقى واقفة مثل راع منعزل.

الشيء الذي لم يكن بولز مقتنعا به تمام الاقتناع وكان يخفي رأيه الحقيقي بخصوصه هو مسألة أن النثر يجب تقطيعه ثم إعادة ترتيبه بطريقة اعتباطية. كان براين جيسين هو المدافع المتحمس عن هذا الأسلوب. أما

الأسلوب الآخر الذي كان في الحقيقة يسلي بـولز فهـو ذاك الـذي اقترحـه بورّوز، وكان يقتضي منه تسجيل نفسه وهـو يقرأ باعتباط من مجلات وجرائد وكتب، ثم يقوم بإرجاع الشريط إلى الخلف والأمام، ويضع مواد جديد حيث يتوقف الشريط. وحين قام بـول بمصارحة بـورّوز بأنـه رغـم تقطيع الجمل فإن النثر يبقى يحمل دمغة نثر ويليام بـورّوز، اعتبر بـورّوز هذه الشكوك غير مقبولة، وردّ قائلا بأن التقطيع في الكتابة الإبداعية يصير «بين يدي معلـم» تقنية صالحة. أما بـول فاعتبر أنـه لا يحق لـه مواصلة ردوده وتفكيـره المتشكك في حماسات المجموعـة وهـداياها اللانهائيـة للأدب العالمي، فكان يتراجع ويبقى صامتا وشاردا وهو ينصت للهزات والأهوال التي كابدها وهو يعبر القارات المليئة بالوجوه التي تمثل حياة كاملة.

الرسالة الثانية التي وصلت إلى بولز كانت من مجلة تسمى «المجيء الثاني» تطلب هيئة تحريرها مادة للنشر. رسالة وضعتها جين فوق مكتبه، وحين جاء وقرأها فكر في استعمال إحدى الحكايات التي رواها لـه الحارس بـ«ميركالا»، العربي العياشي، التي حكى فيها ذكرياته عن السجن. وحين نشرت القصة حصل على شيك مكافأة من المجلة.

والرسالة الثالثة كانت تحملها امرأة من باريس من طرف ترومان كابوت، كان اسمها نادية باتسيفيتش، كانت تعتزم كتابة مقالة حول جنوب المغرب لمجلة اسمها «فوغ». وهي المرأة التي ستلتقيه فيما بعد وتتناول

معه وجبات عشاء فاخرة بفندق فيلا ميموزا. بل ورافقها إلى الصحراء، وهو في عز انشغاله بكتابة رواية «دعه يسقط».

من بين أغراض والدة بولز كانت هناك رواية رتشارد هيوغز «ريح عاتية في جمايكا»، جاءت بها لتجلس بجوار ولدها بول وتقرأ عليه بعض فصولها كما كانت تفعل معه في طفولته. إضافة إلى أن ذلك يمثل دواء ناجعا في فترات مرضه، فما أن تقرأ عليه من الرواية حتى تلوح فترة النقاهة في الأفق.

استعانت جين بامرأة طنجوية، للّا منّانة بائعة الحلويات بالسوق المركزي، للبحث عن خادمة تقوم بأشغال البيت وخدمة والدة بول. بعد يومين من البحث جاءت للّا منّانة وفي رفقتها بنتين من ريف طنجة، وعلى التو قبلتهما جين للعمل في بيتها الموحش، وهي على علم بردة فعل بول إزاء هذه المصاريف الإضافية.

حين التحقت الفتاتان كخادمتين في البيت، أطلعتهما جين على القوانين الداخلية، وتهم في غالبها المطبخ وترتيب الغرف، ومقاومة الغبار، وعدم إتلاف الأشياء أو نقلها من مكانها الذي توجد فيه. وأوصتهما خصوصا بالاهتمام بسيدة ستحل ضيفة لبعض الوقت، هي والدة صاحب البيت السيد بول بولز. أومأت الخادمتان برأسيهما، ثم دخلتا المطبخ لتنظيفه وتجهيز وجبة الغذاء.

دخلت جين إلى غرفتها وبدأت تقرأ من جديد رواية «رحيق في غربال» للهندية كمالا ماركاندايا. توقفت طويلا عند الجمل الافتتاحية للرواية: «أحيانا في الليل يتراءى لي أن زوجي معي من جديد. يأتي برفق عبر الضباب، ونمكث هادئين معا. ثم يحل الصباح، ويتحول اللون الرمادي المرتعش إلى ذهبي، وأشعر برجّة خفيفة في داخلي فيما يستيقظ النيام، ويرحل هو بهدوء». أعجبت جين كثيرا بهذا المدخل الشاعري. إذ كيف لكاتبة هندية، اللغة الإنجليزية هي لغة نشأتها الثقافية، أن تعبر بهذه الجمالية الفائقة كما لو أن الإنجليزية هي لغة نشأتها العاطفية؟ إذن كان مع بولز الحق حين قال إنها روائية هندية شابة عظيمة، كما كان على حق ذلك القارئ المجهول الذي بعث لها برسالة عبر فيها عن تقديره لهذه الرواية العالمية.

حين وصلت والدة بول ولم تجد أحدا في استقبالها في ميناء طنجة، استعملت خبرتها الفائقة كمسافرة من ميناء إلى ميناء. طلبت من سائق سيارة أجرة نقلها إلى عنوان بيت بول. انطلقت السيارة على مسار واضح فالعنوان معروف، والسائق اعتاد على نقل الأجانب إلى ذلك الحي الراقي من طنجة. حاول استدراجها إلى الحديث عن نيويورك، فمن لهجتها عرف أنها أمريكية. لكنها أجابته بأنها قادمة من باريس. تمنت السيدة بولز أن يصمت السائق ويكف عن طرح الأسئلة بتلك الإنجليزية الرديئة، ويتركها تهدئ من آلام جسدها المتعب من تلك الرحلة البحرية

الشاقة. وحين فتح السائق فمه استعدادا لطرح سؤال آخر أغمضت عينيها وتظاهرت بالنوم. عاد السائق إلى صمته وهو يبحث بعينيه على الطرقات المؤدية إلى وجهة السيدة النائمة جنبه. لم تفتح حدقتها إلا حين شعرت بسرعة السيارة تنخفض وبصوت السائق يبلغها بالوصول. ناولته مبلغا ماليا وشكرته بلطف. التفتت يمنة ويسرة، ثم رفعت بصرها نحو السماء فأحست بأن طنجة مدينة كئيبة. بوصلة المدن والعواصم شديدة اليقظة لديها. فمن عاداتها، حين تصل إلى مدينة ما، أن تضع حقيبتها وتغير ملابسها ثم تنزل في جولة لتتعرف على كل شارع وكل زقاق.

حين سمعت جين طَرقات على الباب نهضت من مكانها وهي متأكدة من أن من يقف خلف الباب هي السيدة بولز. سبقتها إحدى الخادمات التي فتحت الباب وانقضت على السيدة الأمريكية بعاصفة من القبل والعناق كأنها والدتها وقد عادت من السفر. أسرها ذلك كثيرا فانخرطت هي الأخرى في التقبيل والعناق. حين وصلت جين وجدتها على بعد خطوات من الباب وحقيبتها في يد الخادمة. فوجئت السيدة بولز بالهزال الذي أصبحت عليه جين. قبلتها ومررت يدها على شعرها ثم جلستا معا جنبا إلى جنب. بقيت تنتظر ظهور بول، وعندما لاحظت جين أنها تتطلع إلى الدرج، أخبرتها بأن بول في رحلة عمل وبحث. أومأت برأسها وسألت:

- أشم رائحة دخان غريبة، ما تكون؟

- إنها رائحة نوع من التبغ المغربي يدعى «الكيف».
- نعم أعرفه، إنه مخدر معروف. المغاربة يستهلكونه بكثرة. ومن يدخنه هنا في البيت؟
- صديق بول اسمه محمد المرابط، وقد كان في زيارة لنا.
- تعرفت عليه في أمريكا، وحدثني عنه بول كثيرا.

دعتها جين إلى الصعود إلى غرفة فوقية وتغيير ملابسها وأخذ قسط من الراحة. لكنها تريد معرفة أخبار بول:

- متى يعود من رحلته؟
- الليلة أو صباح الغد على أبعد تقدير.
- كيف هي طنجة؟ هل ما زالت على تلك الطبيعة الهجينة والقذرة، فهي مطعَّمة بالعديد من التفاصيل الإسبانية؟ هل ما زال المغاربة يعيشون جنبا إلى جنب مع الإسبان؟
- لم تتغير طنجة كثيرا، وعلى كل حال نحن غارقان في لجتها. أحببناها كثيرا وتعلَّمنا لغتها، وأصبح لنا أصدقاء مسلمون هنا نتردد على منازلهم.

كانت جين تحب رفقة المغاربة، على العكس من بولز الذي ينفر منهم بسرعة. وأكثر ما أحبت في المغاربة حس الفكاهة لديهم. وحياتهما التي تشبه حياة الرحالة، من مدينة إلى مدينة؛ من طنجة إلى فاس، ومن فاس

إلى مراكش ثم الرباط، هذه الحياة أكسبتهما ردود فعل مشتركة إزاء المدن.

بقيت جين تتحدث إلى والدة بولز وهي تراقب درجة صدمتها، فالمغرب يحدث صدمة لدى الزائر في الوهلة الأولى، خصوصا إذا كان أمريكيا. ثم نادت على إحدى الخادمتين بلهجة طنجاوية خالصة، فردت عليها الخادمة وهي معجبة بلهجة جين التي برعت حقا في اكتسابها. وبولز، عكس جين، كان يشعر براحة أكبر وهو يستعمل المفردات والنطق الفاسيين. وكانت جين تسخر من لسانه الفاسي. استمرت هذه اللعبة لسنوات عديدة، إلى أن يستسلم بول ويتعلم استعمال اللسان الطنجاوي.

كان التفوق اللغوي لجين في اللغة العربية نتيجة قضائها فصل خريف بكامله في باريس تتردد على مدرسة اللغات الشرقية، وحين وصلت إلى طنجة أول مرة كانت تتوفر على إدراك هام لتكوين الكلمة والنحو العربيين. وزادت على ذلك، دعما وتطويرا لذلك الإدراك الأولي، قررت مواصلة دراستها تحت إشراف أستاذ مغربي. وما هي إلا مدة قصيرة حتى أصبحت تتحدث العربية بطلاقة. ذلك ما لاحظته والدة بولز حين تتحدث جين إلى الخادمتين بعربية طليقة. وبعد كل تلك الأحاديث متعددة اللسان بين النساء الموجودات في بيت آل بولز، سألت السيدة بولز عن ولدها الغارق في الصحراء. فأجابتها جين بأنها تحس بأنه سيصل الليلة ويرتمي بين أحضانها. وعلى أطراف جوابها بقيت الأم تنتظر.

- 14 -

حين عاد بولز من أعماق رحلته الموسيقية في الليلة التي انتظرته فيها جين، وجد الجميع ينتظره بشوق، إلا أن والدته كانت في وضع أقرب إلى ما لا تبلّغه اللغة. ابتسمت وعانقته وهي تهمس في أذنه:

- «هل كانت تلهو بك الريح يا رفيق الطيور؟».

لم يسمع من في البيت صوت محرك الجاغوار المزمجر وهي تحط الرحال مثل سفينة منهكة لم يسعفها من الغرق سوى تلك الآمال الجديدة والأفراح شبه المنسية على اليابسة. وجد بولز في عبارة والدته «رفيق الطيور» طابعا شعريا ساميا، فسألها:

- مرحبا بعازفة البيانو والشاعرة الفائقة الأناقة. لكن أين والدي ألم يرافقك؟
- من المحتمل أن يصل غدا، كان يجب أن نأتي معا، لكنني متشوقة لرؤيتك والاطمئنان عليكما أنت وجين.
- سآخذكما غدا إلى مدينة الشاون.
- أنت من يسوق السيارة؟
- لا، مغربي يُدعى التمسماني.

وهو يحدث والدته قام بولز وشغل شريطا للموسيقى الأندلسية، وهي مقدمة للحديث معها وإقناعها بأن ثمة موسيقى رائعة توجد في هذا الجزء

من العالم. ما أن انطلق عـزف الفرقـة الموسـيقية، حتـى سـألته والدتـه، مـا اعتبره بول اختراقا لمتعته الموسيقية:

- من رافقك في رحلتك؟
- شخص كندي يُدعى كريستوفر وانكلين، ومغربي جبلي هو محمد العربي الجيلالي.
- كل المغاربة يسمون محمد.
- هذا اسمه محمد العربي.
- هل سجلت شيئا؟
- الموسـيقى موجـودة في كـل مكـان وزمـان، لكـن لمجموعـة مـن الأسباب تعذر تسجيلها.

وصل بول إلى عدة بلـدات وقـرى شـهيرة بـتراث موسـيقي مبهـر. كـان يقـدم وثائقـه للقائـد الأعلـى لكـل منطقـة. وكـان غالبـا مـا يُسـتقبل بـالود والتعاطف، ويجد تعاونا من طرفه فيما يخص توفير أمـاكن الإقامـة. لكـن العثـور على الإمكانيـات الكهربائيـة هـو العـائق الوحيـد. وآلـة الآمبيكس 110 لا تشتغل سوى بالكهرباء لأنهـا لا تتـوفر على بطاريـات. وفي بعـض الأحيان كانوا يعثرون على الكهرباء لكن تياره أو درجته غيـر مناسـبة. وفي الفرصة الوحيدة التي عثروا فيها على مولد كهربائي بمنطقـة «تامنـار»، لـم يسمح لهم الرجل الفرنسي الذي يملكـه باستعماله. ثـم عـاد بـول ورفاقه

إلى الصويرة وانتظروا ثلاثة أيام ليصل الموسيقيون إليهم على متن شاحنة.

وهو يحكي رحلته لوالدته وزوجته طرحت عليه أسئلة كثيرة من قبيل:

- إذن، المغاربة كانوا متعاونين معكم؟
- ليس كلهم. فهناك مناطق عديدة تم رفض الترخيص لها بالتسجيل، فغادرناها دون تردد. فهناك من اعتبرنا جزءا من مؤامرة تهدف إلى تقديم المغرب كبلد متخلف، بلد من المتوحشين. هؤلاء هم من استعمل عبارة «موسيقى المتوحشين».

هنا تدخلت والدته:

- هذا أمر صحيح، فالعديد من الموسيقى المغربية التي استمعت إليها في مرات سابقة، لم أجد فيها سوى أصوات مخجلة تصدر عن إنسان.
- نعم، وهذا ما يجتنب المغاربة المتحضرون وصوله إلى آذان الغرباء. لذلك منعنا من تسجيل تلك الأصوات هو واجب وطني. بل هناك مفكرون مغاربة كتبوا في الموضوع، منهم، كما أخبرني شكري وغويتيسيلو، مفكر اسمه عبد الله العروي. لكن في رأيي الاستثناء الوحيد هو الموسيقى الأندلسية التي ننصت إليها الآن. في المرة القادمة لن أعتمد على آلة «أمبيكس» فهناك تجهيزات أخرى يمكننا تدبرها أكثر.

لم تنخرط جين في الحوار، تركت أما وابنها يتحدّثان عن الموسيقى، ويخوضان في عالمها إلى ساعة متأخرة من الليل. نهضت دون أن ينتبها إليها، ولجت غرفتها وبقيت تغالب النوم الذي صعد بها إلى عوالم مختلفة، بعد أن تناولت قرصين بدونهما لن تتمكّن من ولوج ملكوته.

في الساعات الأولى من الصباح وصل من لشبونة شيخ في منتصف عقده السابع إلى مدينة طنجة. هذا الشيخ هو والد بول بولز، الرجل الذي وجد دائما في طنجة مدينة جذابة. كان يراها حيا واسعا للفقراء، لكنه متنوع وغني بما لا يمكن مشاهدته في مدن أخرى. أما بول فكان يستغرب لاستمتاع والده بطنجة. هذا في سنوات مضت، وماذا عن اليوم، بعد أن غدت طنجة مدينة أخرى مغايرة تماما، فهل ستبقى مكانا جذّابًا، وحيًّا واسعًا للفقراء فيه من المتعة ما لا يوجد في غيره؟

كان بول قد اتفق مع التمسماني على أن يعود في ذلك اليوم، بعد أن يزور زوجته وأبناءه، للاهتمام بوالديه. ولأنه رجل حريص على تقديم كل أنواع المساعدة لبول، فقد أتى في اليوم المتفق عليه، قبل ساعة من وصول والد بول إلى البيت. ولنجاح مهمة الاهتمام بالشيخين الأمريكيين، قال بول للتمسماني إن والده على الخصوص يحب الاستمتاع بكل التفاصيل الدقيقة للحياة المغربية التي عادة ما ينتقدها أو يتجاهلها الزوار الآخرون. فوالده رجل مختلف. فهو يحب الويسكي ولن يتردد في تدخين الكيف، ولا بأس أن يأخذهما إلى النادي الأمريكي الموجود بالمدينة. أنصت

التمسماني لبول جيدا، فهو لا يتلقى أوامر عادية، بل وصايا تخص شيخين أمريكيين مختلفين عن بقية الزوار. فوالدة بول فنانة من الطراز الرفيع، ووالده شيخ يتصرف مثل شاب بحكم طاقاته الداخلية الموجهة.

أحبّ التمسماني صديقه بول بولز حين كان يتحدث عن والديه ويوصيه بهما. كان لذلك أصداء دينية عميقة في نفسه، فالديانتان الإسلامية والمسيحية وضعتا الوالدين في عنق الأبناء. فما كان من التمسماني سوى التفاني في خدمتهما كأنهما والدان مسلمان. فقال لبول:

- الله أوصى المسلمين بالوالدين قائلا في القرآن الكريم: «وبالوالدين إحسانا».

فردد وراءه بول بعربية صافية:

- إذن أحسن بهما كأنهما والداك.

أثار انتباه والد بول غياب جين، فسأل عنها زوجته وبول. فصعد إلى غرفتها للاطمئنان عليها بعد إخباره بمرضها الذي يشتد عليها بين حين وآخر. لم يحب العجوز بولز يهوديا واحدا في حياته، لكنه أحب جين منذ اليوم الأول رغم أنها امرأة يهودية. كان يجتنب اللقاء بجيرتورود شتاين بسبب يهوديتها، بل يكره حتى سماع اسمها. لكنه وجد في جين امرأة مختلفة عن اليهود، وكان يقول إنها يهودية بالخطأ أو بالصدفة، وإن هذا الشقاء الذي يلاحقها لا يمكن أن يلاحق اليهود، لأن اليهود هم شقاء هذا الكون. وكانت تلك الكلمات تنزل مثل العزف على نفسية بول، فيزداد

حبه لجين، وتزداد محاولاته للنزول إلى أعماقها لمعرفة ما هوى داخلها. وكانت جين، بروعة نادرة، تنظر إلى وجهه وتقبله وتدعوه إلى النوم إلى جانبها. وحين يفعل تشرد في ملكوت آخر، وتبقى في عناقه وهي تنظر من النافذة إلى نجم صامت في السماء، ذلك هو قلبها وقد صعد إلى هناك.

- 15 -

فرح والدا بول حين علما أنهما ذاهبان إلى مدينة الشاون. كان ينطق الوالد اسم المدينة بطلاقة، نظرا لسلاستها الصوتية الشبيهة بالسلاسة الموجودة في اللغة الإنجليزية. جُهّزت لهما معا حقيبة واحدة، فهما مسافران محترفان، على عكس ابنهما بول الذي يحمل معه من الملابس في أسفاره ما يكفي لخمسة أشخاص.

قبل الانطلاق رفقة التمسماني على متن سيارة الجاغوار، أخذ الوالدان وعداً من بول بزيارة مدينة فاس في رحلتهما القادمة، فوالده يحب في فاس طابعها القروسطي المفقود. أما سبب عدم ذهاب بول إلى الشاون فهو مقنع، إذ يريد ترتيب وفرز ما جاء به من رحلته الموسيقية التي لم ينزع عنه غبار طرقها بعد. كما أنها ستكون فرصة للاختلاء بجين التي بدت له متعبة وعليلة أكثر من ذي قبل.

بعد أن فرغ البيت ممن فيه، هيأ بولز كأسا من القهوة وشغَّل شريطا فيه أغانٍ لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش. وهو يعتبرها موسيقى حقيقية أصبحت أكثر انتشارا في المغرب من الموسيقى الشعبية المصرية التي لوثت ذوق المغاربة طوال سنين. أحس بنوع من الارتياح وهو يستمع لمحمد عبد الوهاب. جاءت جين وجلست جنبه وذكرته بأن هذا هو الشريط الذي استمعوا إليه منذ سنوات بعيدة أثناء رحليتهما إلى

تافراوت رفقة كريستوفر وانكلين. أما بول فرد قائلا بأنه يتذكر هذه الأغاني ويتذكر أكثر موسيقى أحواش التي سجلها في تلك الرحلة العجيبة. ضحكت جين مغالبة تعبها:

- أنا أذكر تلك الفكرة الغريبة التي جاءتك حين أردت تسجيل أصوات حيوانات ابن آوى التي كان عواؤها يملأ أسفل مرتفعات الأطلس الصغير كل ليلة.
- نعم، لو تمكنت من تسجيلها لكان ذلك حدثا رائعا.

في تلك الليالي البعيدة، التي لم تحتفظ بتفاصيلها الذاكرة إلا بصعوبة، كان يأتي في حوالي الواحدة والنصف ليلا قطيع كبير من ابن آوى، يبلغ حوالي الثلاثين، أسفل السهل فيمرون بالقرب من الفندق الذي كانوا يقيمون فيه، فينخرطون في معركة ضارية مع قطيع من الكلاب المحلية. لكن بول فشل في تسجيل أصوات القطيع خلال تلك الزيارات الليلية المتوقعة، بسبب توقف المولّد الكهربائي دائما في الساعة العاشرة والنصف ليلا.

- تذكر يا بول حين أخبرنا بوجمعة باغتيال الرئيس كيندي، والجملة التي أرفقها بالخبر: «الأمريكيون يرغبون في مواصلة العيش، وفي الولايات المتحدة سيكون هناك فقط الموت». تذكر؟

نعم يذكر بول ذلك كأنه حدث بالأمس. ففي ذلك الشتاء من سنة 1963 شرع في كتابة رواية، كان ذلك أفضل طريقة لقضاء الوقت.

فانخرط في بلورة حكايات غزيرة من مشاهداته وقراءاته وحالاته الذهنية. ابتعد عن البشر، وعن ضوضائهم عملا بالقاعدة القائلة «عش في عزلة تعش سعيدا». كان يتجول في الريف المنبسط ويكتب ما يخطر على باله. طيلة ستة أشهر وهو يتجول على الطرقات الريفية ويسجل في كتاب ملاحظات وهو يمشي. بهذه الطريقة كتب «عاليا هناك فوق العالم».

بموازاة هذا التذكر الذي جعل جين امرأة شاحبة أكثر، كانت الجاغوار تمرُّ من القرى وتقطع الطرقات. حين مرّ التمسماني جنب حقول القنب الهندي لوّح له المزارعون، أوقف السيارة وترجَّل منها متجها نحو رجال يشتغلون بتلك الحقول، كانوا كرماء معه فأذنوا له بأخذ ما يشاء. لم يصدق التمسماني الأمر، كيف بدون مقابل؟ لذلك سألهم:

- صالح للتدخين، أليس كذلك؟
- لا، إنه لصناعة المعجون.

أخذ التمسماني كمية كبيرة، وبعد وصولهم إلى الشاون قدّم لوالدي بول اختراعه الفريد: وجبة ممتازة من مخدر المعجون. كان مذاقه رائعا وتأثيره قويًّا على ثلاثتهم. آه، كم بدأ كل عرق في جسدهما يزهر، بدآ يمشيان باستقامة ورشاقة. ترك كل واحد منهما جسده المتعب وراءه، بعيدا لتبدأ حياتهما الجديدة تورق. بدا، في الشاون، كل شيء ساكنا، ويمكن الإنصات إليه أو تسميته من جديد.

- هذا مكان مثالي للعزف وإبداع موسيقى جديدة.

قالت بعفوية السيدة بولز.

- هذا مكان لخلق مصير جديد، الحياة عمل لم يكتمل بعد.

ردّ العجوز بولز ونظرته على قمم الجبال المكسوة بهالة من الضباب الشبيه بالدخان. ثم نقلها إلى النوافذ الزرقاء التي تطلُّ عليهم مذكرة إياه بالأزمنة الأخرى. وفي الليل يصبح منصتا يتلذذ بنقنقة الضفادع، وأصوات البوم والجناديب والنباح المتقطع لكلاب بعيدة، هناك في كوخ في سفح الجبل. وفي الصباح الباكر ينهض مع الذاهبين إلى الصلاة، حين تكون المدينة في أقصى درجات الهدوء، يغني أغنيات أمريكية ويدعو الله أن يطيل عمره حتى تُستنفذ متعته بكل الفراديس.

يعود من جولته في الخارج ويلتحق بزوجته في مطعم الفندق. فقيل له إنها تعرضت للسقوط، إذ تعثرت في حفرة مجاورة للفندق وكسرت كاحلها. صعد إلى الغرفة ووجدها ممددة ورجلها مرفوعة إلى فوق داخل جبس أبيض ناصع، وإلى جانب سريرها عكازان، فألحت عليه وهي تبكي للعودة حالا إلى نيويورك.

لم ينطق بولز الأب بكلمة واحدة، ضمها إليه وداعب أصابع يدها، وحين فُكّت عقدة لسانه قال:

- كما تشائين حبيبتي.

حين كُسرت كاحل واحدة من أرق وأعذب عازفات البيانو، كانت واحدة من أكبر كتاب النثر في العالم تفقد قدرتها على السيطرة على

الكلمات. كما كان واحد من أكبر روائيي ومسرحيي القرن يبحث عن غلام في أزقة طنجة. أما بول بولز فقد تعلم عادة جديدة: إخفاء منزله عن كل الناس، من جميع القارات.

عادت والدة بولز إلى نيويورك، وطارت جين رفقة بول إلى لشبونة حين تناهى إلى علمها وجود أطباء جيدين هناك. ووفى تينيسي بوعده بمغادرة طنجة، تاركا وراءه شكري وحيدا ونحيفا كأنه أجهد نفسه طيلة آلاف السنين. بدت ملامح وجه شكري شبيهة بملامح الأشخاص الذين شربوا من كل أنواع الكحول. ولذلك علاقة لا يجب إهمالها بكل ما يتخذه من قرارات، وما يتفوَّه به من كلام، بل وبملابسه وحلاقة وجهه ذي البشرة الوسطية بين البياض والسمرة. بشرة من شرب ليلة البارحة، وسمع كلاما لا يرضيه. ويزيد من قسوة ملامح ذلك الوجه، أن حامله ليس متحدثا لبقا. ما يعني ألا أحد يأخذ برأيه مهما كان صائبا. حتى الصبية الذين يجوبون الشوارع والأزقة في ليل طنجة لا يرضخون بسرعة لهذا اليتيم المغربي. اليتيم الذي سُرّ كثيرا لفقد والده.

من يعرف شكري سيحسم عدم اكتراثه لأمر مغادرة تينيسي ويليامز طنجة. فهو جدّ مقتنع بأن طنجة قادرة على جذب آخرين على اللائحة الافتراضية. لكن هذه القناعة قد تنقلب إلى عكسها حين تمر أشهر دون وصول رسالة واحدة إلى بيت شكري. فيظن أن فكرة الهرب من طنجة وبسرعة هي الخلاص. إذ لم يعد للإقدام والشجاعة والانتظار أي نفع

بالنسبة لكاتب سئم من انتظار البواخر والقطارات والطائرات. لكنه، ومن جديد، حين ينام ما يكفي جسده وعقله، وحين يجد نقودا في جيبه، وكتبا في مكتبته، يعود لقناعته القديمة: كل الذين جاؤوا إلى طنجة وغادروها، ما هم سوى مجموعة أشخاص، لغتهم مختلفة، وسحناتهم مغايرة، سيعودون ذات يوم ليمارسوا ما مارسوه منذ سنين في هذه المدينة الطينية الساحرة، في نسيان تام أنهم يقبلون على حياة سبق أن عاشوها، وعلى كلمات سبق أن تفوهوا بها.

- 16 -

في تلك الليلة استعاد شكري كل ما سمعه من تينيسي ويليامز. وتوقف ذهنه مدة طويلة عند رغبة تينيسي في العثور على غلام يؤنسه مقابل مبالغ مالية مهمة، بدت لشكري قريبة من الراتب الشهري الذي يتقاضاه مدرس مستوى الابتدائي. لكن تينيسي حين لم يتلق أي جواب من شكري بخصوص هذا الموضوع، نزل بنفسه في رحلات صيد متكررة إلى شوارع وأزقة وحانات طنجة. لم يعد التمساح العجوز يطيق الصبر والانتظار. وتزداد لهفته كلما شرب كؤوس الويسكي على شرفات فنادق المدينة. فبدأ يخطط ويرسم، وما أن انتهى ذلك اليوم الذي وقع فيه فريسة لتلك اللهفة الجنسية المفضوحة، حتى كان في فراشه غلام طنجي جاهز لتلبية رغبات التمساح الأمريكي الأسمر.

عرف شكري بتلك الليلة وهو يقرأ الصحف العربية والإسبانية في صباح مشرق. كان قد نام جيدا بعد أن قرأ صفحات من رواية عربية موضوعة عند رأسه لم يمسسها طيلة أيام. فشعر أن جلد الرواية والحكاية قد اشتاق إلى لمسات يده وتأويلات عقله. لكن بعد أن خلت طنجة من زوارها الصاخبين، بدأ يجد وقتا للقراءة والكتابة. ها هو قلبه قد صعد مرتقى الخيالات، بعد أن كان يذهب به إلى الحافات التي ابتسمت له فبدا شكلها جذابا مثل إجاص ناضج. فكل شيء جذاب هو إجاص بالنسبة

إليه. حين تبتسم له الحافات يذهب إليها، كما كان يفعل وهو صبي وغد، في كل وقت، ليلا ونهارا، في الساعة وأخت الساعة. يذهب ليرجّها في الليل الدامس. وكان الليليون يكافئونه بهذه العبارة الإنذارية التي ألف سماعها وأحبها لأنها هي أسطورته الخاصة: «ها قد وصل شكري رفقة كاتب عظيم آخر، لا نعرف ماذا كتب، وماذا يقول». وما على شكري سوى أن يكون ماكرا مع الطرفين، مع الكاتب، يرضيه ويؤنسه، ومع السكارى يفعل مثلهم كما كان دائما يفعل، رغم أن «لا حكمة لهم» كما قال لتينيسي، ولجين وبول بولز. لكنه يتحول فجأة إلى قديس فيقنع جليسه بحبهم وقبولهم كما هم «لأنهم خليقة الله وبذلك فهم يشبهون أشياء كثيرة خلقها الخالق العظيم». لكن حين يميل رأسه حيث تميل الخمرة يشتمهم ويتوعدهم. وهم لا يردون بشيء، فكيف يردون أو يحتجون على ما يقوله قديسهم؟

بقي جالسا في سريره وهو ينظر إلى اللوحة المتضررة المعلقة على الحائط المقابل له. لوحة رائعة أهداها له بولز ذات يوم بعيد، قال له إنها هدية «توني»، وشكري لا يعرف من يكون توني هذا. لوحة جاءت مع بولز على متن عبارة من الجزر الخالدات، فتضررت بماء البحر المالح. لكنها بقيت تمثل إحدى أهم المنجزات الفنية في القرن العشرين، وإحدى أثمن الهدايا التي قدمها له بول بولز أيام كانت السماء فوق رأسيهما خالية من الغيوم.

توالت الأيام، وتغيرت أشياء في قلب بولز وشكرا، وبقيت اللوحة المتضررة في مكانها على الجدار الأبيض. مثل مرفأ ذكريات ثابت، تأتيه سفن وبواخر وتغادر. لذلك كلما رآها وهو ممدد فوق سريره خمّن أين يكون صاحب «السماء الواقية». لكنه اليوم حضر اسمه إلى جانب زوجته جين، فلا شك أنهما ينتقلان بين المصحات الأيبيرية لإزالة الضرر الذي أتلف عقل تلك المرأة الرائعة. تخيل جين ممددة على سرير في مستشفى بلشبونة، وبولز ذاهبا آيبا من وإلى المصارف لجلب المال الكافي لتغطية مصاريف العلاج. ثم يتغير حاله هذا، فيغادر إلى باريس أو نيويورك، متنقلا بين المسارح والشقق، بنفس الطريقة التي كان قبل أيام ينتقل بها بين المصحات في لشبونة أو مدريد. وجين المسكينة باقية في مكانها على سرير أبيض تبحث عن الكلمات التي تضيع منها. وغالبا ما تكون سذاجتها وراء إيمانها الكبير في عقلها المتلف، وثقتها الواضحة في جسدها المتضائل.

صبيحة اليوم الأول في لشبونة، تناولا الإفطار في سطح مقهى مجاور للفندق. صعدت جين الأدراج بصعوبة، ولولا مساعدة بول لها لما استطاعت الصعود إلى ذلك المكان الساحر. كانت تصعد وهي على ثقة بأن هذا السّند الذي بجانبها سيختفي بعد أول نداء عليه من باريس أو نيويورك. وربما سيختفي بعد دعوة قريبة إلى تناول عشاء في أحد المطاعم، ويعود متأخراً ليقول لها: «قبلت الدعوة على مضض».

نيويورك وباريس عاصمتان يشتري منهما بول الآلات الموسيقية دون توقف. ويعود سعيدا بها إلى طنجة طيلة سنوات قبل أن يشتري واحدة أخرى جديدة تنسيه سعادته بالأولى وهكذا. لكنها تذكر جيدا ذلك العيد الصغير الذي جمعهما معا في شقتهما بطنجة حين عادا من نيويورك ومعهما آلة أكورديون مستعملة اشتراها بول بمبلغ مائة وخمسة وعشرين دولارا. كانت مطعمة بأحجار الراين والياقوت والزمرد. وظل بول ممسكا بذلك الشيء العجيب إيطالي الصنع، ذي الصوت الرخيم. فظنت أنه سيطردها من السرير لتنام جنبه.

كل ما يدور في عقل شكري الآن هو حول هؤلاء الثلاثة: بول وجين بولز، وتينيسي ويليامز والثلج الذي يتساقط الآن ويراه من نافذته. أما اللوحة المتضررة من ملح البحر فتوجد في مركز الأفكار والذكريات. مركز الزلزال الذي يصيبه برجّات قوية. إن من يهدي لوحة مثل هذه لا بد أن يكون إنسانا كريما. فجأة نهض من سريره وذهب نحوها، ثمة شيء تحرك فيها، لكن ما هو هذا الشيء؟ كان بولز قد حكى له عن مغربي شديد السذاجة، وصفها بالجارفة، اسمه عبد القادر، كل ما يعرفه من الحضارة ومنجزات القرن العشرين هو فيلم واحد، وسيارة واحدة وقطار واحد شاهدهما مرة واحدة في حياته. كان عبد القادر، أثناء زيارته لأحد المتاحف رفقة بولز، قد أعلن أنه رأى إحدى اللوحات تتحرك. إنه الشخص نفسه الذي قال لبولز حين رأى جرترود شتاين إنها تشبه الرجال.

لذلك ظلت تكرهه، بل وغدا شغلها الشاغل بحسب بولز اضطهاده وتعقب خطاه وإحصاء أخطائه. وكان المسكين لا يملك إلا القول: «دعيني وشأني». تذكَّر شكري عبد القادر حين خُيّل لشكري أن اللوحة المتضررة تتحرك على الجدار.

لا غرو أن هناك أشياء جميلة في قلب هذا السكير النادر. شيء في عظامه أيضا، وفي جلده الذي لا يخلعه أبدا. وهذا الشيء يعرفه بول بولز، رغم انقطاع علاقتهما. حسنا فعل بول حين أهدى اللوحة التي تتحرك على الجدار الآن. ربما الحركة الوهمية للوحة نابعة من النافذة التي بدون ستارة فيظهر من ورائها الثلج وحركة الرياح. فظن شكري أنه يرى لوحة تتحرك. خصوصا أن هذه الشقة الصغيرة التي يقيم فيها، حيث المطبخ والحجرات في وحدة تامة، تميل إلى العتمة التي تولّد حالة ذهنية ترى كل شيء يتحرك.

تساقط الثلج بغزارة طيلة ذلك اليوم، ذلك ما سيذكره الطنجيون طيلة الأعوام القادمة. وقد بقي شكري على حاله حتى الفجر، بين السرير والمطبخ والحمام، لأن الثلج لم يكف عن التساقط إلا مع بروز شعاع ضوء الفجر الأول.

- 17 -

كان شكري يعتبر حياته من أجمل الحيوات. فكل حياة مليئة بالزخم والانفعال والجسارة والحماس والكتابة هي حياة جميلة. لكنه بقي خائفا على هذا الجسد الهش، الذي رغم الشعر والموسيقى والكتب بقي هشّا. وذلك أمر محزن بالفعل. لكن لماذا الانشغال بهذا الأمر، فالحكاية لم تنته بعد. وكل شيء مازال مستمرا، ويمكن أن يبقى على نفس حماسه وانفعاله وجسارته. رغم أن أشياء كثيرة، أكثر جمالا، تأخرت عن مجيئها. الماضي يمكنه أن يمنع أشياء جميلة من الوصول. يمنعها حتى من الإطلالة برأسها.

بمحض الصدفة قفز إلى ذهن شكري موعد ضربه مع رسامين شابين قدما من الجانب الغربي لأمريكا. يعرفان بول بولز وجين بولز، لكنهما يفضلان اللقاء بجين. نسي الموعد الذي اتفقوا عليه. لقد فات الأوان، فعقارب الساعة تجاوزت الموعد بأربعة وعشرين ساعة. كانت الفتاة تضع على وجهها مساحيق غريبة، لم يسبق لشكري أن رأى امرأة أمريكية تضع خليطا من الأزرق والأصفر والبني على وجهها. كان مظهرها غريبا، زاد من غرابته جلد الثعبان الذي كان يحيط بخصرها، وفروة ثعلب صغير تضعها على كتفها. أخبرت شكري أن جين بولز وضعت تحت تصرفهما منزل طنجة. وحين سألها شكري:

- هل بول يوافق على الأمر؟

نظر الشابان إلى بعضهما بعضـًا، فبادرت الفتاة بالردّ:

- لا أظن أنه سيعارض، لأن البيت كان تحت تصرفهما أيضا منذ سبع سنوات.

سبع سنوات ازداد فيها بول حياة، وازدادت جين موتا. لكن كرمها لم يمت، وحبل عطائها ازداد طولا.

كيف نسي شكري الموعد؟ نهض من مكانه بعد أن وضع خطة للتجوال في الأماكن التي يمكن أن يوجد فيها الشابان. لكن هدفه السري هو المشي لتحريك الدم المتخثر في جسمه. وذلك يبدأ بكأس قهوة وقراءة الجرائد، وكتابة جزء من حوار مسرحية كان قد بدأ كتابتها، ونهاية النهايات هي شرب كأس نبيذ، واندساسه في غابة الليل. احتار في أمر الجمع بين كل تلك الأشياء في هذا البرنامج الحافل. سمع في داخله صوتـًا صاخبـًا يقول في ما يشبه الولولة: «يا إلهي، ماذا ستفعل يا محمد، الخارج خطر عليك، ثلج وسكر وأنت لا تملك مليما واحدا في جيبك». تحدّى الصوت وخرج دون أن يحلق ذقنه ويسوي الشعيرات النافرة من مقدمة رأسه. انفصل عن سريره ومطبخه وأغطيته التي أدفأته في الليلة الباردة الماضية. ترك المنفضة مليئة بأنصاف سجائر مطفأة، وقنينة نبيذ نصف ممتلئة، وفنجان قهوة لم يتجرع منه إلا رشفات صغيرة. هكذا قرر فجأة التخلي عن شقته. وهو ينزل الأدراج رسم في ذهنه خارطة تحركاته،

وركز أكثر على الأمكنة التي يمكن أن يوجد بها الشابان الأمريكيان. زادت سرعة خطواته تلقائيا حين تذكر أن الفتاة قالت له بأنهما قدما طنجة ليعقدا قرانهما على المتوسط. زواج على المتوسط في منزل بول وجين بولز. وجين هي التي سلمت لهما مفتاح البيت دون علم من بول. كيف ذلك؟ أين التقيا جين؟ في مدريد؟ نيويورك؟ باريس أم لشبونة؟ في مصحات؟ مكتبات؟ مسارح أم مطاعم؟ جين يا حبيبة قلب محمد أين أنت؟

لمح شكري الشابين الأمريكيين في مطعم رامبراند. تقدم نحوهما وحقيبته الجلدية الصغيرة تتأرجح وتصدم بطنه. نهضت الفتاة مرحبة به. أما صديقها فبقي جالسا ومكشرا، وآثار الشرب بادية عليه. أخذ شكري مكانه بينهما. جاء الخادم ووضع صحن سلاطة في وسط المائدة. قرّبت الشابة، واسمها غالا، من أب أمريكي وأم إسبانية، الصحن أمام شكري. فلمعت أوراق الخس لمعانا غريبا. فاحت رائحة الخل التي أنعشت صاحب «الخبز الحافي».

بدا الشاب في سنه الحقيقي، لن يتجاوز الثانية والعشرين. أما غالا فهي من النساء اللواتي يحتار المرء في تحدد سنهن. لكنها أصغر امرأة أمريكية التقى بها شكري إلى حد اليوم. بعد أن دفعت صحن السلاطة نحو شكري، حملت علبة صغيرة مليئة بالسكر ووضعتها أمام حبيبها ستانتون. ولما رأت علامات الاستغراب على وجهه قبلته وقالت:

- أعطيك السكر لأنك حلو المعشر يا حبيبي ستانتون.

رفع ستانتون صوته بالغناء، ورددت غالا معه الأغنية. قالت غالا لشكري:

- عنوانها «أغنية للأمريكيين».

سألها شكري:

- وماذا تقول كلماتها؟
- أيها الأمريكيون، أنتم الأجمل والأعظم، لكن لماذا تعطون الحلوى للصغار وتقتلون الكبار؟

عن سبب حزنه قال ستانتون إنه يحزن كلما رأى الثلج. فالعواصف الثلجية ذهبت بأرواح ناس كثيرين في سويسرا التي قضى فيها خمس سنوات رفقة والدته، قبل عودتهما إلى أمريكا. قال شكري إن الثلج يذكره أيضا بسالفادور دالي وزوجته غالا دالي. فسالفادور حين يرى الثلج، أو كل شيء أبيض، يتذكر الموت، والعواصف الثلجية الرهيبة، والكلاب التي تهجم على الناس وتفترسهم وسط تلك العواصف.

لم تبادلهما غالا الحديث. تركت حوارهما ينزل من أعلى إلى أسفل، وبقيت ممسكة بكأس النبيذ، ثم حملته وأفرغته في أحشائها دفعة واحدة. ودّعهما شكري، شكر غالا على السلطة، ومازح ستانتون قائلا بأن عليه أن يفك عبوسه. ثم اختفى من أمامهما وفي نيته التيه وسط الثلج وغابة الليل مثل طائر لا عشّ له.

– 18 –

لماذا لم يكمل شكري السهرة رفقة غالا وستانتون؟ ذلك أمر محير فعلا. مع أن غالا أبدت استقبالا حسنا له، رغم أن خطيبها ظل صامتا، ذلك النوع من الصمت الذي يحدثه السكر الطافح. ذلك أمر يتفهمه جيدا شكري السكير ذو الخبرة الطويلة، والمحلل النفسي الفطري.

لا يفكر المرء كثيرا في حيرة شكري الناتجة عن غياب الأهداف والوجهات، فهو مثل كائن خرافي يعدو منذ قرون دون أن يصل إلى هدفه. ينتقل من مكان إلى مكان، مثلما ينتقل قارئ كتاب من صفحة إلى صفحة. الأمر يسير ولا أوجاع فيه. ذلك أمر يُشعره بالاعتزاز. لكن ذكاءه كامن تحديدا في أنه عندما ينتهي لقاؤه بشخص ما يكون قد ضرب له موعدا في يوم غد. يبقى ممسكا بحبله حتى لا يفلت منه. لا يظن القارئ الكريم أن شكري ترك غالا وخطيبها الثمل دون موعد. ففي يوم غد سيلتقي بهما في نفس الفندق، وسيسطر رفقتهما برنامجا جيدا للسهر والتسكع.

كان قلب غالا أكثر القلوب الباكية عن ذهاب شكري وتركها وحيدة رفقة خطيبها الثمل. هي التي سمعت الشيء الكثير عن شكري، سلطان طنجة، من فم تينيسي وليامز وجين بولز وويليام بورّوز.

أما شكري فقد وقف وسط زقاق مغطاة أرضه بالثلج، ثم خطا خطوات قليلة ليجد نفسه خارج الزقاق، قريبا من رصيفه الأبيض بياضا

ناصعا. لقد ترك الناس الأزقة والشوارع للصوص والشواذ وعادوا إلى بيوتهم الدافئة. تأمل شكري آخر الزقاق المظلم، وشعر برجفة وحشة وخوف. ماذا يفعل هنا، مع أنه كان بإمكانه البقاء في بيته يتأمل اللوحة المتضررة التي أهداها له بول بولز، أو البقاء رفقة غالا وستانتون في مطعم رامبارند، فالحديث معهما، وخصوصا مع غالا، بدأ يتفرع مثل ممرات غابة كثيفة، والغناء بدأت تعلو كلمات قصائده الجميلة.

لعلكم فهمتم الوضع الذهني الذي يوجد فيه شكري. وأغلبكم ظن أنه سيعود للسهر مع الشابين الأمريكيين. لا، لا، فشكري ليس من النوع الذي يعود لمكان غادره. سيواصل طريقه وسط الزقاق المظلم، تحت ندف الثلج التي دفعته إلى المشي بخطوات سريعة. كان يمشي ويتعثر بحفرة أو رصيف مدمر، فالعربات التي تُجري الدواب تلج هذه الأزقة بكثرة خلال النهار.

لا يمكنه العودة إلى البيت بعد أن يكون قد اختار السهر. الليل والثلج يساعدانه على تأمل الطبيعة الرهيبة للمدينة. في تلك الأيام كانت طنجة قد بدأت تعرف موضة الملصقات الإعلانية. حتى الأكشاك الصغيرة، التي عادة ما تكون في زوايا الأزقة أو نهايات الشوارع، وجد أصاحبها من الضروري تغطية واجهاتها بالملصقات. وحين تأتي عاصفة مطرية أو ثلجية، تُمزّق تلك الأوراق الكبيرة التي يبلغ حجمها طولا معقولا يمكّن

الناظر من بعيد من تهجي حروفها والتمعن في قسمات وجوه المشاهير التي تعرض لهم مسرحية أو فيلما أو سهرة موسيقية أو كتابا.

لم يقف شكري مطولا أمام إعلان يخبر عن عرض مسرحية «رهبة العادلين». فالمسرحية التي شاهدها قبل أسبوع فاترة، والممثلون مبتدئون، والمخرج معجب بنفسه إعجابا مرضيا. القوة الوحيدة في المسرحية هي أنها تُفحم مشاهديها بمشاعر الحزن. هذا ما تملكه في الحقيقة. فلا جديد في أمر أن الإنسان يشعر بالحزن حين يتركه الآخرون.

كان في وسع شكري أن يتلقى المسرحية بطريقة مختلفة. قد تكون إيجابية، أو في منتصف الطريق بين السلب والإيجاب، لولا تأثير موقف ويليام بوروز عليه. كان بوروز من بين الأمريكيين الذين شاهدوا المسرحية. وكان، وهو يشاهدها، يتأفّفُ ويُصدر أصواتًا غريبة أزعجت الجالسين جنبه ووراءه وأمامه، مما اضطرهم تغيير مقاعدهم. وكان ينتظر حتى يرين الصمت في المسرح ليطلق ضحكة ساخرة عالية يسمعها كل الناس. وفي نهاية العرض قال لشكري إن هذه المسرحيات تعرض هنا في طنجة بعد فشلها في قاعات المسرح الأوروبية، وإن المسؤول عن جلب هذه العروض غبي وتافه وينبغي رشقه بالحجارة.

كم كان شيّقا فعلا مشاهدة بوروز وهو يشتم ويقدم نظريته في الفن المسرحي. والغريب أنه كان يتحدث عن الحبكة، التي هي في العمق قوة تنظيمية يجب أن تجمع بين أجزاء العمل الفني. هذا الفوضوي الرهيب

يتحدث عن الحبكة. لـم يشـك شـكري لحظـة أن بـوروز تنـاول كميـة مـن المعجون، فهو لا يرفضه حين يجد طريقه إليه، قبل المجيء لمشاهدة العرض. وهو منتوج مغربي بامتياز يجعل مستعمله يرى عجائب وغرائب.

كانـت الريـاح تهـب بقـوة في طنجـة تلـك الليلـة، ممـا جعـل شـوارعها فارغة، ونوافذها مغلقة، وناسها مختبئون من هذا النذير الرهيب. والشيء الـذي أضـحك شـكري هـو معطـف بـورّوز الأسـود الطويـل المبتـل كليـا بالمطر، وقبعته الأمريكية السوداء التي أعطته مظهر المجرم المأجور، كما تقدمه السينما الأمريكية. وكانت شتائمه الهذيانيـة تثير السـخرية. يمكـن، مرة أخرى، تشبيهه بتاجر مخدرات غاضب بعد صفقة خاسرة. لكنه رغم ذلك شخص مرغوب فيه جدا، حتى من قبل الفرنسيين الذين يكرهون أي شخص يبدو بالمظهر الذي بدا على بوروز. لكن ما أثار شـكري فعـلا هـو ملاحظـات بـوروز الدقيقـة، وهـي ملاحظـات لا يمكـن أن يبـديها متنـاول أفيون. لقد كانـت فعـلا الوطـاويط تعشـش في سـقف المسـرح. لقـد سـمع شـكري، كمـا جميـع الموجـودين في القاعـة بـدون شـك، تلـك الأصـوات الغريبـة في الأعلـى، وتلـك الحركـات السـريعة التـي يُسـمع ضـجيجها وتختفي لتُسمع مرة أخرى. لكن لا أحـد ظـن أنهـا لوطـاويط مقيمـة هنـاك بشكل دائم. وأن تلـك الأصـوات والحركـات جـزء مـن حياتهـا اليوميـة في سقف أعرق بناية مسرحية في طنجة.

أصبحت السماء في طنجة معتمة طيلة اليوم. الكل مستاؤون من هذا الطقس الغريب. فطنجة مدينة الحركة والعشاءات الهادئة. ولياليهما هي ليالي رزم الدولارات التي ينفقها الأمريكيون. فقد كانوا ينفقون كثيرا على المسارح والموسيقى والأكل والشراب في الفنادق ودور الإقامة. لولا الأمريكيون لمات الشواذ جوعا.

في تلك الأيام كانت في حوزة شكري عشرون قصة قصيرة. لم يراجعها بعد، لكنه مقتنع بأنها شبه مكتملة. لكن في نيته العودة إليها حين يتغير برنامج عيشه اليومي. والتغير في هذا البرنامج بدأ فعلا منذ أن سافر تينيسي وليامز دون تحديد وجهته، وبحث جين وبول عن مصحة أوروبية تعيد إليها عافيتها ولو مؤقتا. لكن شكري شبه متأكد بأن أحد الأمريكيين قدِم إلى طنجة وأقام في أحد فنادقها أو دورها، وأنه سيلتقي به في حانة من حانات الليل.

«أين وجهتك الآن يا محمد؟ جسدي يعرف وجهته».

وجد شكري خطاه تقوده نحو رامبراند. الفندق الذي تقيم فيه الحسناء غالا. الشابة ذات الأظافر الطويلة المطلية بالأحمر، الكاشفة عن أسفل ظهرها المليء بالوشم. ما أن وقف في المدخل حتى لوحت إليه بيدها وهي جالسة وحيدة بعد أن صعد ستانتون إلى الغرفة للنوم، حسب ما أخبرته. نزع شكري جاكيته وعلَّقه على مسند المقعد الخلفي. أشعل سيجارة وصب لنفسه كأسا من زجاجة الخمر الأحمر الموجود أمام

غالا. انتبه شكري إلى الملامح العربية لوجهها. أبدى لها بملاحظته، فردت بسرعة:

- أنتم العرب حين ترون إسبانيا أسمر تقولون إن ملامحه عربية. صحيح الدم عربي، لكن من الأصوب القول إن ملامحي أندلسية. علما أن الشقرة أندلسية أيضا.

لم يجد شكري بدّا من التوضيح:

- اسمعي يا غالا، أيتها الأمريكية الجميلة، موضوع الأندلس هذا لا يهمني، الأمر انتهى منذ قرون، ولست مستعدا للعودة ومسح الغبار عنه. لقد عدت إليك لأشرب معك كأسا هادئا وشاعريا، هل بالإمكان؟

- طبعا، نخبك أيها الصعلوك الريفي.

- 19 -

من يرى شكري وغالا يشعر بالرغبة في الاقتراب منهما. كان شكري يركز نظره طوال السهرة على أصابع يدها اليسرى. لقد تركت أظافرها تنمو، وطلتها بصباغة حمراء مثيرة. وحين يشبع نظره من تلك الأصابع الجميلة، ينقله إلى العلبة الصغيرة المليئة بالسكر التي وضعتها غالا أمام ستانتون قائلة: «أنت حلو المعشر». بعد مرور حوالي ساعة، جاء الذي لم يكن منتظرا: ويليام بوروز. كان تلك الأيام ينتقل دون توقف بين أحياء وشوارع وحانات طنجة، كأنه يريد حفظها عن ظهر قلب. ولم تكن ساعات النهار القصيرة سوى انتظار لحلول الليل وبداية جولاته مشيا، متنقلا من مكان إلى آخر، ومظهر أطراف معطفه الأسود التي ترفعها الريح إلى أعلى تعطي انطباعَ أنه يركض بسرعة فائقة.

لكن شيئا غريبا، غير محدد، بدا على وجه بوروز. ما هو؟ ذلك ما يسعى شكري لمعرفته من خلال قراءته لحركاته وأقواله، رغم عدم قدرة شكري على فهم كل ما يقوله. أما الحركات، وكثرة الالتفات، واليد التي توضع على الخد... فهي دليل حيرة وقلق. وما هكذا يُعرف بوروز الجسور.

جلس بوروز بعد أن بقي واقفا يبحث بعينيه في أرجاء المكان عن شيء مجهول. فهم شكري من كلامه مع غالا أنه التقى بها أول أمس رفقة

ستانتون في أحد مطاعم الشاطئ. تناول قطعة مربعة من الجبن وبقي يمضغها بمثابرة لمدة طالت أكثر من اللازم. خمّن شكري أن هذا المضغ المتكرر للطعام هو نصيحة أسداها طبيب أمريكي لهذا الكاتب الذي يقضي يومه في إتلاف معدته. سأله شكري:

- أنت تمضغ الطعام بجدّ يا ويليام.
- حسب الأطباء، المضغ أربعون مرة هو ما يُكوّن مُضغة سهلة الهضم.

صمت شكري بعد أن صدق تخمينه. ثم عاد ليسأله:

- ما رأي هؤلاء الأطباء في الخمر والأفيون؟

أجابه بوروز بعد تناول نظرة خاطفة مع غالا:

- الخمر والأفيون جيدان إن تمّ تناولهما في غياب أمثالك.

نهض شكري غاضبا دون تعليق، وأسنانه تصطك من الإهانة. اتجه نحو باب الفندق، فتحه بقوة وغادر تاركا وراءه على المائدة علبة سجائره وكأسا نصف ممتلئة من النبيذ الأحمر.

خاطبت غالا بوروز:

- كنت قاسيا مع محمد.
- إنه صديقي رغم كل شيء، سنلتقي مجددا ونتحدث كأن شيئا لم يحدث، اطمئني.

استغربت غالا لكلمة «صديقي» التي استعملت في غير سياقها. أهكذا يعامل صديقٌ صديقه؟ قامت وتوجهت مباشرة نحو الدرج، قاصدة غرفتها. تركت ويليام وحيدا على المائدة يدخن ويلتفت في كل الاتجاهات. وجدت غالا ستانتون مستلقيا على السرير وهو يقرأ رواية أمريكية، قد تكون «السماء الواقية». ليست متأكدة لأنها لم تنظر إلى الغلاف الذي كانت تغطيه كاملا أصابع القارئ ستانتون. لكن ما يحملها على ظن انه يقرأ «السماء الواقية» هو أن ستانتون اقتناها من مطار نيويورك. سألته متى ينتقلان للإقامة في بيت جين بولز، لكنه لم يجب. بقي مستغرقا في قراءة الرواية التي تفصح صفحاتها الكثيرة أنها ذات سرد شره.

حكت له ما جرى بين شكري وبوروز. فأفهمها أمرا كان غائبا عنه، وهو أن العلاقة حين ساءت بين شكري وبين بول بولز، ستسوء مع كل الكُتاب الأمريكيين. لا شك أن بولز حكى لويليام شيئا عن شكري ليتصرف معه بتلك الطريقة السيئة. لقد حرضه دون شك.

عبر شكري الشوارع وهو يفكر في إهانة بوروز له. كادت تصدمه سيارة لولا أنه قفز إلى الرصيف. لن يرد اسم بوروز على لسان شكري منذ اليوم. بقي يذرع الشوارع دون حذر. بسبب هذه الإهانات يطرق المرء باب الإثم. في المرة القادمة سيحرض عليه الشواذ في كل مكان، في السوق

الداخلي، في الحانات والشواطئ. سيرى ما معنى كلمة كرامة حين تقترن باسم محمد شكري.

في مواقف كهذه، أي بعد أن تستنتج النفس الآثار المؤلمة للإهانة، يشعر المرء بالاسترخاء والخمول. وتزداد الآلام حين يتذكر العقل والجسد معا ما تعرضا له في طفولتهما. في زمنهما الهش القديم. زمن الأمواج التي كانت تضرب حصى الشاطئ دون رحمة. زمنَ كانت أم شكري تحكي عن الزمن القادم الذي سيُفصَل فيه أهل الجنة عن أهل النار. وكانت تدعوه إلى التمتع بالصحة العقلية والجسدية للتفريق بين الزمنين، والدخول إلى زمرة الزمن الأول. كان التفريق بين الزمنين سهلا وقتذاك، لكنه اليوم أصعب من أي شيء. صعب عليه تذكر كلماتها وحركاتها وهي تستعرض فطرتها الإيمانية، بقيادة حدس عبقري خارق، بسيط، لكنه قوي ومتماسك.

انتبه رجل «الخبز الحافي» إلى أنه يحلم حين مرت بجانبه سيارة صغيرة يُسمع منها ضجيج فتية صاخبين. لأول مرة يستظهر على نفسه مقاطع من رواية سكب فيها عنفا نادرا تجاه نفسه ومحيطه، بما في ذلك والده، ذلك الأصل الغامض والمتعفن لكل حكاياته. لقد كان كتابه ذاك لعدوه الهلامي، العنيف، الشرس. فعينه لم تقع على قذارة مثل اليوم، في هذه الليلة المتاهية، التي دفعته فيها قوة ما إلى مغادرة سريره، والبدء، في الخارج، في رسم لوحة جديدة لوجوده الآني. ولما تردد في داخله هذا

الصوت: «أي عديم وجدان يستطيع أن يهينك هكذا؟!»، شعر بالقيء. ولج زقاقا قريبا وبقي ينتظر حتى يندفع كل شيء في معدته نحو الأرض المليئة بالحفر والطين. ثم استأنف نفس الصوت قوله: «ليعد الملاك ويأخذ الجزء الأعظم من قوة الشيطان».

(2)

في الصيف والخريف فقط

القسم الأول

«ليس الخسران فنًّا صعب الإتقان» .

إليزابيث بيشوب

نعود إلى زمن لم يكن الناس فيه ينزعجون من تأخر مواعيد القطارات والسفن. بل لا يستغربون إن رأوا رجلا يرتدي معطفاً مطرياً في الأسابيع الأولى من فصل الصيف، أو نساءً ينتعلن صنادل مفتوحة وهم يسيرون تحت المطر. كان الناس في ذلك الزمن يفكرون في أشياء قليلة مرتبطة بروزنامة الفصول. كانت العواصف الثلجية تنهال، مثل زمننا هذا، على البلدات والمدن في أي وقت شاءت دون احترام لقانون تعاقب الفصول أو لخصائص فصل الشتاء. في ذلك الزمن، مثل اليوم كأن شيئاً لم يتغير، كان زجاج نوافذ القطارات والسفن متسخاً، ما يجعلك تتساءل عن دور عمال التنظيف الذين يملؤون الممرات جيئة وذهاباً. يتسخ الزجاج بماء المطر الذي يهطل غزيراً، أو بالثلج السيبيري الذي يصطدم بالزجاج مثل كرات من الوحل. كل شخص يعتقد أن قريبه أو جاره في القرية قد مات من البرد، ولن يتأكد من نجاته إلا حين يظهر خارجاً من بيته بعد توقف العواصف وإطلالة ضوء شمس خائف، بعد أسابيع متتالية من الاختباء داخل بيوت فيها قليل من خشب التدفئة.

لقد تذكرت تلك السنوات حين استمعت للنشرات التحذيرية بعدم ذهاب الأطفال إلى المدارس والتُّجار والمزارعين إلى الأسواق، فالطّرق مغلقة والأشجار تسقط بفعل قوة الرياح فتسدّ الطرقات والمسالك. بقي فقط أن يعلن التلفزيون تجمُّد ميّاه البحار والمحيطات وامتناع السفن عن الإبحار، وتعذّر انطلاق القطارات من محطاتها. في مثل هذه الأوضاع

يعود الناس إلى مطابخهم من أجل تهيئ أكلات تنعش الجسد، حساء أو أعشاباً مطبوخة وممزوجة جيّداً بالخضر أو القمح أو الأرزّ أو الخبز اليابس. تلك المطابخ القروية تنتج أفضل الأطعمة والأحسية التي تقاوم البرد وتنعش الأجساد. رغم أن لا أحد يعرف بالضبط ما ينعش الجسد فعلا، فيكون كل حساء وكل طعام هو نموذج تجريبي ينبغي تناوله كما لو أنه النموذج النهائي.

في يوم بارد وعاصف تجمّدت فيه العصافير فوق أشجارها، أبحرت سفينة يونانية من ميناء روما. شعر المسافرون بالجوع، وبدأوا يستعدّون لأكل أي شيء يُقدّم لهم، لكنهم وجدوا شُعيرات طويلة في شرائح اللحم، ورأوا الأوساخ في الكؤوس، الأطباق تثير الغثيان، المراحيض ملوّثة، الأكل فاسد، الخدمات منعدمة... هذه هي السفينة التي أبحر على متنها ويليام بورّوغ طيلة اثني عشر يوماً نحو طنجة. كان يوم أحد، اجتاحت عاصفة هائجة مفاجئة البحر الأبيض المتوسط، فأخافت كل القادمين من روما ومن جنوب شرق أوروبا المتوجهين إلى شمال إفريقيا. مما اضطر ويليام إلى إخراج معطف جديد من حقيبته وارتدائه مكان الأول الأقل دفئًا، وقُفّازين وقبعة لها نجاعة استثنائية في مواجهة البرد والمطر. من يره على تلك الهيئة يعتقد أنه سيخرج الآن إلى سطح السفينة ويواجه بصدره الريح القوية والمطر الغزير كما يفعل أبطال الأفلام الضائعون على الجزر المهجورة. لكن في داخله كان يحمل أمل أن يتغير الطقس، أن يتبدّل كل

شيء فجأة كما حدث فجأة. إن هذه خصيصة من خصائص الأمريكيين، فهم يؤمنون بحدوث التغيرات المتعاقبة والمفاجئة دون حاجة إلى مقدّمات، مما يجعلهم مسالمين في مسألة التشبث بالوضع الجديد لأنه هو ما يؤدّي إلى وضع آخر، وهكذا. إن الوضع الجديد، مهما كان سيئاً يحمل في داخله بذرة وضع جيّد. الأمريكيون جاؤوا من كل جهات العالم، لكنهم حين جاؤوا من الشرق حملوا معهم هذه الفلسفة الجيّدة والنافعة.

كل من رأى أو قرأ أو سمع بوليام بورّوغ اهتمّ بأمره. وإن يهمّكم أمره أنتم أيضاً ستتلهّفون لمعرفة تاريخ ومكان ولادته، وأسرته، ومستواه الدراسي، ورحلاته، وأصدقائه، والمطاعم السيئة التي ارتادها وصرخ في وجه مسيّرها وهو يرمي شريحة اللحم الفاسد التي قدّمها له. وفي حقيقة الأمر فإن اللحم جيّد وزوّد به المطعم أحد كبار الجزارين، لكن حالة السكر المتقدّم تجعل ويليام دائما يقدّر سيئاً ما يُقدّم له من طعام أو شراب. لكن رغم ذلك فقد ظلّ يعتبر تلك اللحظات من أجمل لحظات وجوده. وذلك بفضل فُرن يوجد في عقله يطبخ فيه كل أفكاره وقراراته، حتى المنفلتة منها. كما أن هناك الكثير من الأفكار يطلقها هكذا في الهواء لا يستطيع هو نفسه فهمها، لكنه متأكد بأن الفهم حاصل حين يتلقّفها الآخرون.

هناك من سيهتم بهذه الجوانب كلها، وهناك من سيكتفي بجانب واحد فقط. لكن تقديم جانب واحد يعتبر عيباً من عيوب السرد. لذلك فأنا ملزم بتقديم إحاطة.

بحث ويليام في روما عن صديق أمريكي فلم يجده، فهو لا يتوفر على عنوانه. كانت بحوزته رسائل كثيرة فيها عناوين، لكنه فضّل البحث عن صديقه هذا الذي اسمه آنسن. مجيئه إلى طنجة هو في الأصل توجّه لا شعوري نحو إفريقيا. كان مصاباً بنزلة برد حادّة، وما زالت أمامه أربعة أيام، في أحسن الحالات، نحو جبل طارق. يبدو داخل معطفه مثل قصبة ملفوفة في ثوب أسود. من المستحيل نزع المعطف في روما، أو داخل هذه السفينة الرديئة. ورغم قسوة البرد فإنه لا ينسى أنه استمتع ببعض المقاهي والحانات، يذكر منها مقهى «رومو» الذي كرهه في بداية الأمر، بسبب الفوضى السائدة فيه، واللوحات التي تنمّ عن انعدام موهبة رسّاميها، والشواذ الذين يرابطون داخله، والرجال الملتحين الملتصقين بالكراسي شبه المحطّمة وهم يلعبون القمار. لكن النادل الذي يحمل اسماً غريباً: «شي شي»، كان هو ملاك ذلك المكان، وجوهرة تلك المزبلة. سيعرف فيما بعد أنه ابن صاحب المقهى. لهذه الأسباب كلها ظلّ ويليام يؤنب نفسه بهذا السؤال: لماذا غادرت المكسيك؟

وصل إلى طنجة عبر جبل طارق، لم يكن يحمل في جيبه سوى خمسين دولاراً عليه أن يدّخرها إلى الأول من فبراير. هذا رجل من كبار

الأمريكيين الذين أحبّوا أوروبا. لكن الأمر الذي يستغربه الجميع أنه يحمل دومًا أملاً قويًا في العثور على عمل في طنجة أو الدار البيضاء. وهو نفس الأمل الذي حمله وهو على أرض المكسيك، البلد الذي حين يغادره يظلّ يمتدحه كبلد مثالي، في رسائله التي يبعثها إلى كل العالم. لم يكن يملك شيئًا يقوله لأي أحد. أفكاره لا تلتقي مع الناس في أي مكان، وكيفما كانت حالته. لهذا السبّب اعتبره كلّ النّاس الذين التقوا به رجلاً سيّئًا للغاية. لكنه لم يكن سوى ضحية للفراغات التي كانت تملأ ذهنه، للثقوب التي تُقيم بين الكلمات ومعناها، وحين ينطق بالجُمل يخرج معناها معكوسًا. لذلك تحوّل إلى طبيب نفسه، فتجرّع دواء الصّمت لمدّة طويلة. كان يخاف من الكلمات، وبدأ يعتبرها أكثر جبروتًا وبطشًا بقدرته السابقة حين كان ينطق بإنجليزية، صحيح أنها رخوة، لكنها ممتلئة بالمعاني ومحبوبة لدى المستمع إليه، وأكبر معانيها الخوف والحذر والعبث. ويليام الخائف، ويليام الحذر، ويليام العابث، حذِرٌ من كلّ شيء، خائفٌ من كلّ شيء، عابثٌ بكل شيء. هذا الزلزال اللغوي الذي جعله مضطربًا طوال الوقت كاد يتسبّب في شجار مع زوج امرأة ألمانية سمعه وهو يخاطب زوجته على سطح السفينة قائلا لها: تذكرين يوم قبّلتك أول مرّة؟ وحين علا الصّراخ وتدخّل الناس لفض الشجار الوشيك، عاد ويليام إلى حالته الطبيعية، وتذكّر أنه نطق بما لا ينبغي النُّطق به. فالمرأة ألمانية شابّة، ولا يذكر أنه قبّل امرأة ألمانية ذات يوم. ذهب

واعتذر للزوج، وقبّل يد زوجته قائلا إنه ظنّها صديقته الألمانية القديمة، فدعاهما إلى كأس في حانة السفينة، وبقي يتكلّم بسرعة مثل آلة تُصدر ضجيجًا لا يُطاق، فاضطرّ الزوج إلى دفع حساب كؤوس الويسكي الثلاثة وانسحبا وكأنهما هاربان من عاصفة. بقي ويليام على الكونتوار يحتسي كؤوسًا أخرى وهو يتأمّل كيف أن أموراً سيّئة يمكن أن تُنتج أموراً جيّدة. تحرّشه بالشابّة الألمانية أدّى إلى أن يتكلّف زوجها بأداء مبلغ من المال على كؤوس شراب جيّدة الطعم والرّائحة. لو لم يَقُم الزّوج بذلك لنشب شجارٌ آخر بين نادل الحانة وويليام الذي لم يكن بمقدوره أداء ذلك المبلغ. عندها سيُدرك الزوج الألماني أنه أمام سكير محترف، وصعلوك خبيث تحرّش فعلا بزوجته، وما ذريعة شبهِها بصديقته القديمة سوى قصّة مُختَلَقة للإفلات من الورطة.

في الحقيقة لم يذهب الألمانيان خارج الحانة، بل جلسا على طاولة منعزلة، بعيداً عن هذا الرجل الأمريكي الذي يعتمر قبعة ويرتدي معطفًا أسود يغطي قامته الطويلة كلّها من كتفيه حتى كاحِلْيه. استغرب الألماني للإنجليزية الصادرة من فمه مع رائحة السجائر والخمر. لا ينكر أنه أُعجب بهذه الإنجليزية اللذيذة التي لم يسمع أمريكيًا آخر ينطق بمثلها. جُمَلها لا تكاد تتوقّف، وفيها من الاستعارة أكثر مما فيها من الحقيقة. قال الألماني لزوجته: هذا شاعر. التفت ويليام إليهما كأنه شعر بأنه موضوع حديثهما، ولما نظرت إليه الألمانية ابتسم لها ابتسامة سرّية، ورغم ذلك

تمكّـن الـزوج مـن ملاحظتهـا، فتبـيّن لـه بمـا لا يـدع مجـالاً للشّـك أن الأمريكي يتحرّش بها.

لا يستطع أحدٌ من أصدقاء ويليام أن يتذكّر أنه رآه ذات يوم يبتسم. كما لا يستطيع أن يتـذكّر أنـه ودعـه ذات يـوم بالطريقـة التي يـودّع بها النـاس أحبّتهم. ويليام لا يكرّر ما قام به الناس ذات يوم واعتادوا عليه. بل يمكـن القـول إنـه شـخصٌ لا يقـول وداعـًا أبـداً. أقـول ذلـك بيقـين، لـيس لحُجّـة أملكهـا، بـل لأننـي حـين أتطلّـع إلـى الماضـي، وحـين أنقّـب في سـجلّه الطفولي، لم أجد الكلمات الرقيقة ترتعش في قلبه. هذا لا يعني أيضـًا أنـه رجلٌ قاسي القلب، بـل لأن رياحـًا كثيرة عصفت بهذه العضـلة الحمـراء القابعة تحت ضلعه الأيسر. كيف لقلب مثل هذا أن يحبّ أمريكـا؟ حين يغادرها لا يقول وداعـًا.

شعر بقدميه تؤلمانه، فانتقل للجلوس على طاولة قريبة من الكونتـوار. ظنّ الألماني وزوجته أنه قادم للجلوس معهما، فطـارا مـن مكانهمـا وتركـا كأسيهما ممتلئتين إلى النصف. لقد أصبح هو سيد الحانـة الأول. الحانـة فارغة الآن. ظهرت وراء الكونتوار شابة صينية عوّضـت الرجـل العبـوس الذي قدّم لهم الشراب قبل نصف ساعة. الصينيات صيده المثالي. طيّبات ويقرضن الأموال بسهولة. مباشـرة بعـد مغـادرة الألمانيـان نهض وجلـس على مقعده في الكونتوار وهو يبتسـم للصينية. كيـف فعلهـا وابتسـم بتلـك الطريقة المفتعلة؟ فعل كلَّ شيء من أجل استمالتها لكنه خسر في النهاية.

جالَ ببصره في المطعم الصغير الذي يتكوّن من قاعة واحدة فقط، مربّعة وتنفتح على حُجُرات صغيرة بدون أبواب، لمح دُرجاً يؤدّي إلى طابق فوقي صغير هو الآخر ويظهر أنه شديد الحرارة. ارتقى الدّرج بصعوبة لأن رجليه الطويلتين لم تسعفاه في الصعود. أطلّ برأسه فرأى شخصين يجلسان في هذا الفُرن ويدخّنان، أحدهما مبتور اليد اليمنى، يضع قبّعة وسيجارته في فمه. سمّاه في سرّه «بليز»، لأنه يشبه الشاعر الفرنسي بليز ساندرار، مبتور اليد هو الآخر، والذي يدخّن كما يدخن هذا الشخص تماماً. بدأ ويليام ينزلق من درجة إلى درجة بصعوبة، حتى لامست قدماه الأرضية، فعاد إلى الكونتوار مرّة أخرى. كاد يسقط من فوق الكرسي، حاولت الصينية الإمساك بيده لكنه تمسّك بالحاجز الخشبي، ثم انتصب واقفاً فلاحظت قامته الطويلة والنحيفة، فتراجعت بعد أن أدركت أنه لا يمكن أن يسقط لأنه وهو جالسٌ على الكرسي قدماه على الأرض أصلا.

عاد من جديد وبدأ يفكّر في جنسية هذه الشابّة، لا شكّ أنها يابانية، اليابانيون بخلاء. أو قد تكون كورية، الكوريات يتعاطين الخمور بكثرة. لا يهمّ ما هي جنسيتها الآن، المهم أن يحسب ما في جيبه من مال ليشرب كأساً أخرى. فجأة سألته:

- من أي بلد أنت؟

أجابها بسرعة:

- أنا كاتب صيني.

أجابته وهي تضحك:

- غير ممكن.
- لماذا؟
- ألا ترى شكلك؟

وضع أصبعيه على جانبي عينيه وجذبهما بحيث أصبحتا تشبهان عيون الصينيين:

- تريدينني هكذا؟ أنا صيني إذن. هههه
- ماذا تأكل أيها الكاتب الصيني؟
- بطّ بكين. هههههه

رفع كأسه وشربها كاملة. قامت الصينية وصبّت كأساً أخرى وقالت:

- هذه من عندي أيها الصيني المزيّف.
- هاتِ تلك القنينة التي تشبه البطّة وضعيها بجانبي وتعالي نشرب نخب تعارفنا اليوم.
- ما اسمك؟
- ويليام بوروز يا قلبي. وأنتِ؟

شعرت الفتاة، في كلامه، بوجود كلمات الأغاني القديمة وقصائد الشعراء الجوّالين الذين كانوا يغنّون قصائدهم على قيثارة مُرهفة الألحان.

- أنا اسمي لي يوي تشن.
- اسم جميل، وسطٌ بين الأسماء القديمة والجديدة، أنت قنطرة. «يوي» يعني ياقوت، و«تشن» هو الياقوت. يعني «الياقوت القيّم».
- لكنني قنطرة ضعيفة يا سيدي.
- صينية وضعيفة؟ ياقوتة قيّمة وضعيفة؟ غير ممكن عزيزتي. بين الكلمات تنافرٌ كبيرٌ. لماذا أنت حزينة هكذا؟ هل من داعٍ للحزن؟
- ألا تحزن أنت؟
- أحيانـًا. لكن حزني من النوع الجيّد.
- حزن جيّد. هههه لأول مرة أسمع هذا التعبير. وماذا تفعل حين تكون حزينا بشكل جيّد؟
- أغادر أمريكا بسرعة.
- تغادرها إلى أين؟ ما هو فردوسك؟
- الصحيح القول: ما هي فراديسي؟ إلى أي بلد آخر.
- من أي بلد أنت قادم الآن؟
- من إيطاليا. وقبلها كنت في المكسيك.
- ومتوجه إلى إفريقيا؟
- نعم، إلى طنجة.
- طنجة.. أسمع بها كثيراً.

فكرت الفتاة الصينية في المسار الذي قطعه هذا الرجل الغريب الذي أمامها: المكسيك، إيطاليا، طنجة. هل هو هاربٌ من شيء يطارده حيثما حلّ؟ شعرت أن هذا سؤال جيّد ينبغي أن تطرحه وتتلقّى عنه جواباً. أضافت كأساً أخرى. وقف ويليام بسعادة وقال:

- غير ممكن. هذا كثير. ليس معي من المال لأداء كل هذه الكؤوس.

تراجعت يوي تشن إلى الوراء وجلبت القنينة الشبيهة بالبطّة ووضعتها أمامه:

- خذ أيها الأمريكي، هذه كلها لك.

عاد وجلس من جديد وهو يخلع قبّعته ويضعها أمامه.

نزل الرجل الأبتر، صاحب اليد اليُسرى، هو وصديقه من الطابق الأول، وجلسا على الكونتوار، بالقرب من ويليام. اقتربت منهما يوي تشن، طلب الأبتر كأس ويسكي أما صديقه فطلب زجاجة بيرة. بقي ويليام ينقر بيده على خشب الكونتوار كما يفعل نقّار الخشب بالخشب.

ارتفعت درجة الحرارة. بدأ ويليام يتصبّب عرقاً. تجرّع الأبتر كأسه كاملة دفعة واحدة. عادت يوي تشن وصبّت له كأساً أخرى. أدركت أنها أمام سِكّير محترف. كاد ويليام يُحدث حُفرة في خشب الكونتوار لشدّة ما نَقَر بظفره. يظهر من مظهر الرجلين أنهما جابا أقطاراً بعيدة. خاطب الأبتر يوي تشن بالصينية، شعرت بسعادة وهي تردّ عليه. مدّ يده اليُسرى ليصافحها، أما هي فقد تأخرت قليلا في مدِّ يديها. الصينيون هكذا لا

يمدّون أيديهم للمصافحة بسرعة كما يفعل الأمريكيون أو العرب. لما اقتربت يوي أكثر من ويليام لتنظيف سطح الكونتوار، لاحظ على خدّيها آثاراً خفيفة للجدري. لاحظت يوي أن أفكاره تسرح أمامها على الخشب، فلامست خدّها الأيمن بأصبعها، وبقيت تلمس حفرة صغيرة غير ظاهرة بما يكفي.

عندما تطلّع إلى الماضي لم يجد أنه اهتمّ مرّة بامرأة كما اهتمّ اليوم بـ«يوي تشن». وعندما تطلّعت هي إلى ماضيها لم تجد أنها اهتمّت يوماً بزبون كما تهتمّ الآن بويليام. لم يكن لها يوماً ما تقوله للرجال الغرباء الذين يعبرون فضاءها. وقد اندهشت كيف أن ويليام كان مستعدّاً بشكل غريب للحديث معها، بل وللبوح لها بأسرار حياته كاملة، منذ ولادته إلى اللحظة التي يقف فيها أمامها. وجدت نفسها تطرح سؤالا لا يُطرح أبداً في اللقاء الأول:

- أين ومتى ولدت يا سيّد ويليام؟

حين سمع السؤال اخترقته شعريّة خاصّة من النوع التي يُستعان بها لمراوغة هذا الاختبار الصّعب، من مثل: «أنا ويليام بوروز، وُلدت في قاعة الضيوف من بيت صغير. كانت أمي جالسة على كرسي من الخشب الأسود المنقوش حين فاجأها مخاض ولادتي. الكرسي ثقيل يشبه الكراسي الموجودة في الصين، التي عادة ما كانت توضع تحت صورة الإمبراطور. كانت أمي ترتدي ثوباً من السّاتان الأبيض المزيّن بورود

صغيرة وبارزة على الثوب. غابت ما يقرب النصف ساعة، وحين عاد وعيها وجدت إلى جانبها على السرير طفلا نحيفـاً. وحين سألوها: ماذا ستسميه؟ نطقت دون تفكير: ويليام. يا إلهي، إن الكرسي الذي أجلس عليه شبيه بالكرسي الذي كانت تجلس عليه أمي حين فاجأها مخاض ولادتي. أسود وثقيل. هل هذه استعارة على أنني أولد أمامك ولادة ثانية، يا يوي تشين؟ لم تكن والدتي من النوع الذي يحبّ الهدايا، أو لنقل إنها كانت تحبّها، ولكنها لم تكن تنتظرها من أحد. فمن يزورها دون أن يحمل أي هدية هو إنسان طيب، ومن يزورها وهو يحمل هدية هو إنسان جيّد. كانت امرأة حكيمة، وتتميّز بطاقة صبر هائلة. رائحتها دائمـاً كانت طيبة، وطبخها دومـاً لذيذ. في إيطاليا رأيت نساء كثيرات يشبهنها. كانت شديدة البياض ونحيفة. كان كافيـاً أن تنظر إلي لأفهم كلّ شيء من حولي. كنت أسميها «امرأة الميم». لا تحتاج إلى الكلام لتقول ما تريد قوله، فقط حركة أو اثنتان تكفيان».

كان ويليام يحكي وهو يحلّق فوق غيمة. لم ينتبه للأبتر بليز ولصديقه الصامت. لم يكونا يُصغيان لشاعريته المتدفّقة. كانا يخوضان في حديث ساخن. الأبتر يَكْرَعُ الكأس تِلوَ الآخر وصديقه يُنصت ويدخّن ويميل برأسه موافقـاً أو متّفقـاً. نوع من النّفاق الظاهر. وأحيانـاً يبدأ الأبتر يغنّي وهو يتراقص ببطء، حينها يقرّب صديقه يده من المنفضة ويطفئ سيجارته. موسيقى بلوز منسابة وخافتة. لا يكاد يُسمع منها سوى صوت

الطّبل والساكسوفون، وصوت يشبه ذاك الذي يحدثه كعب الحذاء. المغني يضع إيقاعاً ذاتياً إضافيا بواسطة حذائه. عاد ويليام يَنقُر بإصبعه على الخشب في انسجام مع صوت الكعب الخافت. ويوي تشين تنتظر تتمّة تدفّق الشعرية النادرة التي أبان عنها ويليام وجعلتها تصدّق أنه شاعر كبير يحكي ذكرياته على متن سفينتها. تسارعت ضربات الطبل، وعلا صوت الساكسوفون إعلاناً عن نهاية الأغنية. فجأة توقّف كل شيء، وبدأت أغنية جديدة بجمل طويلة وبطيئة.

- ماذا أيضاً يا سيد ويليام؟

سألته يوي تشين وهي تنظر إلى عينيه وتبتسم. صَبَّ ويليام لنفسه كأساً أخرى وأضاف:

- إنّي أشعر وكأنّني أتحدّث في مسألة عويصة: حياتي. أضف إلى ذلك أنني أحكيها أمام سيدة أجنبية، لها جناحان. ههه. هل تعرفين كاتبة أمريكية اسمها «بيرل باك»؟ كتبت قصة عنوانها «أجنحة النساء»، وهي مستوحاة من حياتها في الصين. كانت تدرّس في جامعة «نانكين». سأعطيك روايتها «الأرض الطيبة» لتقرئيها إن شئت. أنا أقرأها الآن أثناء رحلتي هذه، لم يبق سوى فصل واحد لإنهائها. إني الآن أرى جناحيك.

شرب جرعة من كأسه، ثم عاد من الشعر إلى النثر:

- «أنا من مواليد 25/ 4/ 1914. بمدينة سان لويس بمحافظة ميسوري. لم تتركني أمي يوماً لمُرضعة تتولّى شؤوني. كانت تخرج لقضاء بعض الأعمال ثم تعود في الحال إلى ويليام الذي يكون قد تبوّل على نفسه، فتنظفه وتغيّر ملابسه. لم أعرف الوَسَخ يوماً. درست في مدرسة قريبة من البيت. وكان لنحافتي الفضل في النجاح في العديد من الأمور. تساعدني دوماً في التسلّل إلى عمق الأشياء بيُسرٍ كبير. حتى ركلاتي كانت ناجحة، حين أوجّهها للكرة أو للأطفال. لم يَهْفُ قلبي إلى أمي مثل اليوم».

التقت عينا ويليام ويوي تشين دون خجل. من عادته خفض بصره حين تنظر إليه امرأة، لكنَّ عيني يوي ساحرتان، فيهما شمسٌ، أقمارٌ. اجتمع فيهما ضوء لا يستطيع إطلاق أي اسم عليه. ضوء يراه لأوّل مرّة في عيني امرأة. ثم تابع:

- حين رأيت أمي آخر مرة كانت مريضة، ولكن إرادتها قويّة. أصدرت لي أمراً بأن أعود إلى البيت. فحقّقت رغبتها ولم أغادر البيت، تاركاً حقائبي في غُرفة مغلقة بنُزل بعيد. وحين عدت إلى النُّزل وجدتُ السيد «والت»، صاحب النزل، قد أمر بإخراج حقائبي ووضعها في مخزن خاص بالأشياء المنسية من طرف الزّبائن. لم يفعل ذلك فقط، بل قام بغسلها وكيّها وتعطيرها حتى لا تتأثّر بالرطوبة القوية. وضعها داخل دولاب نظيف، وكتب

عليها: «أشياء صديقي الكاتب العظيم ويليام بوروز». قدّمت له مبلغـاً مقابل تلك الخدمة فرفض أخذه، بل تجنّب مطالبتي بإيجار شهرين، ذلك أنني عدت إلى النزل بعد أن أسلمتْ أمي الروح. قدّم لي عزاءً حارّاً، وكادت عيناه تدمعان من شدّة التأثر، لأنه هو الآخر فقد والدته في نفس السنة في حادثة سير. يتيمان لا يعرفان كيف يعزّيان بعضهما. قلت له: تعال يا والت، لننس هذه الهموم، الحياة مليئة بالفجائع. وضع رأسه على كتفي وبكى. ولأني كنت أطول قامة منه، فقد طبع دموعه على قميصي في جهة القلب تحديداً. كان والت سميناً وقصيراً، وكان يفضّل تناول الشراب معي، وكنت أناديه «كرة الشحم»، ويلقّبني «عصا البيزبول». وفي لحظات انتشائنا كنت أضربه بيدي، وحين يحتجّ أقول: شيء طبيعي أن تضرب العصا الكرة. فنضحك بصوت مرتفع حتى نُفرغ جوفينا من كمّية الضحك المحبوسة داخلنا. اشتقت إلى والت كثيراً. انقطعت عنّي أخباره. الآن سأكتب رسالة لصديقي الشاعر «ألان غينزبورغ» ليزودني بأخباره، وليبلّغه سلامي أيضـاً. لا شكّ أن والت يتطلّع إلى أخباري. كان يقول لي دومـاً: ابعث لي أخبارك مع الريح من أيّ بلدٍ يا ويليام، يا صديقي الرائع. وتأكّد أنها ستصلني، وتجدني في المكان المناسب بانتظارها على الشواطئ.

- حدثني عن والدك سيد ويليام، لو سمحت طبعـاً.

تراجع ويليام إلى الوراء ووضع قبّعته فوق رأسه. نزل من فوق الكرسي، ثم انتصب ومشى ببطء وهو يلتفت يميناً وشمالاً. ثم عاد إلى مقعده، وتابع محدّثاً يوي تشين:

- هكذا كان والدي يمشي. مشية الرجال الأمريكيين في مرحلته. كان يلاعبني كما يفعل الأطفال في سنّي تماماً. يُصدر أصواتهم ويقوم بحركاتهم أثناء اللّعب. لكنه لم يكن بحكمة والدتي. كان سريع الغضب، ولأتفه الأسباب. إنّي أتذكّره دوماً كما أعهده. كان والدي يا يوي رجلاً كاملاً. كان بنفس قامة والدتي. كان يحبّ نساء كثيرات. وأسرع حركة من جميع الرجال الذين عرفتهم. كان وجهه بيضاوياً، وحاجباه شديدي السواد فوق عينيه. كان حين يرى جارنا السكّير جيمس بشعره المُشَعّث يقول له مداعباً: يا جيمس، اعتن بنفسك، إن شعرك يبدو كشعر الكلاب. كان جيمس ينحدر من أسرة عريقة، وذلك ينعكس في حركاته وأقواله وردود فعله. كان يبلع إهانات والدي، فيعود من حيث أتى تجنّباً لأي شِجارٍ معه. وكان والدي يردّد دوماً أن جيمس أعزّ شخص عنده في الحي كلّه. وقد كانت والدتي تنصحه دوماً بعدم التفوّه بذلك أبداً، خصوصاً أن حال جيمس تدعو إلى الشفقة. فهو رجل يعيش وحيداً بعد طلاقه من زوجته وأخذها الأولاد معها لتعيش في مدينة

نيويورك رفقة رجل ثري كان يعمل في المحاماة. ومن يومها لم يستطع جيمس عيش أيامه ولياليه دون بُكاء وسُكر.

توقّف ويليام عن الكلام ونظر إلى يوي وسألها وهو يقهقه عاليـًا:

- ماذا يوجد في شرابك يا يوي تشين، عُشْبة البوح المتدفّق؟

وضعت يوي يدها على يده اليُمنى التي كان ينقر بها خشب الكونتوار في محاولة لطمأنته، فمن كلامه عن والده التقطت مسألة الغضب السريع، الذي بدون شكّ سيكون طبعـًا متوارثـًا لدى آل بوروز. بعد ذلك أمسكت يده وضغطت عليها بشدّة. كم كان ذلك مُربِكـًا لويليام؟ نزع قبّعته وأعادها إلى مكانها قرب مرفق يده. ناولته منديلا ليمسح العرق على جبينه. التفت الأبتر إليهما وكأنه شعر بما يجري بينهما من تقارب. سقط رمادُ سيجارته التي في فمه على معطفه. أما صديقه الصامت فقد تشاغل بصبّ آخر قطرة من البيرة في جوفه. بدا ويليام مثل موج غير مستقرٍّ يدفع نفسه باستمرار نحو الشاطئ البعيد، فيجد نفسه في النهاية ينزل إلى الرّمل الذي في القاع.

لتحويل انتباه ويليام قالت يوي:

- لا تضف شيئـًا يا سيد ويليام. نحن الصينيين لا نستمع لحكاية متكلّم غير مبالٍ، أو حين لا يكون سعيداً.

أراد ويليام أن يتّخذ وضعية متكلّم سعيد، لكنه لم يعرف كيف، فاكتفى بالإطراق وتحريك أصابع يديه العشرة كأنه يعزف على قيثارة حزينة:

- كلا يا يوي، يا قلبي، لست لا مباليـاً ولا حزينـاً. والآن دعي أصابعك تداعب أوتار قيثارتي كي تعزف لحناً سعيداً.

استعمل ويليام استعارة القيثارة لأنه يعرف تقاليد الحبّ الفريدة عند الصينيين. وهو بذلك يشير إلى قواعد كثيرة في هذا المجال لا شكّ أن يوي تشين الذكية ستلتقط إحداها. تحوّل الأبتر إلى مستمعٍ غير مبالٍ لما يجري حوله. بقي ويليام يفكّر في أغنية تُعزف على قيثارة حزينة يهديها لها. سمع الأبتر أفكاره برفع صوته بأغنية تُغنى في الغرب الأمريكي، اندهش ويليام وجاراه من الغناء بصوت مرتفع وبوضوح أكثر في الكلمات، وبحزن أكبر في المشاعر. بقيت يوي وصديق الأبتر يستمعان بسعادة كبيرة إلى أغنية الحبّ التي تروي عن الأوراق الذابلة التي تسقط وتتناثر، فتفرّقها الريح في كل الاتّجاهات دون رحمة.

رفع الأبتر نظره نحو ويليام وحيّاه، ربّما على أدائه الأغنية بشكل جيّد، وعلى حفظه كلماتها الرائعة كاملة. لأن الأبتر توقّف في لحظة عن الغناء بينما استمرّ ويليام رافعاً صوته الأجش مثل فنّان محترف. بادله ويليام نفس التحية وقال إنه لم يُغنِّ هذه الأغنية منذ ثلاثين سنة. والآن أتته كلماتها ولحنها في طراوة كاملة كأنه حفظها هذا الصباح.

رفع ويليام رأسه نحو يوي، بدت له جميلة ومُشرقة وطيّبة القلب. قال لها كلمات وداعٍ قليلة وبصوت خافت:

- سأذهب إلى غرفتي، أراك في المساء.

ثم انصرف دون أن يبقى حتى يستمع لما ستقوله لـه، وبـأي الكلمات ستودّعه أو ترحّب به. أما هي فبقيت تراقبه وهو يمشي متمايلاً مثل قَصَبة تحرّكها الرياح، كأنها تحرّكها على إيقاع الأغنية الحزينة التي غنّاها قبل قليل. ساد الصمت، وبقي الأبتر يدخّن وهو مستغرق في التفكير. التفتت إليه يوي بعينين مفتوحتين، ركّز على ذراعيها العاريين. ثم طلب كأساً أخرى له وبيرة لصديقه. عادت يوي لتجلس على مقعدها المصنوع من خشب سميك، ربّما هو نفس الخشب الذي صُنعت منه هذه السفينة.

ويليام شخصٌ لا تتوقّف رغباته ولو ثانية واحدة، ولم يفارقه مسدسه يوماً واحداً. إذن، ليس صعباً استنتاج أن هذا الشخص يحب الحياة حبّاً جنونياً. لقد كان من الأوائل الذين كرهوا أمريكا. فحين يبتعد عنها يحنّ إليها فيعود أدراجه، لكنه يغادرها من جديد معتبراً أن الرحيل عنها هو الوسيلة الوحيدة لتصحيح خطئه الشنيع والتوجه نحو «فريسكو» بتكساس، أو الرحيل من جديد إلى طنجة بالمغرب. في أمريكا هو شخص عاجز، لا يستطيع فعل شيء، باستثناء مدينة واحدة هي نيويورك التي لا يعتبرها مدينة أمريكية، فهي مكان استثنائي ومنطقة دفاع مثالية من أجل البقاء. ويليام هو أول من صرخ في كل مكان: نيويورك هي أرض نجاتي، والوحيد الذي كان يأخذ صرخته بجدية هو صديقه ألان غينزبورغ، والرسائل التي سيبعثها إليه من طنجة مليئة بهذه الصرخة.

كيف تصرخ؟ كيف تقول وداعاً؟ ذلك هو الدرس الذي لم يعتقد ويليام أنه سيتعلّمه ذات يوم.

***

كفّ شكري، تدريجياً، عن معاملة بول بولز كما لو أنه رئيسه في العمل. فبعد موت جين بولز بدأت علامات جديدة، ومختلفة كلياً عن العلامات السابقة، تدلّ على تعامل جديد وخيارات جديدة مختلفة عن القديمة. بدأ شكري يحمّل بولز مسؤولية موت جين. بدأ شكري يبحث عن نصوصه، ولم يعد يرافق سوى بوغالب، ساعي البريد، وزمرة من الأمريكيين الذين لا يحبون شيئاً في الحياة مثل حبهم للسُّكر. لذلك كان شكري يسميهم «الناجين». كما كان دوماً يجد تفسيراً لملامحهم الغريبة التي لا تشبه ملامح الأمريكيين في الأفلام، ومن تلك الأسباب أنهم ينامون بالنهار ويعيشون بالليل. حتى إنجليزيتهم تغيّرت، فأصبحت تشبه إنجليزية من له أب إنجليزي وأم إيطالية، مثل «جينيت» صاحبة بار «شهرزاد» في مراكش، التي كان شكري يزورها كلما ذهب إلى مراكش، وهو أمر نادراً ما يقوم به، فيجد «جينيت» جالسة على الكونتوار وكأنها تنتظره بعد أخذها علماً بقدومه.

بدأ الروتين ذاته يعود. أصبحت طنجة ملاذاً لغير المرغوب فيهم. عصابة الكُتّاب الأمريكيين. في أحد الأيام ذهب شكري إلى الشاطئ وبدأ ينادي: جين بولز... ثم حذف الاسم الأخير وصرخ: جين آور. ثم عاد

إلى حانة قرب مركز البريد معتزاً بحفنة نقود في جيبه. كله شوق لرؤية الأشخاص الذين يبدؤون في ضرب بعضهم بعد نصف يوم من الشرب. وفي النصف الثاني يخرجون خصياتهم من سراويلهم ويظهرونها للناس. في ذلك اليوم كان شكري محظوظًا، دخل الحانةَ رجلٌ يعمل محاميًا بطنجة. دخل محبطًا وأغلق الباب وراءه قبل أن يقوم الحارس بفتحه. كان يتدلى من سترته شريط ورق الحمّام، الشيء الذي يعني أنه قادم من حانة مجاورة. لكن رغم ذلك شيء ما مميّزٌ فيه: ساقاه الطويلتان. جلس جنب شكري وتبادلا الحديث لما يقرب من عشر دقائق، ثم نهض المحامي وهو يضع مبلغًا من المال في يده.

بقي شكري في زاوية معتمة يراقب رجلا سكرانًا يظهر خصيتيه إلى عاهرة تجلس قرب باب المرحاض. تلك وظيفتها مدى الحياة، لذلك فشكري يعطف عليها. لم تكن تعرف ما الذي عليها فعله أمام هذا السكير الذي يردّد حركته السيئة التي أثارت حفيظة كل الموجودين في البار. هؤلاء كلهم مكانهم هو الحانة الوسخة تحت الأرض. لا عمر لهم. يبدون في أي عمر. فجأة اقترب أحدهم من شكري:

- مرحبًا سي محمد، أريد الحديث معك. لقد حان وقت التعرف على بعضنا.

في تلك اللحظة دخل عبد اللطيف إلى الحانة وجال بعينيه بحثًا عن صاحبه. حتى وجده في الركن المعتم. جلس على الكرسي المقابل له.

ليس ذلك مكانه المعتاد. أشار شكري للشخص الراغب في الحديث معه بأن ينسحب الآن ليتحدّثا في وقت لاحق. يحمل عبد اللطيف مغلّفاً كبير الحجم. وهو عبارة عن مخطوط كتاب جديد قرأه بطلب من شكري. التفت شكري حين سمع صوتاً على يساره. فرأى وجه شابّة شديدة السُّمرة. عشرون يوماً، هذا هو الزمن الذي استغرقه عبد اللطيف في قراءة المخطوط. سعلت الفتاة الشديدة السمرة بقوّة. التفت إليها شكري ودعاها للجلوس جنبه. قفزت من مقعدها كأنها كانت تنتظر دعوته. قبّلته ومدّت يديها لعبد اللطيف. مدّت يدها إلى علبة السجائر لتأخذ سيجارة، منعها شكري:

- بدأ النّهب من الآن؟ ضحك وهو ينظر إلى عبد اللطيف. هيّا عودي إلى مكانك يا ابنة العاهرة، اجلسي على ذلك المقعد الصدئ الذي كان يثقب مؤخرتك قبل قليل.

نهضت وهي تشتم، فمدّ إليها أحد الواقفين في الكونتوار سيجارة من علبته. الكل كان يراقب ما يحدث. التفت إليه شكري وشتمه:

- هي زوجتك أم أختك يا قوّاد. أعطها مؤخرتك لتشعل بها السيجارة، وحين تنتهي من تدخينها كاملة مدّها لها لتطفئها في ثقبك.

التفت شكري إلى عبد اللطيف:

- لم أر في حياتي مثل هؤلاء البشر. دعك من الافتراضات الأخلاقية، تعامل مع الواقع ولن تجد سوى الأساليب الغريبة. يا إلهي هل اختفى الناس الموهوبون؟

استمرّ شكري يشتم. أخرج سيجارة وأشعلها. لم يعد بالإمكان رؤية وجهه بفعل موجة الدخان التي أحاطت به. التدخين عند شكري مثل القتال. يتذكر عبد اللطيف أنه قال له ذات يوم إن التدخين غيّر من طريقة سيره. لم يبدُ أنه فهم ما قاله. التدخين غيّر من مشيته، والشراب غيّر من طريقة كلامه وضحكته. الكثير من الأشياء لا تتغيّر إن لم يكن التدخين أو الشرب وراءها فثمّة أشياء كثيرة. ذلك ليس فنّاً صعب الإتقان.

فاجأه عبد اللطيف بهذه الملاحظة:

- أنت تخسر كل شيء يوميّاً. روّض نفسك التي اعتادت على الخسران.
- ماذا أخسر مثلا، أعطني القائمة.
- قبل يومين خسرت ساعة ثمينة. أضعت هالة ثمينة، أضعت ما هو أجسم.
- ما هو هذا ال «أجسم» يا بابا. لم أنتبه أن ثمة كارثة حلّت بي؟
- لا أعرف بالضبط ما هو سي محمد. خزانتك تفرغ كل يوم من أشيائها.

- إنها أشيائي وليست أشياء الخزانة. أترى كيف تُملِّك شيئاً لي لخزانة من خشب؟ هههههه

استمرّ شكري يحفر في كلام عبد اللطيف، لكن لم تكن هناك فائدة تُرجى من ذلك. الكثير من الأشياء حدثت بعد ذلك. سقطت الفتاة من فوق الكرسي، تبوّل سكّير على حذائه، تحطّمت مائدة مجاورة لمائدة شكري، وفي كثير من الأحيان كان يشتم ويركل برجله رغم عدم وجود أي أحد حوله. ناوله عبد اللطيف المخطوط وانصرف مباشرة نحو مبنى إذاعة طنجة حيث يعمل، تاركاً وراءه صديقه حافي القدمين ويقوم بحركات بهلوانية.

بقي المخطوط، وعنوانه «زمن الأخطاء» هادئاً على المائدة، بلّلته قطرات النبيذ الأحمر من الأسفل. ونظرت إليه كل العيون الحمراء الموجودة في الحانة. نظر إليه بالخصوص الرجل الخمسيني الواقف في الرُّكن، كان يمثّل بحركته أنه يقطع أذنه اليسرى، فخطرت على بال شكري تسميته «فان غوغ»، وبالفعل فقد كان أيام شبابه رسّاماً يعيش مع حبيبة مجنونة توفيت قبل خمس سنوات، ويُعرف بشغفه المدرسي عند من درسوا معه. ورغم معرفته لشكري منذ سنين فإنه لا يجرؤ على الاقتراب من مائدته. يمكنه البقاء في طنجة مائة سنة دون مغادرتها. هي مكانه المطلق، كأنه مخزن تحت الأرض لا يؤدّي إلى مكان آخر، مليء بثروات غير مرئية لأحد. ظل ينظر إلى شكري إلى أن مرّر إليه صاحب

الحانة زجاجة نبيذ وأشار بإصبعه إلى شكري الذي أهداها له. دون أن ينظر إليه التفت نحو الزجاجة، ابتسم وصبّ كأساً ورفعه نحو الأعلى وهو ينظر إليه، وشربه دفعة واحدة. وبقي يشرب ناسياً شكري وهديته الجميلة، بل شعر كأنها صعدت لوحدها من قبو الخمور واستقرّت أمامه في هذا اليوم الماطر وشديد البرودة.

انسحب شكري ونسي المخطوط.

***

«أنت يا شكري تبدو رائعاً بهذه البيريه، وربطة العنق».

قال صاحب سيارة الأجرة لشكري الذي كان مبتسماً، حليق الوجه وقوي النظرات.

«خذني إلى البيت». قال وصمت. اختفى كل شيء من أمامه. لم يعد يسمع حتى محرك السيارة ولا ضجّة الشارع المزدحم. لم يعرف حتى الاتجاه، اختفى، تبخّر لكنه يثق في السائق الذي في النهاية رفض أن يأخذ منه المال.

قبل أن يسقط المطر نظر شكري إلى نفسه وانتبه إلى أنه يرتدي ملابس الربيع، قميصاً مزركشاً وحذاءً صيفياً بنياً دون جوارب. حدس بهطول الأمطار حتى دون أن ينظر إلى السماء. تذكر أنه نسي المخطوط في الحانة. حين وصل إلى البيت ترك الباب مفتوحاً وتوجه مباشرة إلى الهاتف واتصل بالعربي النادل الذي أخبره أنه يحتفظ بالمخطوط في

دُرجه. لم تكن في ذهن شكري غير فكرة واحدة: كيف يُقنع العربي أن يأتي بالمخطوط حين ينتهي من العمل؟ فالعربي حين يقرّر أن يكون فاعلاً لا يتردّد. عاد شكري واتصل بالحانة وسأل عن بوغالب ساعي البريد، فأخبره العربي بأنه موجود رفقة شخص يكرهه شكري ويسمّيه الجبان. طلب من العربي أن يعطي المخطوط لبوغالب كي يوصله إلى البيت، سينتظره حتى العاشرة ليلا.

حين أخبر العربي بوغالب بطلب شكري رآه الجميع يأخذ المخطوط ويركض نحو الخارج. ركض إلى الرصيف الآخر، وبدا كأنه يحلّق بعيداً عن الأرض. إنها فرصة أخرى ليزور شكري في بيته، وتكون مناسبة لاستعارة بعض الكتب. منذ مدّة بدأ ساعي البريد الشاب المولع بالكتب يقرأ بالإسبانية. وهذه المرة سيأخذ من شكري رواية إسبانية يرشّحها لقراءته. وقف جنب بيت غريب يسميه تينيسي ويليامز «بيت الأشباح» لأن نوافذه الخشبية الزرقاء لا تفتح أبداً، كلما جاء إلى طنجة يجدها على حالها مغلقة، مع أنه بيت تقيم فيه أسرة طنجية ورثته أباً عن جدّ. تطل من خلف سوره كرمات عنب، عدها ثلاث. السياج الحديدي الذي على الرصيف وظيفته منع السيارات من الوقوف أو الرّكن. إذن، هناك من يحرس البيت الغريب من بعيد. لكن لاشكّ أنه بيت فارغ من مظاهر الحياة الإنسانية الطبيعية. وقد قيل إن سبب ذلك يعود إلى كون أغلب أفراد الأسرة المقيمة معاقين يعانون من تشوهات مخيفة ولا يستطيعون

الظهور للناس. أمام هذا البيت المخيف والغامض وقف بوغالب ينتظر سيارة أجرة توصله إلى بيت شكري.

بدأ المطر ينهمر بقوة، اختفى فتيةٌ كانوا يلعبون الكرة في زقاق قريب من الشارع. هزّ بوغالب رأسه إلى السماء كأنّه تلقّى إشارة من هناك. ثم التفت إلى بيت الأشباح فحضرته معلومة أخرى مرعبة: في العام الماضي شاع خبر انتحار فتاة بداخله، لكن لم ير أي أحد خروج الجثة أو دخول الشرطة. كيف حدث الأمر، لا أحد يعلم بالأمر غير الله. الكثيرون تحدثوا عن معرفتهم بالفتاة المنتحرة، وأنها كانت تذهب إلى الشاطئ تسبح وتعود. وهناك من قال إنها كانت تملك دراجة هوائية تقودها بسرعة وأن لا أحد من الفتيان كان يستطيع اللحاق بها. عاد بوغالب وركّز نظراته على سيارة أجرة. كانت تفوح منه رائحة خمر خفيفة. فكّ حزام سرواله، رفعه إلى فوق قليلاً وشدّه أكثر. الإشارة الأولى بيده كانت ناجحة، توقفت سيارة أجرة، تفاجأ بها فتراجع إلى الخلف. فتح السائق الباب فصعد بوغالب وهو يتأكّد من وجود المخطوط في يده. حدّق فيه السائق وهو ينتظر أن يقول له وجهته. انطلقت السيارة والسائق ينتظر، فيما بوغالب ينظر عبر النافذة إلى غزارة المطر ويستمع إلى صوت ارتطامه بحديد السيارة. وحين سأله السائق أجاب على الفور: طريق تولستوي، أمام ثانوية «رونيو». كان برنامجه لهذا اليوم الذهاب إلى مكتبة صغيرة اسمها «الأعمدة الأربعة» في البوليفار، أسفل عمارة من أعرق البنايات في مركز

المدينـة. مكتبـة راقيـة تملكهـا فرنسـية، حـين تـتكلم بشـأن الكتـب والإصدارات الجديدة يشعر المستمع إلى حديثها أنها تعرف كل شيء عن الثقافة الفرنسية. تكون وحدها في المكتبة في غالـب الأحيـان، لكنهـا تقـوم بأشياء كثيرة، بما في ذلك الصعود على سلّم إلـى الرفـوف العُليـا لترتيـب الكتـب أو إعـادة تصـنيفها، أو أخـذها لوضـعها في الواجهـة الزجاجيـة مـن أجل بعث الروح فيهـا. إن شـئتم الاختصـار، هـذا المكـان الصـغير، الـذي يبدو من بعيد مجرد باب في جـدار، تتحـوّل فيـه المشـاعر مـن الأسـوأ إلـى الأحسن. وذلك ما ظل بوغالب ينشده دومـاً عندما يدخله، ومثله شـكري وعبد اللطيف. بدأ يهيئ ما يجب قوله لشكري وما لا يجب قوله.

الآن بوغالب مستعدّ للّقاء، لـن يطلـب منه سيجارة مـارلبورو أو وينسـتون، لأنـه سـيعطيه سـيجارة «أولمبيـك الزرقـاء». لـن يلمـس السـمك بيـده إن وجـده علـى المائـدة جنـب زجاجـة ويسـكي. شـكري يكـره لمـس السـمك بأصـابعه، خصوصـاً سـمك «أربيـان»، هـذا إن وجـد شيئـاً مـن ذلـك فشـكري يشـرب ولا يأكل. ولن يذكر أمامـه أبـداً اسـم تينيسـي وليـامز، الـذي أصـبح مـؤخراً صـديقـاً حميمـاً لمحمـد المـرابط. وإن تصـرّف أو تحـدّث بعكـس ذلـك فسيطرده دون تـردّد. فجأة طـرأت لـه فكـرة: مـاذا لـو شـرب كأسـاً في حانـة «نيكريسكو» قبل طرق بابه؟ بل ويمكنه شرب كأس أخـرى في «راديـو بـار» وأخـرى في «ريتـز» أو في «خوانا دي أركو»... جولة صغيرة على السلسلة ثـم يصـعد وهـو في منتصـف الانتشاء. فشكري سيقدّم له كأسـاً بدون شـك، لكـن بوغالـب يريـدها أن تكـون

كأس النشوة الجميلة، تساعده على استعمال جمل مختلفة في كل مرّة، وليس تلك الكلمات والجمل المعتادة. الكؤوس الكثيرة تساعده على تنويع كلامه ورقشه بما قرأه من شعر وقصص، وهو أمر يروق لشكري كثيراً. يقرأ بوغالب في الفترة الأخيرة تشارلز بوكوفسكي، خصوصاً روايته «موظف البريد» التي أحالته عليها رواية «نساء» التي ذكر في صفحتها الأولى عمله موظفاً بالبريد، وأنه كان يطمح إلى أن يصبح كاتباً. لكن هناك احتمال لم يخلُ ذهن بوغالب منه، من المحتمل أن يستقبله شكري ويأخذ منه المخطوط ويودّعه، يكون الأمر شبيهاً بـ«كان تسليمه عليّ وداعاً» كما قال المتنبي. وبذلك يكون قد ركل مؤخرته، كما يحبّ دائماً أن يقول. نظر بوغالب إلى السائق كأنه يريد أن يأمره بالتوقف في المنحدر. فهم السائق ومال على جانب الطريق ونظر إلى العدّاد. أخرج بوغالب ورقة مالية وودّعه بكلمة شكر. كان السائق نحيف الجسم، قريباً من هيئة الشبح، ولولا مخاطبته إيّاه لما رآه.

***

كان شكري منهمكاً في الكتابة على الآلة الكاتبة. برنامجه عشر صفحات في اليوم، وعشر كؤوس وعلبة سجائر وطبق سلطة ورائحة سمك لن يأكله. لا يريد أن تمرّ الأيام خاوية. نظر إلى كتابه «الخبز الحافي» المترجم إلى العديد من اللغات وخاطبه: «سأقتلك يا ابن القحبة، سأقتلك». كانت النسخ مصفوفة جنب بعضها باللغات الفرنسية والإنجليزية واليابانية والإيطالية والألمانية والإسبانية والصينية

والهنغارية... مختلفة الأحجام، كثيرة الألوان، رائعة الأغلفة. مصطفّة في أوضاع مختلفة كأنها في ملعب. هذا رجل جالس أمامها، محترف في الشرب والتدخين والكتابة والشّتيمة. حكّ ظهره ثم صدره وعاد بيديه يضرب على الحروف كأنه يعزف، وصوت الآلة يُسمع قوياً ومتتابعاً. وفي أحيان يسمع صوت شبيه بصوت اصطدام عجلات الطائرة بالأرض. لقد كتب نقط الحذف، أو علامات التعجّب. رفع رأسه من جديد إلى «الخبز الحافي»، لم يقل شيئاً، لكنه كان يردّد في داخله تهديده له: «سأقتلك يا ابن القحبة، سأقتلك». أما الكِتاب فبقي جامداً. سأله ثانية فردّدت الترجمات السؤال وراءه: «لماذا تُبقيني في خزانتك أيها الكاتب؟».

كُتب الشيء الكثير عن كراهية الكُتّاب لكتبهم، وشكري لا يعرف إلا النزر اليسير منها. يعرف نسيان بولز لرواياته السابقة، فكان يكره الحديث عنها إلا لمن قرأها كلها وأحبّها وطمع في ضوء جديد يسلّطه كاتبها عليها. حالة الغربة هذه كانت تثير حيرة شكري. وجدها أيضاً عند تينيسي ويليامز وجان جونيه. لكن الحالة تختلف بين الأمريكي والفرنسي والمغربي. اختلاف جذري يتطلّب تفسيراً أكثر. رُويت حكايات كثيرة لكن ينبغي رمي أغلبها في المزابل. هناك قصص قديمة عن المسيح الذي كتب جملة واحدة في حياته على الرمل جاءت مياه البحر ومحتها. كان المسيح سعيداً بالمحو، لمس المياه بيديه وتمتم شيئاً، ربما كان يباركها

ويوصي الله بها. نسي جملته الوحيدة وغادر الشاطئ. ما صحّة هذه الحكاية؟ حتى ولو لم تكن صحيحة فإن شكري يصدّقها بقوة، ثم يلتفت لـ«الخبز الحافي» ويقذفه مرّة أخرى بشتيمة. هل يعلم الكِتاب شيئاً عن هذه الكراهية؟ إنه كتاب «فاسق» وسيعرف ذات يوم وسينقلب على كاتبه. كل شيء ممكن، فالكُتُبُ تفعل أشياء كثيرة بكُتّابها. من الضروري التحدث ولو بعجالة عن هذا الأمر. هل تريدون التفاصيل؟ إنها غير موجودة. هذا أمرٌ كليّ ومغلق مثل كُتلة، وإذا سقط من مكان مرتفع يهشّم الرؤوس والأرجل. مثل أي شيء ثقيل وغامض يسبّب العذاب. فدعونا منه، لنذكره بعجالة إذا أردنا أن نسلم من أذيّته. هذه الكتلة الثقيلة هي من محبّي الأرض. لندعها منخفضة، قريبة من الأرض حتى لا تحدث الكارثة. تصوّروا رجلا بريئاً يسمع عن كاتب يكره كتبه، إنه سيلعن الشيطان، ويستعيذ بالله فوراً. وفوراً سيختفي من أمامك أنت المهرطق، في نظره. يا مثير الزوابع النفسية والفكرية. كاتب يكره كتابه الذي ألفه بيديه وعقله؟ ما هذا؟ إنه كلام زائد يصدر عن المرضى والمرتابين. قل كلاماً صالحاً أو اصمت. سأصمت إذن بعد قول جملة واحدة: شكري يكره «الخبز الحافي»، وبولز يكره «شاي في الصحراء»، وجونيه يكره «أسير عاشق»، وتينيسي يكره «عربة اسمها الرغبة»، وجين بولز المتوفاة قبل شهر تكره «سيدتان حازمتان»، بل كانت تكره كل نثرها الجميل. وكانت تتردّد في رميه في المجاري. إني أراها تنهض من بين الأموات وتوافق على

ما أقوله في حقها هي وأصدقائها الكُتّاب الأمريكيين. عادت إليها لغتها صافية وبليغة، تحيط بها هالة من نور ساطع ومخيف. من يقدّم لها جبن الماعز يكون في نظرها أعظم إنسان في الكون. سافرت كثيراً وتناولت وجباتها وشرابها في مطاعم كثيرة، لكنها لم تجد البتة ألذّ من جُبن الماعز في الجبال التي زارتها وماتت فيها. قطعة جبن وكأس نبيذ أحمر لذة ولذّات الدنيا.

طرق بوغالب باب البيت، وبقيَ هادئًا يفكّر في كيفية استقبال شكري له. لو عاد بذاكرته إلى الوراء سيتذكّر مرة أطلّ فيها شكري من الباب حين فاجأه ثلاثة أشخاص من الطينة التي يكنّ لها كرهًا شديداً، فشتمهم لأنهم أتوا بدون موعد يطرقون بابه مثل اللّصوص، وأعاد إغلاق الباب بقوة كادت معها أبواب الجيران أن تُخلع من مكانها. بقيت تكشيرته وشتائمه محفورة في ذاكرة بوغالب إلى اليوم. في حالة زيارة شكري بدون موعد، وفي الوقت غير المناسب، يتحوّل إلى أسوأ إنسان. فإذا كنت تظنّ أن حملك لقنينة ويسكي وبعض السمك الطري هو جواز سفرك إلى مملكته فأنت خاطئ. ذات مرّة زاره شخصٌ يُدعى حسن وهو يحمل هذه الأشياء، فأدخله شكري وهو يكتم غيظه، وضع حسن ما كان يحمله في يده على مائدة صغيرة وجلس على أريكة تتوسّط بهو الدار الصغير، فأمره شكري بجمع الصحف من على السرير ووضعها في أكياس كان عليه حملها ووضعها في صندوق القمامة أمام باب العمارة. وحين عاد وطرق

الباب ليدخل رفض شكري فتحه، وبقي حسن يضرب بيده إلى أن خرج أحد جيران شكري وطرده وهو يهدّده مستعملاً أقبح الكلمات وأبشع الشتائم.

منذ أن انتقل شكري من السوق الداخل الذي كان يقيم فيه بفندق «الشاون»، أحدث قطيعة غريبة مع هذا الفضاء الشطاري الخطير. كان رواد حانة «خوانا دياركو» في مركز المدينة، وهو المقابل الإسباني لـ«جان دارك»، يستلذون باستقبال صاحب الحانة سي عبد السلام قصير القامة، وصديقه اليهودي طويل القامة. لكن أهمية «خوانا دياركو» تكمن في شيء مختلف: نقائه ونظافة أرضيته وجودة نبيذه وأطعمته. ظل شكري محبّاً لهذا المكان الجميل، الذي ضاعت منه فيه محفظة نقوده عدّة مرّات واستردّها دون مشاكل ولا أكاذيب. إن روّاده أمناء. لكن شكري يُرجع استعادته لمحفظته إلى يقظة سي عبد السلام، الذي كان أيضاً مستعدّاً لطرد أي شخص لمجرد تحريك الطاولات والكراسي بعنف يحدث الفوضى. كان في كل مرّة يخبر شكري عن الشخص الذي وجد محفظة نقوده وردّها كاملة غير منقوصة من أي ورقة نقدية أو بطاقة. وكان شكري يكافئ الشخص الأمين بزجاجة خمر جيّدة، وبابتسامة مرفقة بتحية كلها تقدير كلّما دخل الحانة، حينها يُشغّل سي عبد السلام أغنية شجية للمطربة المغربية لطيفة أمل تقول كلماتها: «شوفو الحبيب سلّم فيّا... ». كثيراً ما بكى شكري حين سماعه لها. ذات مرة كان رفقة جان جونيه

الذي حين رآه يبكي بعد سماعه للأغنية سأله فترجم له شكري كلماتها، لكن ردّ جونيه كان غير متوقّع: «ألهذا فقط تبكي يا محمد؟». تنهّد شكري بعمق، وأمسك بيد جونيه ونظر إليه قائلاً: «لقد نزلت دموعي متأخّرة جداً. اسألني عن كل هذا التأخير. أنت بكيت باكراً. أنا أمضيت طفولة صلبة، لم يكن لديّ الوقت للبكاء، وكنت أفكّر في أنني إن بكيت أمام الناس فإنهم سيهتكون مؤخرتي. حافظت عليها سليمة، وبعدها، حين نجوت، بدأت أبكي كلّما سمعتُ أرقّ الكلمات».

لم يسمع شكري الطرقات الخفيفة على باب الدار، لكنه شعر بحركة وأنفاس تتردّد في الخارج. وحين تذكّر مخطوط روايته نهض بسرعة ونظر من ثقب الباب فرأى بوغالب متّكئاً على جدار الدار المجاورة. حين فتح قفز بوغالب وعانقه. أدخل شكري يديه في جيب سرواله ودعاه إلى الدخول وهو يبحث بعينيه عن المغلّف الأبيض الكبير، وحين رآه في يد بوغالب مدّ يده وتناوله، ثم فتحه وأعاد إغلاقه. إنه كتابه الجديد الذي أمضى أوقاتاً جيّدة أثناء كتابته. خاطبه وهو ينظر إلى حذائه الرياضي الأزرق:

- نسيت المغلّف في الحانة ولم أتذكّره إلا وأنا في البيت. كانت ستكون كارثة لو ضاع في ذلك المكان العفِن. لم يؤدّ شكري واجب إيجار البيت منذ شهرين، لذلك فكل طرقة على الباب، أو

رنّة هاتف، يعتقد أنها مطالبة بمال الإيجار. لكن بوغالب أخبره بأن صاحب البيت قد مات منذ شهر ونصف. فردّ شكري ساخراً:

- قد تأتي عظامه إلى هنا وتطالبني بالمال. الموتى يحبون المال كثيراً. هاهاها.

أضاف بوغالب:

- قد يأتيك أخوه وهو شبيهه تماماً إلى درجة أنّك ستظنّ أن صاحب البيت لم يمت.

شكري:

- سأعطيه ربع المبلغ فقط.

بوغالب:

- أدخله إلى البيت وأعطه كؤوس ويسكي واعتبر نفسك أديت واجب الإيجار. فأخوه هذا كسّر جينات الأثرياء البخلاء. كأس أو ابتسامة وتصبح حبيب قلبه. أما إذا اعتاد أن يأتي إلى هنا ويخرج مخموراً فلن يطالبك بشيء، وانعم يا سيدي في بيتك كأنك تملكه.

تغيرت ملامح شكري الذي يحبّ طرد الناس من بيته. ابتسم في وجه بوغالب الذي حمل له أخباراً مهمة هذا المساء، إضافة إلى إنقاذه لمخطوط روايته من الضياع. ثم نظر إليه وسأله:

- تعرف رواية بعنوان «القلب صيّاد وحيد»؟

اتخذ بوغالب ملامح وحركات شخص يتذكّر شيئاً في قاع ذاكرته:

- لا.
- أشعر بأن قلبي صيّادُ وعولٍ وحيد في الجبال.

وضع شكري يده على قلبه وبقي يتحسّس الأضلاع لوقت طويل، بدا كأنه أحصاها فوجدها ناقصة ضلعين أو ثلاثة. ثم أدخلها في جيب سترته وأخرج سيجارة، أشعلها وبدأ يدخن باستمتاع، قبل أن يسأله بوغالب عما إذا كان بولز قد بدأ يتصرّف بغرابة في الآونة الأخيرة. وهل يكون للأمر علاقة بموت زوجته جين. نظر شكري إليه وبقي يدخن، قبل أن يجيبه بأن بولز كان دائماً هكذا، وعليه ألا يتخيّل أنه حزين على فراق زوجته. هذا آخر ما يحدث في نفسيته. الموت آخر من يهزّ هذا الأمريكي النحيف. الأمريكيون لا يفكرون مثلنا في مثل هذه الأمور. بدأت نبرة صوته تتخّذ تلك الحدّة التي تظهر حين يتمّ ذكر هؤلاء، فيرى أن اللحظة قد حانت لتصفية الحساب معهم واحداً واحداً، باستثناء جين وتينيسي رغم علاقته التي أصبحت متينة مع محمد المرابط. مدّ شكري يده لزجاجة الويسكي فسبقته يد بوغالب وهو يقول مبتسماً: «هل تودّ أن أقوم أنا بهذا؟»، عادت يد شكري إلى السيجارة، وصبّ بوغالب نصف كأس أضاف إليها قليلا من الثلج. ثم أكمل شكري حديثه:

- الأمر لا يتعلّق بهم، بل بمستقبلنا. إنهم يلتهموننا كل يوم بنظراتهم ولغتهم وحركاتهم. كل لقاء مهم هو حفلة لالتهامنا. أطيبهم وأمهرهم وأكثرهم إنسانية هو ويليام بورّوز، لكنه مدمن. أنا

شخصياً منشغل بما يدور في رأسه، إنه مستعدّ لارتكاب جريمة قتل في أي لحظة. تعلّم، يا بوغالب، كيف تودعهم إلى الأبد. تعلّم هذا الأمر، إنه في غاية الأهمية. لقد استمعت لبولز زيادة على ما يلزم. وفي النهاية ماذا، أصبح هو من يستمع إلي، وإلى حياتي. إنه ماكر وتاجر أفكار خطير. ماذا فعل من أجل جين؟ قارن بينه وبين ابن بلده سكوت فيتجيرالد وما فعله من أجل زوجته «زيلدا» التي كانت تفقد عقلها في المصحات. ماذا فعل سكوت؟ بدأ يبحث عن مزيد من الوقت لكتابة الروايات وتحصيل المال من أجل علاج «زيلدا» في المستشفيات. كما كان يعمل على سيناريوهات الآخرين، هذا العمل هو الذي بدّد موهبته. كل ذلك من أجل «زيلدا». عد وقارنه مع بولز. قارن لتعرف حقيقته.

وقف شكري فجأة، ومشى ثم توقّف في منتصف الممر بعيداً عن نور المصباح الذي فوقه. ظهر منه لبوغالب ظلّه فقط. ظله النحيف المنعكس على الجدار. لا يعلم شكري بهيئته وهو واقف والكأس في يده. إنه يتوجّه نحو المطبخ لجلب الفستق. كان يقول ساخراً إن كلمة «فستق» تصلح اسما مستعاراً لمؤلف معارض.

***

ها هو بوغالب واقف بالخارج على الرصيف ينتظر مرور سيارة أجرة تنقله إلى بيته. لقد ترك شكري يجلس أمام مائدته وحده، لقد لمس لديه

توقـاً شديداً لقضاء بقية المساء وحده. لـم يأخذ منه كتابـاً أو مجلة، كلّ مـا حمله معه عبارة عن بعض الأفكار الحادّة، وكأس ويسكي واحدة، وقطعة جبن إسباني، وعشر حبّات فستق بقي يلهو بها بأصابعه مثل حبّات السبّحة. شكري يفضّل الجبنة الإسبانية على الفرنسية التي يعتبرها قذرةً، إذ كان يقربها من أنفه ثم يرميها، ويستغرب لقدرة بعض الناس على أكلها. من أين أتوا بتلك القدرة؟ لا بدّ أن تقضي عمرك في مزبلة حتى تستطيع أكل الجبنة الفرنسية النتنة.

بقي شكري جالسـاً في أريكته يكتب ويشرب الكأس تلو الأخرى. أعجبته فكرة العظام التي تأتي من القبر وتطرق بابه لاستخلاص أموال الإيجار ثم تعود لتتدفّأ داخل كفنها. في نفس تلك اللحظة كان بوغالب على الرصيف يتذكّر حديثه مع شكري، خصوصـاً حين أراد الاستشهاد بشاعر هولندي قرأه في الفترة الأخيرة فنهره قائلاً: «حين تريد الحديث عن هولندا، تحدث عن الرسم، هولندا بلد الرسّامين فقط». لاحظ بوغالب تدخلات شكري العديدة أثناء حديثه. شكري يفعل هذا حين تبدأ الخمرة تلعب بجهازه العصبي، لا يحتمل كلام الآخرين، لا يريد أن يسمع شيئـاً، وسيئ الحظ من يكون جليسه أثناءها. كم كانت خرقاء تدخلاته وبوغالب يتكلّم. لكنه بقي يلتمس منه التفهم بأسلوب متملّق، دون أن يتمكّن من تليينه. في هذه المنطقة ظل أصدقاؤه يستثمرون طاقتهم على التملّق والتماسك والتقرّب إليه. وقد بلغ التوتّر أشدّه حين اقترح بوغالب على

شكري ترتيب الكتب المكدّسة على الأرض. نظر إليه فشعر أن الكارثة تنظر إليه بعينين أثقلهما السكر، ثم صرخ صراخاً عنيفاً: «مكان تملؤه الكتب خيرٌ من مكان تملؤه مؤخرتك القذرة». بهذه الطريقة كان شكري يطرد صديقته ابتسام في منتصف الليل، بعد أن اتّفقا على قضاء الليل معاً، والسبب هو تدخلها في بعض شؤون بيته الداخلية: ترتيب المكتبة، تغيير التوابل، نقل المبرّد من مكانه، قراءة إهداءات بخطوط الكُتّاب على الكتب المهداة إليه مباشرة أو المرسلة إليه عبر البريد. ابتسام، التي لن أتحدّث عنها كثيراً في هذا السرد، طُردت أكثر من مرة، وأحياناً قبل ممارسة الجنس، لأنها تتدخل في شؤونه، أو حين تطلب منه المال بعد تدخين سيجارة محشوّة بالحشيش. ومرّة طردها حين بدأت تتفاخر بأقوال هي عبارة عن نصائح أدبية، هي في الأصل للشاعر الألماني «راينر ماريا ريكه» وجهّها لشاعر شاب ضمّنها كتابه الشهير «رسائل إلى شاعر شاب». بعد ذلك لم تعد ابتسام تهتم بأي شيء يكتبه أو يقوله شكري. وبقيت تنتظر موتها بعيداً عنه. لقد وصلت إلى حدّ لم يعد يهمّها شيء، رغم أنها شابّة في سنّ لابد أن يكون كلّ شيء مهمّاً بالنسبة إليها، لتبدأ رحلة البحث عن سرّ الحفاظ على الجمال خالداً. تتبدّل ألوان رحلة هذا البحث. فالباب الذي خرج منه الجمال، غادرت منه السعادة. الجمال صورة أسطورية يطارده الجميع، النساء قبل الرجال. بقيت ابتسام تراقب جمالها وهو يصعد، ويهبط، ينزلق أثناء الصعود من جديد، ثم يسقط

بتعب. هي تراقبه وحيدة، عاطلة ومتلهفة للشرب وتدخين الحشيش. كانت قامتها هي نفس قامة شكري، لذلك كانا يشعران بمتعة مختلفة عن رجل وامرأة واحدهما أطول قامة من الآخر.

هل تدرون بمَ كانا يشعران؟ إن الجواب عن هذا السؤال هو حلٌّ للغز سهل. إن قلبيهما يكونان في مستوى بعضهما، متقابلين، وكذلك عضواهما. التوازي يخلق ذكاء نوعياً في جسديهما. ذكاء حادّ وحساسية مفرطة. كل لمسة أو تماس هو خيط في نسيج رغبة سريعة، مثل شعلة سريعة الانطفاء، لكنها لاذعة مثل سوط. لم تعد ابتسام تقرب مكتبة شكري. وكان هو يلاحظ هذا العزوف باستغراب، هو نفس استغرابه من لهفتها على الحديث عن الكتب. ذات ليلة بقي فوقها يلهث لساعة كاملة، وهي شبه مخدّرة وعاجزة عن أي شيء، لا تستمتع ولا تقدر على دفعه من فوقها. ظلت عارية وهو يلهث ويبحث عن منطقة في جسدها تُلهبه. لاشيء، لا جدوى. هذا أمر حدث فعلا، فقد كان عبد اللطيف رفقتهما تلك الليلة. وابتداء من تلك النقطة بدأ عبد اللطيف يشفق عليه وعليها. أما هي فلا تستطيع التأكيد أو النفي، لأنها لا تذكر شيئاً من ذلك، لكنها لا تلغي وقوعه، فما يفعله شكري دوماً تجاريه فيه دون مقاومة. ولم تعد تذكر سوى الضرب برجليه على الحائط وهو يتأرجح فوقها، فلم تفعل شيئاً سوى إمساكه حتى لا يسقط من فوق الأرجوحة. كان فمه مبتلّاً

باللعاب، وفمها هي جافّاً. تلك رحلة مشتركة بين ابتسام وشكري ألِفاها معاً. فالمرء لا يستطيع شيئاً إزاء أمر ترسّخ وأصبح الأقوى.

ضحك عبد اللطيف في سرّه وهو يراقب كيف يتفاوض جسدان في الشتاء البارد، في الساعة الثالثة صباحاً. وفي النهاية بدآ البحث عن ملابسهما فوق الشمّاعة، فلم يجداها، فتسلّل عبد اللطيف في الظلمة والتقط الملابس من فوق الأرض ودسّها تحت السرير وهو يكتم ضحكة ستنفجر في النهاية. نهض شكري عارياً وهو يرتعش، وأشعل الضوء وشرع في البحث عن عبد اللطيف الذي تظاهر بالنوم في غرفة أخرى. ركله شكري، لكن عبد اللطيف انفجر في وجهه بالسبّ والشتمّ قبل أن يأخذ معطفه ويغادر. أما ابتسام المسكينة فصرخت بصوتها المقزّز، ثم صمتت وهي محبوسة الأنفاس. نامت وهي في مظهر امرأة ميّتة، أو منتحرة، داخل فستان شفّاف. الرغبة تقتل، الفزع من الأيام يقتل، الظلمة تقتل، اعتداء جسد على آخر أيضاً. توقفت قافلة جسدين تائهين وعاجزين كل العجز، حتى عن البكاء الشديد.

أطلّ شكري من النافذة حين سمع صراخاً وأصوات ركض واصطدام، فرأى حادثة اعتداء وسرقة في الزقاق الخلفي المظلم. ركض اللّص في أكثر من اتجاه بحثاً عن منفذ، لأن الزقاق كان مغلقاً في نهايته. ثم عاد وتخطى جسد ضحيته، وهو شاب في العشرينيات، واختفى في الظلمة الحالكة. بقي الشاب مستلقياً على الأرض ساكناً، قبل أن يتحرّك

ويستدير ثم ينهض ويمشي مترنّحاً وهو يشتم. وحين سمع صوت نافذة شكري وهي تُغلق التفت ونظر مليّاً ومشى مشية الذبيح.

بقي شكري يرتعدُ في مكانه وراء النافذة، فقد راوده الخوف من أن يكون الضحية هو عبد اللطيف الذي غادر بيته قبل نصف ساعة. أعاد تدقيق النظر فوجد أن هيئة الضحية تختلف تماماً عن هيئة عبد اللطيف، إضافة إلى أنه أصغر سنّاً. الزقاق مليء بالحفر، لذلك كان يتعثر ويسقط ثم يتدحرج إلى أن خرج للشارع المضاء جيّداً. وبدأ يمسح وجهه بيده وينظر إليها. ثمة دم يسيل من جرُح في الوجه. مثل هذه الأحداث ربّما تغيّر مسار حياة هذا المنحرف. عاد شكري إلى سريره ونام تاركاً ضوء الممر، لأنه فكّر في أن ابتسام ربما تريد أن تنهض إلى الحمام فتتعثر. أطلّ عليها وهي نائمة، رأى على وجهها تعبيراً قلقاً.

في اليوم التالي نهض شكري في وقت مبكر. أراد تفقّد ابتسام فلم يجدها. تركت وراءها عطراً جميلا وسيجارة مطفأة في المنفضة، وإبريقاً من القهوة. يذكر أنها قالت له إنها ستستيقظ في السادسة، لكن يبدو أنها لم تضبط المنبه على هذه الساعة، لأن القهوة ما زالت ساخنة، والعطر يملأ البيت، وشرارة في مقدّمة السيجارة ما زالت متوقّدة. لم تخرج إلا قبل خمس دقائق، أو أقل، الساعة تشير إلى الثامنة والنصف. بقي شكري فاغراً فاه وهو ينظر إلى سريرها الذي رتّبته قبل الانصراف. والعطر المنتشر في كل ركن من البيت دليل على أنها رشّته في كل مكان، لاشكّ

أنها شمّت رائحة كريهة، فالثَّلاجة مطفأة والأسماك بداخلها. تفقّدها فزكمت أنفه رائحة نتِنة ما أن فتح الباب نصف فتحة. رمى السمك في كيس القُمامة مع السلّة البلاستيكية التي كانت تضمّه، وحمله إلى صندوق القمامة الكبير أمام باب العمارة. عاد وهو يتسلّق الأدراج خوفاً من أن يشاهده أحد جيرانه، فالرائحة المدوّخة انتشرت بسرعة. لم يستطع حتى تفقّد صندوق بريده، فمنذ أيام لم يفتحه.

***

الكلّ يريد أن يسألك يا محمد شكري وقد رأى السنين بدأت تؤثّر في تكوينك، في جسدك، في نظرتك، في لغتك. لماذا تغيّرت لغتك؟ إن أسئلتهم غير ذات نفعٍ. فأنت مصمّمٌ في السّر على عدم الحديث في هذه الأمور، لأنها قريبة من الفلسفة. وأنت أديب كلّما كان سيئاً كان ناجحاً ومدهشاً. وكلّ ما بدأت تقوم به وبأناقة متناهية هو استقبال نقّادك ومترجميك إلى كل اللغات أحسن ما يكون الاستقبال. عندها تصبح شخصاً رائعاً حقّاً، لكن ذلك لا ينفي عنك أنك شخص غريب. وكل من التقى بك يقتنع أنه لم يرَ من قبل شخصاً مثلك. ويلاحظ حالات حزنك الكثيرة حين تجلس برأس خفيض، والسيجارة تحترق بين أصبعيك، وحين تسقط تظلّ هناك على الأرض دون أن ترفعها من جديد إلى شفتيك. كان ذلك يؤلمني حقّاً، فأنت شخص منذ سنوات بدأت تتمرّن على أن تُبدي رقّة أمام زوارك الأجانب، وتحاول أن تظلّ متمالكاً

نفسك أمامهم، إلى أن يذهبوا فتنهار من جديد. بدأت تشتاق إلى انهيارك الذاتي. كأنه إدمانٌ تعود إليه بعد إقلاع لا يدوم طويلا. فهل هذه التغيّرات البسيطة هي ما وهبك حياة جديدة ومتجدّدة؟ لا تنكر، إنك تتحدّث عن هذا السرّ في الأمسيات الدّافئة. قليلون هم من يثيرهم حديثك، لأن الأكثرية يعتقدون أن حياتك كتابٌ مفتوح قرؤوه مرّات ومرّات. وأنا أوّل من يعرف أنك فتحت كتابك على الجزء الغامض من حياتك، أما الجزء الواضح، المليء بالضوء، فإنك تردّده على نفسك حين تضع رأسك على الوسادة. إنك تعرف كل شيء عن كل الناس الذين يحيطون بك، لكنهم لا يعرفون عنك إلا ما كتبته لهم، ما اخترت تقديمه لهم أنت، وبكامل إرادتك. إني أشفق عليهم حقّاً. «يرونك قادماً، تراهم قادمين». وقبل أن تُشرق شمس يوم جديد، تقدّم لهم حكاية جديدة من اختيارك أنت، مستعملا غِربالك السحري الذي أوكلت له مهمة فرز الكلمات والمعاني. إنك تبحث عن المعنى الضائع منك دوماً. قل لهم إذن إنك، مثلهم، في رحلة بحث شاقّة عن المعنى لتنهي شقاءهم. لا أقول إنهم مغفّلون، لكني أسمّيهم «أَسْراكَ». ضوءٌ قليلٌ منك ويتّضح كل شيء. تأكّد من هذا الأمر: إنك إن ذهبت أبعد فإنهم سيتبعونك. حتى المترجمون الخائنون، المرتعدون أمام غموض النصوص، سيتبعونك بطواعية وهم يلهثون وراء آثارك. قل لهم شيئاً وسيكون نافعاً. أم أنّك ترى أن هذا العماء هو الأكثر

نفعـاً؟ قُل لي شيئـًا أنا وسأُكلّف نفسي بمهمّة نقله إليهم بالأمانة المطلوبة بين ساردٍ وشخصيةٍ روائية.

قُلْ شيئًا، لقد بدأتُ أرى أموراً كثيرة بعيون غريبة. وإلا فإني سأخترق الجدار، وانطح برأسي كلّ شيء أمامي. حتى تنهار الحكاية كاملة وأعيد بناءها من جديد. إني متردّدٌ كثيراً نظراً لدقّة الموضوع. أعرف أنني أمام قوتك مجرد قنطرة ضعيفة بينك وبين قُرّائك، بينهم وبين حياتك، بل بينك وبين حياتك أنت. بينك وبين حياتك توجد هوّة أنا واقفٌ عليها أُشرفُ على تباعدكما مع مرور الأيام وتراكم الأخطاء. ألم تقل بلسانك إن زمننا هو «زمن الأخطاء» المستمرّة؟ والخطير في الأخطاء أنها تُتَوارث من جيل إلى جيل. هل تريد لأبنائنا أن يتوارثوا أخطاء آبائهم؟ لا، أنت شخصٌ بعيدٌ عن هذا الظّن. لكن كلّمني رجاء، كلّم قنطرتك.

بقيتُ أكلّمه كلّ ليلة، وكان يُسمع منّي صوتـًا مثل الأنين. أجلس أنتظر سماع قول منه في هذا الضوء المختال بغرفته. وفي مرّات عديدة كنت أدخل البيت ولا أجده، فأبقى كالشّبح جالسـًا على الكرسي الذي في المدخل أنتظر سماع وقع أقدامه على الأدراج. أنحّي ستارة الساتان لأدع أضواء بضعة أعمدة كهرباء في الخارج التي تضيء الزقاق بمصابيح شبه منتهية. أنتظر نجاحي في أن أفاوضه حول تغيير مسار سردنا، وانتزاع موافقته على حذف الشتم والقذف والكلمات السيئة التي لا تليق به ككاتب مشهور. لكنه كان يعود باديـًا عليه التّعب الشديد من شدّة الشرب

والشجار في الحانات المُريبة. أناديه: يا سي محمد.. يا سي محمد.. لكن لا تصدر عنه سوى حركة من يده ربّما ترمز إلى تحيّة لطيفة. ثم يجلس إلى مائدة الأكل ويتناول تفّاحة تسقط من يده، فينحني بصعوبة لالتقاطها وهي تتدحرج أماه مثل الكرة، وهو يتبعها مثل طفل يكاد يسقط وهو يطارد لعبته العنيدة الهاربة منه. وحين تصل يده إليها يذهب إلى المطبخ ليغسلها، وهو عائدٌ للجلوس على المائدة تسقط منه من جديد فيركلها برجله حتى تصطدم بالجدار أو بزجاج النافذة وهو يشتم كأنه يشتم كائناً عاقلا. يتناول شيئًا آخر يأكله ويزدريه ازدراءً، وهو صامتٌ وجامدٌ لا يتحرّك ولا يلتفت. فما يكون عليّ سوى فتح الباب وأنا أتجرّع هزيمتي، ثم أهبط السُلّم وأنا أطلب الله أن يساعدني في إتمام مهمتي مع هذا الرجل الغريب.

حين أقوم بمراجعة ما جرى، أجد أن إمكانياتي محدودة جدّاً أمام هذه الشخصية المزدوجة، فلا هي من الواقع بشكل كامل، ولا هي من الورق بشكل كامل. أظنّ بل أنا متأكدٌ أنه يفعل كل شيء بشكل مقصود حتى لا أذهب بالسرد إلى الوجهة التي أريد. إنه يشعر بوجودي معه، خلفه، أمامه، أراقبه من بعيد ومن قريب. لكنه يفعل كما لو أنه لا يرى شيئًا ولا يُحسّ بشيء. ينتظر أفعالي التي يتوقّعها دومًا، بل ويتوقّع أسوأها، فيكون قد هيّأ لها وسائل الدفاع أو الهجوم الممكنة. لذلك، عزيزي القارئ، أنا مضطر لتغيير خطتي السردية، وأدعوك لعدم الاكتراث بالمفاجآت. إن كلّ

شيء سأقوم به سيكون بحسن نيّة فائقة، لصالح السرد وبهدف إمتاعك وإفادتك، وجعلك تحسّ بأقصى درجات الجمال الذي يمكن أن تقدّمه الحكايات.

سأترك محمد شكري الآن، وأعود إلى ويليام بوروز الذي تركته في غرفته يكتب رسالة شيّقة ومبدعة لصديقه ألان غينزبورغ. لم يفعل معي ويليام أو يوي تشين ما قام به شكري. بل لقد لاحظت، عزيزي القارئ، إن حتى الأبتر، الذي يلقّبه بوروز بـ«بليز»، لم يحرّك ساكنًا أمام كلماتي وأوصافي التي أضفيتها عليه أو على صديقه «الصامت المنافق». وحتى الألماني وزوجته لم يتدخّلا في قيّادتي للأحداث. لكن شكري قام بما لم يقم به مائة رجل. فأنا سيّد الحكي والكلمات أجد نفسي ضعيفًا، بل وأظهرت له ضعفي وأنا صاغرٌ، ووصفت نفسي بـ«القنطرة الهشّة». لكن رغم ذلك، فإن سألتني عن رأيي فيه لما عرفتُ. أمرٌ طبيعيٌّ ألا يشبه باقي الشخصيات، هذا أمر أنا مقتنعٌ به، بل ومفيدٌ لسردي، لكن أن يطمح في أن يصبح سيّد السرد الأول، فهذا ما أرفضه بشدّة. وربّما لولا الخجل لطلب مني هذا الطلب الغريب في أقلّ الكلمات الممكنة. إنه شخصٌ حادٌّ وحاسمٌ. لقد أصبح يرى كلّ شيء بعيون غريبة. ولم يعد يُصدر التعليقات كما كان من قبل. لم يعد حتى يطرح الأسئلة أمام الأشياء الغامضة، بل أصبح يرغمها على أن تصبح واضحة. وحتى إن طرح الأسئلة فإني لم أعد أسمع إجاباته على تلك الأسئلة، بل يختزن إجاباته لنفسه. هذا شأنه

طبعـاً. إنـه يحيـا في نطـاق نفسـه، ولا دخـل لـي بـه في هـذه الحـدود، التـي يحـرص علـى إظهارهـا كحـدود لا ينبغـي لأحـد اجتيازهـا. مـن أتـى بهـذه الطّباع؟ من معاشرته الطويلة لبول بولز؟ أم لجان جونيـه؟ لكـن لمـاذا لـم يتطبّع بالطّباع المنفتحة لجين بولز أو لتينيسي ويليـامز؟ بـل لمـاذا لا يُبقـي على نفسه كما هـي، نفـس محمـد شـكري المعذّبـة، الشـراع الـذي مزّقتـه الرياح وخاطته المياه؟

في تلـك الليلـة، وقبـل الانتقـال إلـى سـرد أشـياء تتعلّـق بحيـاة بـوروز وبالأحـداث المتعلّقـة بهـا، جلسـت صـامتـاً بعـد العشـاء. لا أزعـم أننـي تناولت شيئاً، فقط اكتفيت بالنظر للأكـل الـذي أمـامي، علـى هيئـة حـائرٍ، وأنا أسترجع نظرة شكري إليّ وأنا جالس على المقعـد الـذي في المـدخل كما ينظر الناس إلى الأشباح. لقـد حـوّلني شـكري إلـى أشـياء لـم أتخيّـل يومـاً أنني سأتحوّل إليها، ولـو تخيّلتهـا فعـلاً لَمَـا مارسـتُ مهمتـي كسـارد ولو لدقيقة واحدة. لقد تحوّل شكري فجأة إلى ساديّ يُرغم النـاس علـى تقمّـص هيئـاتٍ يكرهونهـا منـذ ولادتهـم، ويجلـس هـو يـراقبهم عـن بعـدٍ ورائحة الخمر والسجائر تفوح منه، كأنّه مُبلّـلٌ بـالخمر ومُحـاطٌ بهالـة مـن دخّان التبغ. هل تدرك معنى ذلـك عزيـزي القـارئ؟ معنـاه أننـي لـن أنطـق أمام حضرتك منذ الآن إلا بكلمات التعاسـة، بعـدما كنـت أنطـق بكلمـات الفرح مع ويليام بوروز. هذا الشخص الذي أراه دومـاً مضـطرباً لكننـي لـم أجد به مرضـاً. إن اضطرابه بادٍ الآن بقوّة وهو يكتب رسالة لألن غينزبورغ

كما أخبر الفتاة الصينية يوي تشين. يضع قربه علبة سجائر وكأس ويسكي ممتلئةً مع قطع من الثلج والليمون.

حين اقتربت وتفرّست وجهه جيّداً وجدته يكتب الكلمة ويبتسم لها. سواد معطفه وقميصه وقبعته أبرز هُزال وجهه. بدا لي نحيفًا جدّاً وشاحبًا. خطوطٌ محفورة في أسفل خدّيه، هي الخطوط نفسها المحفورة على وجوه الموتى والمحتضِرين. اهتزّ قلبي لحاله. يكتب الكلمة، الجملة، ثم يتوقف ويدخن، ثم يشرب ويمسح على وجهه بيده فيخرج الدخان من أنفه أبيض وكثيفًا. يتنفّس بعمق ثم يعود لورقته ويكتب. هل يكتب رواية أم رسالة؟ أم أنه يكتب رسالة كما لو أنه يكتب رواية. فأنا أعرف هيئة كاتب الرواية وهيئة كاتب الرسالة. هيئتان مختلفتان تمامًا. لكن ويليام كان يتّخذ الهيئتين معًا. لا يتّخذهما بالتناوب، بل في وقت واحد، نسيج متداخل الخيوط تُراعى فيه جودة الكلمة، ودقّة الوصف، وقوة الفكرة، ونظام الحبكة. لا شكّ أن غينزبورغ ينتظر رسائله، إنه قارئها الوحيد، وهو قارئ عظيم، لذلك كان الناس جميعًا سيقرؤونها. وكلّما فكّر ويليام بأن غينزبورغ ينتظر رسالته زادت حيرته، واضطربت خطوطه. نهض ومشى بقلق داخل الغرفة. فجأة سمع طرقة خفيفة على الباب، وحين فتح وجد أمامه يوي تشين، رحّب بها ودعاها للدخول دون أن تظهر عليه آثار المفاجأة، تصرّف كأنه كان ينتظرها. دعاها إلى الجلوس

وهو يمدّ لها وسادة صغير محشوة بالقطن تشبه اللعبة بألوانها الوردية والرسومات البارزة عليها. ابتسمت يوي وقالت:

- تشبه وسادتي حين كنت طفلة.

ضحك بوروز وأطفأ سيجارته وصبّ كأساً له وأخرى ليوي. أخرجت هي زجاجة ويسكي وكيساً من الفستق وتُفّاحتين من حقيبة صغيرة مصنوعة من الثوب تحملها على كتفها. لم تبق في فم ويليام أسنانٌ كثيرة فكيف كيف يأكل فاكهة التفاح؟ بدت يوي أصغر سِناً من ذي قبل. أصعب جنس يمكن تحديد سن أفراده الفعلي هم الصينيون. لاحظْ يا عزيزي القارئ كيف يشيخ الأمريكيون والفرنسيون والعرب والألمان بسرعة. الحانات يا عزيزي، الحانات. فحيث وُجدت الحانات بكثرة شاخ الناس قبل الأوان.

أخرج ويليام سكيناً صغيرة وقطّع التفاحة إلى قطع صغيرة، ناول إحداها إلى يوي ورفعا نخبهما. أما هو فبقي خائفاً من أن تراه يوي كيف يمضغ التفاح. يظهر كأنه يلوك أحجار وادٍ صغيرة وملساء. ينقلها من حنك إلى حنك، وفي النهاية يلفظها تحت الطاولة في غفلة منها. لا تنقصه الحيل وطرق المجاملات في مواقف مثل هذه. من الممكن أن تكون يوي قد لاحظت طريقة مضغه للتفاح، فهي لم ترفع عينيها عنه لحظة واحدة، لكنها كي لا تُحرجه كانت تُدير رأسها مفتعلة أنها تتفحّص غرفته وأشياءه. لم تكن أشياء كثيرة، فويليام مسافر محترف لا يحمل معه حقيبة ممتلئة.

كل أشيائه وأغراضه تتلخص في مجموعة كتب ومعطف وقُمصان وحذاء رياضي، وقبّعة، وآلة كاتبة أمريكية الصنع. وهذه الأشياء كلها متفرقة، منها المعلّق ومنها المتروك على المقعد والطاولة والكرسي، وتفيض بالصمت.

كانت يوي تترك دوماً مبادرة الكلام لويليام. وقد راقها أنها تفهم إنجليزيته البطيئة بوضوح، فهو يتحدّث ببطء مثل أستاذ يعلّم اللغة لطلّاب صغار. لغته راقية ومليئة بالتلميحات والاستعارات والشاعرية. لا يُرفق نُطقه بحركات من يده كما يفعل معظم الأمريكيين. الكلمات فقط قادرة على أداء معناها. لقد رأت يوي جمال اللغة وهي تلقي بثمارها في كل مكان وتُسعد المستمع إليها. لغة مُلئت بأجمل الصيغ والصور والأفكار. لم تستطع يوي أن تصدّق أن شخصاً يتحدّث هكذا طوال الوقت. لم يسبق أن تخيّلت وجود طريقة كلام كهذه. استمعت لكثيرين، لكن ويليام متكلّم مختلف. لا يتكلّف أثناء كلامه، لكن الكلام يخرج غريباً ومليئاً بالألوان كأنها لوحة تنقل مناظر ساحرة. لم تشرب من كأسها سوى جرعة واحدة أو جرعتين. لم تستطع النُّطق بكلمة واحدة كأن فمها قد مُلِء فجأة بالقُطن. لا تشرب ولا تتكلّم فقط تنظر وتستمع لهذا الرجل الذكي الذي يكاد يعرف كلّ شيء. ومعرفة كل شيء لا تعني الحديث في كل شيء، في كل المواضيع، لا، لا، هذه اسمها ثرثرة صادرة عن غباء فظيع. إن معرفة

كل شيء تعني في حالة ويليام أنه يتجاوز عتبة الشيء إلى داخله فتبدأ المقابسات تشعُّ في المحيط الضيّق وتُضيء كل شيء فيه.

تجري في شرايين ويليام ويوي دماء مختلفة. لذلك نزعت يوي القطن من فمها وتكلّمت بصوت صارم:

- سيّد ويليام، أنا لا أحتمل حبسي هنا داخل هذه الغرفة الضيّقة. ما رأيك أن نعود إلى الحانة.

كان ويليام يُنهي رسالته إلى غينزبورغ، فقال دون أن يرفع عينيه إليها:

- طيب، اذهبي أنت الآن يا يوي، وسألحق بك بعد وضع خاتمة لرسالتي.

تردّدت يوي قبل الانصراف. فقد ظنّت أن ويليام سيجمع أوراقه وينهض ليذهبا معاً. لكنها في النهاية نهضت وقالت له: «أراك بعد قليل يا ويليام، لا تتأخّر».

اجتازت الباب بخُطى واسعة، بدت غاضبة بعض الشيء وحزينة. ظنّت أنه لن يلحق بها. مشيتها البطيئة تقول إنها نادمة عن قرار الانصراف. كان يمكنها البقاء معه حتى ينهي رسالته، أو لعلها رواية يكتبها، ثمّ ينصرفا معاً نحو حانة السفينة، يداً في يدٍ.

حين وصلت وجدت المكان مليئاً بالناس، ومساعدها اليوناني ينتقل بين الموائد يسجّل الطلبات ويضع أخرى أمام أصحابها. حين رآها انفرجت أساريره، فسألها أين غابت كل هذه المدّة. لم تجب عن سؤاله.

توجّهت مباشرة وجلست على مقعدها وراء الكونتوار. وضع المساعد كؤوساً وصُحوناً فارغة وهو ينظر إلى غيوم الحزن على وجهها. وحين رفعت رأسها نحو الباب رأت ويليام يتوجّه نحوها فابتسمت بطريقة أسرت قلبه، فجلس على الكرسي وهو ينظر إلى عينيها، دون أن يقرأ فيهما حرفاً واحداً من الكلام الغاضب الذي كانت تودّ قوله له. وحين سألته عما يرد شربه أحسّت أنها وفت بواجبها تجاهه. لكنه طلب كأس ماء فقط. غابت نصف ساعة وعادت بصحن سلطة وفاكهة وقنينة ماء حجم لتر واحد. تبادل ويليام كلمات قليلة مع هذه الغريبة التي لم يمرّ على تعرّفه عليها نصف يوم. بقيت تتحرّك وراء الكونتوار بخطى خفيفة دون أن يُسمع صوت لخطواتها، فقد كانت تلبس في رجليها حذاء من القطيفة السوداء.

❋ ❋ ❋

تينيسي وليامز في طنجة

ماذا يريدون من طنجة هؤلاء المستبعدون من بلدانهم؟ هل هي تريد منهم شيئًا؟ ماذا يجدون في أمكنتها وأزمنتها المختلفة والمتعاقبة؟ ماذا يوجد في ليلها؟ في مقاهيها ومطاعمها وأنديتها؟ ماذا تريدون منها أيها الغرباء المجانين؟ إن كلّ مستبعد يجد فيها أكياسًا ليفرغ فيها كراهيته الشديدة للمدن الكبرى وناسها المضطربين في يقظتهم وأحلامهم.

وصل تينيسي ويليامز قبل ويليام بورّز إلى طنجة. وحين التقى بول بولز لم يخبره عن وُشوك موعد وصول ويليام. إنه على المياه القريبة يلهو. لقد درّب نفسه على أن يلهو كما لو أنه طفل. واليوم الذي يمرّ دون أن يلهو فيه هو يوم داكن وحزين، ترى فيه ويليام يسند يده إلى جبهته ويتذكّر الأشعار الحزينة. كان قد كتب منذ أسابيع رسالة إلى تينيسي يخبره فيها عن خارطة أسفاره القادمة إذا توفّر المال لذلك. هذه العبارة الشرطية الأخيرة لم تجعل تينيسي يصدّق أن ويليام سيفشل في الحصول على المبلغ الذي يريد. عليه فقط أن يحدّد المبلغ ثم بعد ذلك تُفتح حقائب أصدقائه في كل العالم ليبعثوه إليه. وإن الجواب عن سؤال طرحه بول: قل شيئًا عن ويليام يا تينيسي؟ يكون صعبًا ومراوغًا. محمد شكري أيضًا طرح نفس السؤال على تينيسي. وكان محمد المرابط

سيطرحه لولا أن نوعاً من الكراهية نشأ بينهما بشكل مباغت في فترة قليلة قبل رحيل ويليام، ولا أحد عرف إلى أين.

لماذا لم يقل تينيسي لبول إن ويليام ينتشي في سفينة على مياه قريبة منه؟ لأن تينيسي ظنّ أن هذا الخبر قد لا يسرُّ بول. فقرّر الصّمت رغم أن بول سأله عنه عدّة مرات وعن المكان الذي يمكن أن يوجد فيه الآن. فكان تينيسي يقول في سرّه: «اطمئن إنه على متن سفينة ستصل اليوم أو غداً. » عرف تينيسي كل أخبار ويليام من غينتزبورغ الذي كان يتابع أخباره كما لو أنه ابنه الطائش، بالإضافة إلى الرسائل والأخبار المتفرّقة التي تحملها الرياح من كل مكان إلى أي مكان.

لكن محمد شكري، وأنا شخصياً لا أعرف بأي طريقة، نقّب جيّداً عن أخباره وعرف أنه قادم إلى طنجة. فأخبر بول بولز ذات ليلة. لم يكن يُفشي سرّاً أو يبلّغ عن ويليام الذي يسأل عنه الجميع، بل كان شبه سكران فتدفّق منه الكلام أمام الشخص الذي لا ينبغي أن يتدفّق مثل هذا الكلام أمامه. سقطت أوراق كان يمسكها بول بين يديه على الأرض وتفرّقت، كانت تضمّ ألحاناً لمسرحية ستُعرض قريبا في بعض مسارح المدن الكبرى بأمريكا. سقطت الأوراق وتبعها بول ملهوفاً يلتقطها واحدة تلو الأخرى. ولما استوى جالساً على المقعد أعاد طرح السؤال على شكري:

- أأنت متأكّد يا محمد ممّا تقول؟

أجاب شكري وهو يشعل سيجارته:

- نعم، سيصل ويليام إلى طنجة خلال يومين.

سأله بول وهو مستغرب:

- ومن أين لك بهذا الخبر الذي لا أعرف كيف أصفه، بالجيّد أم السيئ؟

رشف شكري من كأسه جرعة كبيرة، ثم أجاب وهو يدغم كلماته:

- تينيسي هو من أخبرني.

وضع بول الأوراق على طاولة صغيرة جنبه، ثم سأله:

- لقد سألت تينيسي لكنه أنكر معرفته بأي خبر عن ويليام.

ابتسم شكري ابتسامة خبيثة وهو يحني رأسه مدركاً حجم الورطة التي أوقع فيها تينيسي. ولم يعرف كيف يصحّح الأمر في الحال. لكن الخمرة لعبت بعقله ولسانه، فنقصته الحيلة. بقيّ ينقّب عن الكلمات الجيّدة لإصلاح ما ارتكبه. فكّر في موقف تينيسي أمام بول حين يتواجهان أمام هذه المسألة التي أصبحت شائكة رغم بساطتها. نهض شكري من مكانه واستأذن بول في فتح النافذة، فالجو حارّ ورائحة السجائر أصبحت خانقة، ثم عاد إلى مكانه وصوّب نظره جيّداً نحو عيني بول:

- اسمعني جيّداً يا بول. أنت أقرضت ويليام مبلغاً كبيراً من المال، وتريد الآن استرجاعه. تينيسي يعلم بذلك. وقد قال لي بأنه سينتظر حتى يصل ويليام إلى طنجة. وهو، أي ويليام، في حالة مزرية، وأنا

شخصياً لا أعرف ما السبب. وأكّد لي تينيسي أنه سيعطيه نصف المبلغ ليسلّمه إليك وتحت إشرافه شخصياً. لهذا السّبب لم يخبرك تينيسي. إن الأموال التي سيسلمها إليك ويليام هي في الحقيقة أموال تينيسي.

ابتسم بول، تراجع إلى الخلف وهو يُعيد حمل أوراق ألحانه بين يديه:

- هكذا إذن، لننتظر ونرَ. صُبَّ لي كأساً. ها هي الأخبار السيئة تصبح جيّدة. نخبك يا محمد. أنت ساحرٌ حقّاً.

كان بول يسأل عن ويليام طمعاً في استرجاع المال الذي اقترضه منه ولم يتمكّن من إرجاعه منذ سنتين. فكان كلما التقى به يقول له: الشهر القادم تعود إليك أموالك أيها البخيل. وكان بول ينتظر الأشهر القادمة دون أن يتوصّل بشيء. ربّما لهذا السّبب كان تينيسي يرفض التصريح أمام بول بأي خبر أو معلومة عن ويليام. لكن الآن اتضّح بالملموس أن بول رجل طيب، ولا يريد شيئاً من ويليام سوى أن يُرجع له أمواله. وها هو بول يفرح بنصف المبلغ فقط.

قبل أن ينهض شكري ويعود إلى بيته أو إلى حاناته، أخذ وعداً من بول بعدم قول ما سمعه منه لتينيسي، فربّما قد تفشل خطة الوساطة التي يريد أن يباشرها. سيغضب تينيسي ويقطع علاقته بشكري، وربما حتى ببول، وبالتالي سيضيع المال. بهذه الحجّة تمكّن شكري من إقناع بول بنسيان ما سمعه منه قبل قليل.

كان شكري يلبس حذاء بكعب خشبي، لذلك بقي وقعُ خطواته مسموعـاً إلى أن اختفى تماماً، فأدرك بول أنه أصبح بعيداً عن الحي، وأنه ربّما تجاوز الشارع الذي يصبح خالياً من المارّة في مثل هذه الساعة. بقي يسير وهو يفكّر في أمر إفشائه لسرّ كان بينه وبين تينيسي. لكنه ظلّ مطمئنّاً بأن بول لن يُخبر تينيسي بالأمر، ليس بدافع الوفاء لوعدٍ قطعه أمامه بل لأن مفاتحة تينيسي بالأمر سيُفشل عملية استرجاعه لجزء من ماله الذي ينتظره منذ أكثر من سنة ونصف. وهذا لا يعني أن بول لا يفي بالوعود، بل هو، في رأي شكري، رجل يقف ملتزماً أمام وعوده مهما حصل. وذلك يذكّره بمواعيد تسليمه المال الذي كان يتحصَّلُه مقابل ترجمته لفصول من رواية «الخبز الحافي» التي كان ينشرها بمجلاتٍ أمريكيةٍ ذائعة الصّيت. كان المترجم يحصل على حقّه، والمؤلّف أيضاً. لم يعش شكري تجربة الوفاء هذه من قبل إلا مع بول بولز. بل لم يكن يعرف أن مثل هذا الوفاء للمبادئ موجود لدى الإنسان أصلا.

فتح شكري حقيبته الجلدية الصغيرة وتأكّد من وجود سيجار أخذه من علبة بولز التي كانت موضوعة على المائدة. أخرجه ومرّره تحت أنفه ثم أعاده ببطء إلى قاع الحقيبة. وِجْهَتُه الآن هي حانة «البريد». هناك سيدخّن السيجار ويشرب ألذّ الكؤوس. كما قرّر أن يتعامل بترفّع مع كل من يحاول التقرّب منه أو الحديث معه. إنه قادم من سهرة مع أكبر أدباء

أمريكا والعالم، وعليه أن يحافظ على هذه المرتبة، لا أن يلوّث قيمته هذه في التراب مع أرخص السُّكارى وأبشعهم وأدناهم مرتبة.

وجد كرسياً فارغاً أمام الكونتوار في الزاوية، جلس ووضع حقيبته جنبه وطلب زجاجة نبيذ. لم تمرّ عشر دقائق حتى دخل عبد اللطيف في هيئة من له أخبار يريد إيصالها له. رحّب شكري بصديقه ودعاه إلى تناول كأس معه. لكن عبد اللطيف بادره بالقول:

- ليس هناك مجال للشرب. إن محمد تيمد[1] يحتضر ويلزمه الدّواء، لو تساعده بقليل من المال.

انتفض شكري في وجه عبد اللطيف مثل العاصفة:

- العبها بعيداً عني. أنت بدون شكّ تعلم أنني قادم من بيت بول بولز، وتعتقد أنني أخذت أموالاً منه. اغرب عن وجهي الآن.

مدّ عبد اللطيف وصفة الدواء لشكري:

- خذْ، هذه وصفة الدواء، اشتره بنفسك من صيدلية الحراسة.

أدار شكري ظهره لعبد اللطيف:

- ألم تجد غير هذه الحيلة الرخيصة لأخذ المال منّي. أغرب عن وجهي يا عبد اللطيف.

خرج عبد اللطيف دون أن يقول شيئاً، فلا فائدة في محاولة إقناعه. لم يكن يعلم أنه قادم من بيت بولز. في آخر لقاء جمع بين عبد اللطيف

(1) محمد تيمد مسرحي مغربي كان من أصدقاء شكري.

وشكري، عبّر فيه هذا الأخير عن عزمه فكّ أي ارتباط ببولز. مضيفاً أن جين رحمها الله هي من كانت تلحّ عليه من أجل أن يزورهما. لكن بعد موت جين لم يعد أي مبرّر لزيارة بول. ماذا سيفعل من أجله أيضاً بعد ترجمة «الخبز الحافي» إلى الإنجليزية. حتى كؤوس الشراب يقدّمها له ببخل شديد.

أخرج شكري السيجار من محفظته وبدأ يدخّن، وشعاره الترفّع على التعساء الموجودين في الحانة. الجميع ينظر إليه، بعد أن تابعوا طريقة تصرّفه مع عبد اللطيف صديقه المقرّب. لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه. بقي يفكّر، ماذا لو كان محمد تيمد يحتاج إلى الدّواء فعلا؟ لقد سمع عن مرضه قبل أسبوعين من ابنته التي التقى بها صدفة وهي خارجة من صيدلية قريبة من مقهى فرنسا، إذ كان ذاهباً للقاء بصمويل بيكيت في الساعات الأولى من ذلك الصباح. كانت حزينة وشاحبة، أخبرته حينها عن مرض والدها دون التشديد على حالته التي كانت تسوء يوماً بعد آخر. ذُهل لمنظرها الحزين، لكنه لم يجرؤ على طرح مزيد من الأسئلة عن وضعيته، كانت هي مستعجلة، وكان هو مستعجلا كذلك، فاكتفى بأن طلب منها تبليغه السلام. ثم توجّهت هي إلى الوالد المريض، فيما شقّ هو طريقه نحو بيكيت الذي كان جالساً وحيداً في زاوية من المقهى.

لو يعود عبد اللطيف ويأخذ ما يريد من المال لشراء الأدوية لمحمد. ما كان يجب أن يشكّ في كلامه أبداً. ما كان يجب أن يبقى مغربياً إلى

الأبد، يرتاب في أقوال الناس، وخصوصـاً في ما يتعلّق بالمال. ماذا كان سيخسر لو مدّ له خمسمائة درهم مساهمة منه في شراء الأدوية لصديقه المريض الذي لا أمل في شفائه؟

بقي شكري يشرب ويدخّن وهو يفترس نفسه دون رحمة. افترس نفسه ما فيه الكفاية، حتى تأكّد أنها لن تعود لفعل شيء مثل هذا. لن يدعها تفعل شيئاً مماثلا منذ اليوم. شعر أنه بدأ يُشفى من الندم القاتل، ثم عاد إلى انتشائه، عاد إلى استنشاق دخان السجائر، وسماع القهقهات العالية، والكلام الرخيص الذي يُقال بأصوات خافتة. كل هذا الضجيج، من ضحك مزيّف وكلام مسترسل، ما هو في النهاية إلا حول موضوعات أقل سموّاً من الموضوعات التي يفكّر فيها هو، إنها طاحونة صاخبة تقوم بسحق الموضوعات اليومية العارضة، كارتفاع الأسعار، واقتراب موعد العيد، وانتصار فريق كرة قدم على آخر، وتهريب المخدّرات، وسرقة المال العام... إلخ. وأمام ضجيج الطاحونة الصاخبة هذه يطلّ حارس الحانة برأسه من الخارج ليُشعر الضاحكين والمتحدّثين بحضوره. وأحياناً يرافق وافداً جديداً إلى الكونتوار ليهيئ له مقعداً طمعاً في بعض الدراهم حين يهمّ بالمغادرة. لكن الوافد يكتفي بابتسامة صغيرة وقول رصين: شكراً. فيعود الحارس إلى مقعده بالخارج أمام الباب، وهو يظنّ أنه ضمن خمسة دراهم على الأقل من هذا الرجل الرصين والمهذّب.

عاد شكري إلى سيجاره وكأسه، وهو يحاول أن يستبعد من ذهنه أن يرحل محمد تيمد عن الدنيا في الأيام القريبة القادمة. تغيّرت ملامحه وتلاشت حيويته وحركاته. بدا مرتخياً بعض الشيء، وبين حين وآخر يمسح شفتيه بأصابعه. كانتا تبدوان نحيلتين ويابستين. ثم بدأ يتّخذ صورة رجل مكتئب صامت. لكنه حين عاد للنظر حوله عاد إليه ترفّعه القديم. وحين سمع سكّيراً يقول لآخر مدّ له قنينة بيرة: «ضعها في مؤخرتك»، تكوّر على نفسه من الضحك. يجب أن يحرص على أن يبقى الرجل الأول في الحانة. وذلك يتطلّب عدم التفكير أبداً في الرجل المريض الذي سيرحل قريباً.

لم يستطع النظر إلى ساعته. فالوقت يمضي منساباً، والأيام تمضي مسرعة. يوم واحد وتصل سفينة يونانية تحمل كاتباً اسمه ويليام بوروز. ليس لديه الآن أي قول أو فكرة عن وصول هذا الرجل. كما أنه لا يستطيع أن يعبّر في كلمات عن تخوّفه من هذا الشيء وشيك الوقوع. من المؤكّد أن النسيج الأمريكي سيتمزّق بعد وصوله مباشرة. أما إذا أعطى تينيسي المال لويليام من أجل أن يعيده لبولز، وإذا لم يُفشِ بولز الكلام الذي قاله شكري له عن عِلم تينيسي بوصول ويليام، فإن النسيج الأمريكي سيبقى سليماً من أي تمزّق. لينتظر شكري ما ستُسفر عنه الأيام القادمة، فلا شكّ أنها، كعادتها، تخبّئ للخلق، أشياء ثمينة مثل الهدايا، وأخرى رخيصة كتُراب الأمكنة الفاسدة.

***

حين وصل تينيسي بدأ في كلّ مساء يتعلّم شيئًا من طنجة. خلال تجواله في أحد أزقّتها وجد أمامه محفظة نقود مرمية على الأرض، ولما حملها وفتحها وجد فيها وثائق خاصة برجل ألماني، اللص أخذ المال ورماها قرب بركة ماء، إذ كان المطر قد سقط طوال النهار. تبلّلت الأرض والأرصفة وامتلأت الحفر الكثيرة في الأزقة الخلفية بالماء. الضحية، بحسب ما هو مثبت في بطاقة تعريفه وبطاقات مهنية أخرى، هو مدير شركة صغيرة. كانت طنجة في تلك الأيام قد بدأت تستقطب رجال الأعمال الألمان. ربما مرّ هذا الألماني من المكان الخاطئ، وربما دخل حانة شعبية من تلك التي يرتادها اللصوص والشواذ، فانتُزعت منه محفظة نقوده كما تُنتزع ريشة من جناح طائر. بصق تينيسي على الأرض وأعاد المحفظة حيث كانت واستمرّ ماشيًا وهو يفكر في ملامح الألماني الذي تصوّره طويل القامة ونحيلاً. مشى في اتجاه لم يخطط التجول فيه. فكّر في ضرورة حمل مسدّسه معه، خصوصًا أنه دائم التسكّع في أمكنة خطيرة، سيئة الإضاءة ومع ذلك يقصدها الناس من كل الأجناس والأعمار. بقيت يده اليمنى تتخذ شكل المحفظة الجلدية البُنّية الصغيرة. الألمان لا يحملون تلك المحفظات المستطيلة التي تملأ الجيب، بل وتمزّقه، ويمكن ملاحظتها من خارج الجاكيت أو المعطف. لقد رأى ذلك في العديد من الأفلام الألمانية. الإنجليز والأمريكان يحملون محفظات نقود كبيرة، تثقل جيوبهم باستمرار وتمزقها في الكثير من

الأحيان. لذلك إن وضعت محفظة أمريكية أو إنجليزية في جيب جاكيت ألمانية فإنها لن تدخل إلا بنصفها ويبقى جزء ظاهر منها، ممّا يسهل سرقتها أو سقوطها. المحفظة الأمريكية غير محمية في جيب ألماني. أخرج تينيسي محفظة نقوده من جيب معطفه، نظر إليها ثم أعادها. سقطت في جيبه الكبير كأنها سقطت في جُبّ عميق. لم تكن محفظة من الجلد الثمين، لكنها جميلة وتضمّ جيوباً كثيرة. بداخلها شيكان وعملة أمريكية ومغربية. لكن لو سُرقت منه لاحتفظ بها السارق لجمالها. فيها جيب صغير شفاف توضع فيه الصور.

بدأ تينيسي يُسرع الخطى، فظهرت مشيته مثل الجري المتثاقل. بقي يجري دون أن يتوقّف، حتى بدأ يشعر بحرارة أنفاسه. حملت له الريح رائحة البحر. فكّر بسرعة في مفاوضات وتدابير الصيّادين مع هذا الهيجان المائي اللامنتهي. فكرة أنه يوجد وحيداً في هذا الزقاق الخلفي، وعثوره على محفظة نقود مسروقة مرمية على الأرض وسماعه صوت هدير البحر، كلّ ذلك يجعله يسرع الخطى، فتلك أسوأ علامات سوء الحظ التي يمكن تصوّرها. وحين خروجه إلى الشارع الكبير، رأى شابّاً يجري بطيش ويطارده عدّة أشخاص ويصرخون: «أمسكوه، أمسكوه»، ثم توقّفوا عن الجري وبقوا ينظرون إليه مشدوهين وهو يبتعد عنهم على الطريق المنحدر، وكأن الأمر يتعلّق بصاروخ انطلق وليس بإنسان يجري. حاول أحد السائقين صدمه بسيارته لكنه اجتنبه بخفّة قلّ نظيرها. كان

الشاب مذعوراً، ومن فمه يتصاعد دخان شبيه بدخان الموقد، كان داخله كأنه يحترق. ثم اختفى عن الأنظار. هل الأمر يتعلّق بسرقة أو انتقام؟ أوقف تينيسي أسئلته ثم انعطف يساراً وتوقّف عند مكتبة صغيرة اشترى منها جريدتين، وتوجّه رأساً نحو المقهى الذي إلى جوارها. كانت رائحة الخبز والحلويات تنبعث من مخبزة قريبة. في داخل المقهى يجلس صامويل بيكيت وزوجته سوزان دوشوفو ديماسنيل. اسمها طويل، كان يصعب على تينيسي نطقه كاملا، لذلك كان يكتفي بتسميتها سوزان دوشوفو، أو السيدة سوزان بيكيت في أحيان أخرى. كان بيكيت يضع بيريه سوداء وسوزان إلى جنبه صامتة. تكبره بست سنوات، وذلك ظاهر بشكل صارخ. بقي تينيسي يتصفّح الجريدة، وبين حين وآخر يلتفت إلى بيكيت فيجده منهمكاً في الكتابة على كراسة جيب زرقاء صغيرة. أخرج تينيسي من جيبه قلماً وسجّل ملاحظة على الجريدة، ثم وضع سطراً تحت فقرة كاملة. تينيسي هو الكاتب الأمريكي الوحيد الأعسر. التفت مرة أخرى ورأى بيكيت يحكّ مؤخرته بيده اليسرى، فابتسم تينيسي، كم مرة نصحه بزيارة الطبيب لعلاج حكاك المؤخرة الذي يعاني منه منذ سنوات. ابتسم تينيسي من جديد وهو يداعب شاربه ليخفي الابتسامة عن بيكيت الذي رفع رأسه نحوه، وهو في الحقيقة ينظر إلى حركة الشارع في الخارج. تلك الحركة التلقائية المنسابة هي حقل الإلهام بالنسبة إليه. آلاف الحركات تتمّ أمامه، كل حركة تختلف عن الأخرى. فجأة يصبح

ذهنه ممتلئـًا بالأفكار العجيبة التي لا يمكن أن تخطر له وهو داخل غرفة الفندق. أطلّ برأسه حين قطعت الطريق ثلاثة كلاب هزيلة ترتجف من البرد. عاد إلى كرّاسته وسجّل شيئـًا. أطلّت سوزان بدورها إلى حيث نظر صامويل فرأت ما رأى، وأطالت النظر أكثر، ماذا سيحصل للكلاب بعد حين؟ تينيسي ينظر إليها أيضا، وسوزان تنظر وتحك شعرها، وبيكيت يكتب. كتب هذه المرّة شيئـًا طويلا في كُرّاسته. وحين شعر الكلاب الثلاثة أنها بأمان قطعت الطريق نحو الرصيف حيث وقفت وبدأت تتثاءب. لم يخطر ببالها أن تنبح، فالنباح يتطلب طاقة وقوة. سأل بيكيت زوجته سوزان: «متى تكفّ الكلاب عن النباح؟»، فأجابت دون أن ترفع رأسها عن كأس الشاي الذي أمامها: «حين تكون جائعة». رفع بيكيت حاجبيه وكتب شيئـًا.

بسبب المطر الذي بدأ ينهمر بقوة اختبأت الكلاب في باب عمارة كان مفتوحـًا، وانتقل تينيسي إلى الداخل وجلس إلى جوار طاولة بيكيت وسوزان بعد أن حيّاهما. لكن بيكيت نهض نحوه وهو يبتسم مرحّبـًا به بحرارة، بينما اكتفت سوزان برسم ابتسامة خفيفة على وجهها الأصفر النحيل. كانت ابتسامة شبيهة بابتسامة شخص نائم يحلم. وحين شعرت بالبرد دعت صمويل إلى العودة إلى الفندق. تردّد قليلا ثم وضع كراسته في المحفظة الجلدية وانصرفا وهما يمسكان بعضهما بعضا تحت مطر غزير. نظرت سوزان لصمويل وسألته: «هل تظن أن الكلاب يمكن أن

تصبح كلاب صيد؟»، لم يجبها إلا بعد أن اجتازا الشارع إلى الرصيف الآخر: «يجب أن نعرف أولا هل تريد هي ممارسة الصيد. لا شكّ أنها تشعر بأن عليها أن تفعل شيئًا، لكن سنّها لا يسمح. أنا أنصحها بأن تكتب سيرتها الذاتية. هذا أهم عمل يمكن أن تقوم به الآن. هاهاها». ثم انطلقا نحو الفندق دون أن يقولا شيئًا. مرّا من الطريق المختصرة التي كانا يمرّان منها السنة الماضية. وهي نفسها التي عثر فيها تينيسي على محفظة النقود الألمانية المسروقة. «كتابة السيرة الذاتية»، حين نطق بيكيت بهذه الجملة، كان قد أعلن أنه لم يعد ممكنًا إهدار الوقت. هذه هي فلسفة كُتّاب السيرة الذاتية واليوميات الخاصة: الحريق نشب في الوقت، يجب إطفاؤه وإسعاف الوقت. بدأ بيكيت يفكّر في موته. قال هذا الأمر الخطير لسوزان التي اعتبرته أمراً مبتذلاً. وقفا تحت شجرة لا يتسرّب منها المطر إلا في قطرات بحجم الماء الذي يتسرّب من سقف بيت فقير. طرأت في رأسه فكرة: هذه شجرة العالم. كثيراً ما وقف الأنبياء تحت الأشجار حين لا يعرفون ماذا يفعلون وهم في منتصف نبوتهم، أو حين تحرقهم شموس الأصياف. بيكيت وسوزان يحتميان من المطر. فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان، مرّت سيارة مسرعة وحملت بركة ماء من الشارع كاملة وبلّلتهما بمائها المختلط بالتراب. نظر بيكيت إلى معطفه، وسوزان إلى حذائها. كانت ترتدي حذاءً صيفيًا من الجلد الصقيل اللامع. شعرت بالرعب. هكذا يظهر الناس في طنجة وهم في حالة اشتباك دائم مع

السيارات المنطلقة بجنون كأنها صاروخ سيصعد إلى السماء، كأنها عربات لا تنوي البقاء على الأرض.

مرّ بائعٌ يدفع عربة وهو يصرخ بصوتٍ أبحّ عن سلعة لم يتبيّنها تينيسي. حين اشتدّ المطرُ بدأ البائع يدفع العربة بقوة، ويتعثّر في كلّ خطوة. عاد للدفع بقوة كأن المطر يطارده. بقي تينيسي يراقب هذه المطاردة الغريبة. بدا البائع كأنه يجري بعربته في متاهة أو داخل زوبعة. فجأة هاجمته عاصفة انقلبت معها العربة فأصبحت عجلاتها فوق، وضاعت البضاعة في البرك المائية.

أحس تينيسي بضرورة إفراغ مثانته، لكنه لا يثق في قضاء حاجته في مراحيض المقاهي والحانات. وإذا اضطر إلى ذلك فإن عليه أن يتأكد من نظافة المراحيض. نادى على المرأة المكلّفة بالنظافة في المقهى وطلب منها تنظيف المرحاض جيّداً، وأنه سيدخل لقضاء حاجته بعد دقيقة. حين شاهد المرأة تخرج وتشير إليه بالدخول قام ودلف المرحاض وأغلق الباب وراءه. جلس وفتح الجريدة وبدأ يتطلّع إلى الصور ويقرأ بعض الأخبار القصيرة. ثم رماها جانباً بعدما شكّ في أن جل أسماء الصحفيين هي أسماء مستعارة. سمع صوت خطوات امرأة النظافة أمام الباب. راحت ثم عادت من جديد وهي تدفع الباب بيدها لتتأكد هل ما زال في الداخل. لا شكّ أنها تفعل ذلك لأنها تنتظر منه أن يعطيها بعض المال مقابل الخدمة التي أسدتها له. أو أنها استغربت لتأخره في المرحاض. فتح

الباب فوجد رجلا آخر ينتظر دوره للدخول، ووراءه يوجد رجل آخر واقفـاً. كان هادئـاً لكن في نظراته علامات الشّر. أما الذي قبله فكان مكتئباً وصامتاً ولم يتحرك إلا حين خطى تينيسي خطواته نحو القاعة التي تتوسّط المقهى. جلس في مكانه وحين رفع رأسه رأى المرأة تنظر إليه بجوع شديد إلى بعض النقود. اضطر لمناولتها بعض الدراهم التي كانت في متناول يده حين أدخلها في جيب السروال. عندها سألته بإنجليزية ضعيفة هل يريد ماء دافئا ليتوضّأ به؟ لكنه أجابها بالنفي، ذلك أنه قد أفرغ متانته فقط ولا حاجة للاغتسال. لكن ما أثار انتباهه الكيفية التي ضغطت بها المرأة على يده وهي تتناول النقود. وهي تتحدث إليه كان النادل ينظر إليهما بانتباه وكأنه أراد أن يسمع ما قالته له، إنه زوجها، كما سيعرف تينيسي في ما بعد من شكري. كان يراقبهما وهو عابس يراقب وجهاً مجهولاً يكلّم امرأته.

بقيت سماء طنجة تمطر لوقت طويل. ممّا اضطر تينيسي للبقاء داخل المقهى ينتظر شيئاً ما سيأتي رغم أنهما ليسا على موعد مسبق. بقي يقرأ في كتاب متوسط الحجم، وينتقل إلى كراسة صغيرة لتسجيل أفكاره. ريح قوية يُسمع صوتها من الداخل. كل شيء يتحرّك في الخارج بفعل قوتها. تردّد في الخروج والنداء على سيارة أجرة لتوصله إلى فندقه. أدار وجهه قليلا واستغرق في التفكير. أفكار كثيرة جعلته يقوم بحركات غريبة، كما جعلت عينية تلمعان وتنظران في كل شيء، وتطيلان النظر. أرخى القلم

بين أصابعه ثم أمسكه بقوة مرة أخرى. ثم فجأة قفز إلى ذهنه هذا السؤال المفاجئ: «هل وصل بورروز إلى طنجة؟» عليه تجهيز مبلغ من المال ليسلمه له، فقد اتّفقا على إرجاع نصف المبلغ إلى بولز، الذي ينتظر هذا الموعد على جمر مشتعل. لكن الخوف راوده من تلاشي هذا المبلغ أيضاً، فهو شبه مقتنع أن بورروز سيصل إلى طنجة وهو في حالة إفلاس تامّة. لابدّ أن يفعل شيئاً حتى لا يضع ماله ومال بولز مرّة واحدة. وبورز يعرف أن تينيسي لن يطالبه بإرجاع المبلغ كاملا، أو نصفه أو ربعه. فغايته ان تعود العلاقة جيّدة كما كانت بين بولز وبروز.

في تلك اللحظة دخل إلى المقهى بوغالب ساعي البريد وهو يبحث عن تينيسي في زوايا المقهى. لوّح له تينيسي مطوّلا حتى رآه بوغالب فتوجّه نحوه. دعاه للجلوس وهو يسأله:

- كيف حالك بوغالب، هل من جديد؟
- أهلا سيد تينيسي، أنا بخير. جئت لأخبرك بأن تمرّ إلى مكتب البريد، هناك رسالة مضمونة لك من طرف جاك كيرواك.
- جاك كيرواك؟ جيّد. إني انتظرها. أشكرك. اطلب شيئاً.
- عذراً سأذهب الآن، تنتظرني أشياء مستعجلة عليّ قضاؤها هذا الصباح. مع السلامة.

رغم أن تينيسي قال لبوغالب إنه ينتظر رسالة من جاك كيرواك، فإن الأمر في الحقيقة ليس صحيحاً. كما أنه رغم الحماسة التي أظهرها أمام

بوغالب، يكره بشدّة التوجه إلى مركز البريد بسبب سوء معاملة الموظفين له منذ أن جاءته مجلة تضمّ صوراً بورنوغرافية العام الماضي، ورفض أحد الموظفين تسليمها له لولا إلحاحه واعتباره للأمر بمثابة انتهاك لحقوقه، وتهديده باللجوء إلى الشرطة أو القضاء أو السفارة الأمريكية. وبأنه سيُقيم الدنيا ولن يقعدها إذا لم يتسلّم الطرد البريدي الذي جاء باسمه.

ما الذي يمكن أن تحمله له رسالة من كيرواك؟ فهو شخص معروف بعدم تعاطيه لكتابة الرسائل. فهو على النقيض مثلا من غينزبورغ الذي يحب كتابة الرسائل التي يعتبرها عملاً إبداعياً ووثيقة يمكن للمرء الاحتفاظ بها ضمن إرثه الشخصي. نهض بسرعة وتوجّه إلى الخارج وبقي ينتظر سيارة أجرة لتنقله إلى مركز البريد الذي ظلّ يفضل الذهاب إليه سيراً. لكن الأمطار غزيرة والريح قوية وساعة إغلاق الإدارات اقتربت.

امتلكه تأثر غريب وهو يقرأ في رسالة كيرواك أن الشيك الذي أرفقه بالرسالة هو خاص ببوروز الذي يعيش هذه الأيام وضعاً صعباً. وأنه لو كان بحوزته مال كثير لضمّ الشيك مبلغاً أكبر. وبالإضافة إلى تسليم الشيك لبوروز، توسّل إليه أن يتوسط بينه وبين بولز حتى تعود علاقتهما كما كانت أو أقوى. فبولز يسيء تقدير بوروز، وهذا الأخير يعرف ذلك ويؤلمه كثيراً. لكن تينيسي بقي متوقّفاً لوقت أطول وقلبه يخفق بقوة أمام

هـذه الجملـة: «لقـد ارتكـب بـوروز أمـوراً فظيعـة سـتعرفها في الوقـت المناسب. لذلك، فغير المساعدة، لا تقدّم له شيئًا آخر، لأنه يحتاج إليها فقط. فهي وحدها كافية. ساعد بوروز، صديق عمرنا، يا تينيسي، ساعده أشدّ ما تكون المساعدة».

أشعل تينيسي سيجارة وصبّ الويسكي في الكأس، وبقي في غرفته يدخن ويشرب وهو يفكّر في كلمات كيرواك. ما هذه الأمور الفظيعة التي ارتكبها بوروز إلى درجة أن كيرواك تحرّك بهذه الطريقة الغريبة عنه؟ ومن أين له بهذا المبلغ من المال؟ هل اقترضه من أجل مساعدة بوروز؟ ربما. هل أخذه من ناشره كمُقدّم على رواية قادمة؟ أم هي حقوق ترجمات روايته «الطريق» التي جابت سمعتها الأدبية الآفاق؟ وهل يعلم بوروز بهذا المبلغ؟ ثم لماذا لم يبعث كيرواك الشيك إلى بوروز مباشرة؟

إن الجواب عن السؤال الأخير هو من أسهل الأجوبة. فخوف تينيسي من أن يضيّع بوروز المال هو نفس الخوف الذي يقضّ مضجع كيرواك. ثم إن بوروز لم يصل إلى طنجة بعد. ورسالة كيرواك تؤكد أن بوروز قادمٌ إلى طنجة مما لا يدع مجالا للشكّ. فالريح قادرة على نقل بورز إلى أي مكان آخر.

هل معنى ذلك أن بإمكان بوروز أن يغيّر وجهته إلى حيث تقوده الرياح على السفينة التي توجد على متنها فتاة صينية؟ هل معنى ذلك، أيضًا، أن يترك بوروز كل هؤلاء الأصدقاء ينتظرونه على رصيف الميناء،

أو في غرف بيوتهم أو في الفنادق بينما هو مع يوي تشين في غرفته الضيقة بالسفينة، أو أمامها في الحانة يكرع الكأس تلو الأخرى، وينقّب بشاعرية نادرة في ماضيه وعلاقاته السابقة؟

كان تينيسي طوال الأيام الماضية يريد زيارة بولز في بيته، لكنه كان يعجز عن إيجاد سببٍ لزيارته أو تفسيرها لنفسه أولا ثم لبولز ثانيـًا. فهو يبقى وحيداً في البيت يشتغل طوال النهار حتى حُلول الليل، منهمكـًا في وضع أشياء كثيرة على الأوراق، أفكار وألحان تخرج من العدم أو تأتي من أقاصي الكون إلى ورقته، فيكون سعيداً بها سعادة نادرة. منذ موت جين وهو على حالته هذه، وللكثيرين الذين يقولون إن بول لم يحزن على موت جين، يملك تينيسي الشيء الكثير يودّ قوله لهم. إن بول بعد موت جين أصبح أكثر هُزالاً وكآبة وانعزالاً. وقد نصحه طبيبه بالإكثار من السفر وممارسة الرياضة وزيارة الأصدقاء. لم يجد دواءً مناسبـًا يصفه له غير ذلك. لكن بول لم يعد قادراً على مغادرة عتبة البيت، ولا على استقبال أحد، كما أن وضعيته المالية تدهورت كثيراً لأن وتيرة عمله تلاشت. أين هو بول النشيط الذي كان يعمل ويسافر كأنه شاب في العشرين من العمر؟ لقد رحل بول القديم مع رحيل جين وجاء مكانه بول هذا، المتلاشي والغريب عن نفسه. لذلك فهو يريد ماله من بوروز الأكثر شقاءً. وها هي رسالة من كيرواك تقول إنه ارتكب أموراً فظيعة. تُرى ماذا تكون؟

وحين يبعث كيرواك شيكـاً لمساعدة بوروز على تسديد ديونه، وحين يريـد تينيسـي منـح بـوروز نصـف المبلـغ الـذي اقترضـه مـن بـول، فإنهمـا، تينيسي وكيرواك، في الحقيقة لا يساعدان بوروز بل بول الذي أصبح أكثر إثـارة للشّـفقة مـن بـوروز. هـذه أمـور يعلمهـا جيّـداً تينيسـي لكنـه لا يريـد إشـاعتها لأنـه يظـن أن إشـاعة مثـل هـذه الوضـعيات هـي تشـهير بالنـاس، وخصوصـاً في حالة بول الذي عاش دومـاً عزيزاً كريم النفس.

أراد تينيسي أن يزور بول في أقرب وقت للاطمئنان عليه، وليرى كيـف يتصرّف هذا المريض الأمريكي في هذه الأيـام الطويلـة المتثاقلـة. يريـد أن يراه ويتحدّث معه الحديث الذي يعرف أنه سيبدأ، أو ينتهي، بالسؤال عـن بوروز. حين سيُطرح هـذا السـؤال، الجـوهري، سيطمئنه عـن مالـه الـذي سيقبضه كاملاً خلال يومين، بحضور ثلاثتهم: بول، ويليام وتينيسي.

***

من الشجرة إلى الفندق

من يستطيع أن يعرف لماذا يحدّق الناس في وجوه بعضهم بعضـا رغـم عدم معرفتهم ببعض؟ هذا سلوك غير واضـح منتشـر كثيـراً عنـد النـاس في طنجة. لـذلك يفضّـل تينيسـي عـدم النظـر إلـى الوجـوه التي تقابلـه في كـل مكان. الوجوه الوحيدة التي ينظر إليها وتُطبع في ذاكرته هـي وجـوه بـائعي السـمك في السـوق المركـزي. كـان يجـد فيهـا أحاسـيس اسـتثنائية غيـر

موجودة عند الباعة الآخرين، ربما لأنهم يبيعون كائنات ميتة، أو بتعبير آخر كانت حية فماتت، فموتها هو ما يجعلها صالحة لمقايضتها بالمال. هذا ما توصل إليه وهو يراقبهم بروية كبيرة. وعندما يعود بذاكرته إلى الوراء يجد أن هذا هو انطباعه عنهم. فحتى في شيكاغو أو نيويورك أو باريس يحمل بائعو السمك نفس الأحاسيس نحو الزبائن أو نحو البضاعة التي يتاجرون فيها. ربّما صيد السمك، وبيعه، يورث قيماً جيدة لكن لا يتم الانتباه إليها.

يذكر أنه وهو طفل في المدرسة سألتهم إحدى المدرّسات عن المهنة التي يريدون امتهانها في المستقبل كانت الأجوبة تتنوع بين رجل المطافئ، وربان الطائرة، والشرطي، والطبيب، إلا واحد قال أنه يريد أن يصبح صيّاد سمك. منحته المدرسة ابتسامة عطوفة وقالت: «سأنتظرك في الميناء لأخذ سمكي المفضل». من يومها وذلك التلميذ يأتي في كل مرة بسمكة في محفظته ويسألها: «هل تحبين هذا النوع من السمك؟». كانوا يضحكون جميعهم على هذا التصرف الغريب. إلى أن بلغ الأمر إلى إدارة المدرسة فاستدعاهما المدير، لأن روائح حجرة الدرس أصبحت نتنة برائحة السمك، وأيضاً حقيبة التلميذ «مارك». من يومها ولجنة من الإدارة تزور حجرة الدرس لتفتيش حقيبة «مارك».

نقلته أسماك مارك إلى بول الذي يحبّ السمك كثيراً. وقد كان يوصي خادماته دوماً بطهيه وفق الطريقة المغربية، لأن إحداهن اجتهدت ذات

يوم وبحثت عن طريقة طبخ السمك على الطريقة الأمريكية، وحين قُدّمت السمكة على مائدة بول وجين غضب كثيراً من هذه الطريقة السيئة التي حين نقارنها بالطريقة المغربية نقلع عن استعمالها إلى الأبد.

سمكة مارك أيضاً جعلته يتذكّر أنه على موعد على مائدة عشاء مع بيكيت وبول وجونيه. إذن هذه هي الفرصة السانحة والجيّدة التي ستجعله يرى بول ويكلّمه في كل ما يريد أن يكلّمه فيه. سيقول له كل شيء، كل الكلام الجيّد، كل الأفكار الرائعة التي يحبّ سماعها.

أثناء مغادرة تينيسي المقهى مباشرة بعد أن كلّمه بوغالب عن وجود رسالة في مركز البريد، كان المطر ما زال يهطل بقوة. لم يستطع بيكيت وزوجته سوزان مواصلة السير إلى الفندق. فدخلا محلّاً صغيراً يبيع الخبز الفرنسي، حيث اختارت سوزان بعض قطع الحلوى وبعض الخبز. ولم يستطيعا متابعة السير إلا حين خفّ المطر قليلا. كانا يحذران ماء البرك الذي تقذفه السيارات حين تمرّ مسرعة دون مبالاة للمارّة على الرّصيف.

حين يسقط المطر يتغير كل شيء في طنجة. يخاف الجميع من الشوارع والطرقات المليئة بالحُفر، فهي تمتلئ بالماء ولا يصبح بمقدور أحد تقدير حجم الحفرة ولا عمقها. سيضحك حتماً من يرى بيكيت وهو يطلّ برأسه نحو الأعلى ليرى هل كفّ المطر عن الهطول أم لا. أما

سوزان فقد كانت تحثُّه على متابعة السير وهي تغطي الحلوى والخبز بمنديلها الأحمر، فالمسافة قصيرة من الشجرة إلى الفندق.

كان برنامج بيكيت وسوزان مشاهدة مسرحية في مسرح سيرفانتس، ثم التوجه إلى «كاسا دي إسبانيا» لتناول وجبة العشاء صُحبة تينيسي وبولز وجان جونيه. قال لهما بولز إنه سيكون رفقة مفاجأة ستُسعد الجميع. لكن سوزان حذّرت بيكيت حتى لا يعقد الأمل على مفاجأة بولز، فمفاجآته دائماً سيّئة، لا تُسعد بل تُحزن. وأضافت أنها لا تعرف كيف يعتبرها مفاجأة سارة ستُسعد الجميع. فهي لا تتوقع أن تكون مفاجأة جيّدة، بل حتى العشاء الذي دعا إليه ضيوفه سيضطرون إلى أداء ثمنه، بعد أن يكون قد شحن رؤوسهم بالحكايات الرديئة عن الموسيقى والمسرح والكتابة. وهو في ذلك يستغل قلّة كلام بيكيت، وعزوف جونيه عن الخوض في أي حديث عن الكتابة، ونوبة الضحك والسخرية التي تنتاب تينيسي بعد أن يشرب كؤوساً كثيرة من الويسكي.

وجّهت سوزان سؤالا مفاجئاً لبيكيت:

- هل ستبقى في حياتك مفاجآت سعيدة بعد موتي؟

أجابها وهو يضمّها إلى صدره:

- إذا رحلت في يوليو/ تموز، سألحق بك في دجنبر/ كانون الأول من نفس السنة.
- ولماذا تنتظر حتى شهر دجنبر؟

- لأنه شهر الاستمرار، ينتهي ليبدأ زمن جديد.
- أستغرب كيف أن بولز يحدّث الناس عن المفاجآت السعيدة ولم يمض على رحيل زوجته جين أكثر من شهرين.
- أنا مضطر لمجاملته والمحافظة على أدبي معه، بل وتلبية دعواته كما يلبّيها الأمريكيون. ساعة معه وأعود إليك حبيبتي، وإن شئت تعالي معي فأنت مدعوة أيضاً.
- لا قدرة لي على السهر معكم. وإن أتيت معك سأشرب بيرة واحدة وسلطة وأنام على الكرسي، وسيجدها تينيسي فرصة للسخرية منك ومني. هذا إضافة إلى صوته الصارخ الذي يخرج من فمه مع دخان السيجارة.

كان عقل سوزان منشغلا جدّاً بتينيسي. فهي مثل طفل تدرك كل شيء، لكن لا يظهر أنها مدركة لأي شيء، ومن الصعب أن تصرّح لبيكيت بما تدركه لأنه سيطالبها بالحجة التي تدعم إدراكها. لكنها سألت بيكيت:

- هل سيأتي شكري إلى العشاء؟
- لا أظن، سمعت تينيسي يتحدث عن شخص آخر هو أيضاً اسمه محمد. محمد المرابط كما أظن.
- نعم، سمعت عنه من جين. كان يتردّد على بيت بولز. شخص أنيق ومؤدّب. له وجهٌ إسبانيٌّ شديد الصفاء. يُكثر من أكل السلطات والسمك وتدخين القنب الهندي المعروف هنا بمخدّر «الكيف».

تتذكر المرابط جيّداً. كانت سوزان قد بكت في حضرة جونيه وهو يحكي عن محنة الفلسطينيين. كان قد حضر ذلك اللقاء في مقهى «الحافة» محمد شكري وبولز وتينيسي والمرابط وبيكيت وسوزان. حكى لهم جميعاً عن أفظع مأساة إنسانية يسببها الاستعمار. وما هي إلا دقائق حتى انضم لحلقة جونيه العديد من الشبان والسياح الأجانب. استمعوا لسرده وموقفه دون معارضته. كان هناك أيضاً بين الحاضرين عاشقان إسرائيليان يعيشان في باريس، استمعا لجونيه دون معارضته الرأي، كان أيضاً خوان غويتيسولو من بين الحاضرين.

وصل بيكيت وسوزان إلى الفندق وعجزا عن الخروج مرّة ثانية للذهاب إلى المسرح. ففضلت سوزان تهيئ قهوة ومشاهدة التلفزيون. فيما خرج بيكيت للعشاء في «لاكاسا دي إسبانيا». كان بولز قد نبّهه إلى عدم إخبار أحد، خصوصاً محمد شكري، بمكان العشاء. فهو قد حجز لستة أشخاص فقط، هم: بيكيت، تينيسي، جونيه، بولز، سوزان، والشخص السادس هو المفاجأة.

يعرف القيّمون على المطعم أن بولز يرفض مكاناً قريباً من المدخل أو من الحمّام. فمكانه المفضل هو تلك المائدة أسفل لوحة فنية كبيرة، قرب بيانو ضخم تعزف عليه سيدة إسبانية اسمها «خوانا» أرقى الأغاني والمعزوفات الأوروبية. هذه هي الخدمة التي يقدّمها المطعم لبولز وضيوفه. كانت جين تحب خوانا كثيراً، وتطرب لمعزوفاتها، لذلك بكت

حين سمعت بموتها، وفي نفس ليلة دفن جين، عزفت خوانا مقطوعة حزينة لـ«هيربيرت فيانا». كان أغلب الموجودين في تلك الليلة يعرفون جين بولز، وحزنوا لموتها، ومن كان منهم يحفظ كلمات الأغنية ردّدها مع عزف خوانا، التي أطالت العزف وردّدت بعض المقاطع عدّة مرات. هذا العزف الشجي الذي تبرَعُ فيه هذه الفنانة الإسبانية هو ما يجعل الكثيرين يفضلون السهر وتناول العشاء في هذا المطعم.

كانت جين هي التي تتكلّف بالحجز حين تقرّر هي وبولز تناول العشاء، أو حين يستدعيان ضيوفهما القادمين من مختلف بلدان القارتين الأوروبية والأمريكية. وكانت تكون متأكدة بأنها ستجلس رفقة ضيوفها على أفضل طاولة، وسيستمعون لأفضل وأرقى عزف. هذا إضافة إلى الترحيب الحار الذي يقابلهم به مدير المطعم كارلوس، الذي كان يجده بولز شديد الشبه بالكاتب المكسيكي خوان رولفو، لذلك حين كان يريد أن يقول لأصدقائه: «نلتقي في كاسا دي إسبانيا»، يقول: «نلتقي عند خوان رولفو». وبيكيت يعرف هذه الشيفرة. وذات ليلة جاء بولز رفقة جين وفي يده صورة كبيرة لخوان رولفو بالأبيض والأسود، يرتدي فيها خوان جاكيتاً سوداء، وقميصاً أبيض، ويداعب شفته السفلى بأصابعه. اندهش كارلوس كثيراً لدقة الشبه بينهما. فقام على التو بتعليقها قرب اللوحة الفنية الكبيرة، مقابلة تماماً لباب الدخول. وقد فضلها بولز عن صورة أخرى لرولفو يجلس فيها على قبر ووراءه الصليب. في الحقيقة جين هي

من رفض هذه الصورة التي اقترحها بول، فاستبدلتها بهذه، فكان اختياراً موفّقًا.

أحبّ بيكيت الصورة كثيراً، واندهش بدوره للشّبه الدقيق بين كارلوس ورولفو. نهض من مكانه ووقف أمامها يتأملها، واستدار إلى كارلوس الذي كان على بُعد خطوة واحدة منه يتأمل انطباعه:

- أشكّ أنك كارلوس، أنت هو الكاتب المكسيكي خوان رولفو متنكّراً في صفة مدير مطعم. هذه هي خطتك، أليس كذلك؟

كان كارلوس يحبّ كثيراً بيكيت، لذلك كلّما جاء إلى مطعمه سارع إلى وضع باقة زهور وحفنة من الفواكه على مائدته. ومنذ أن علم أنه لا يحب المشمش، لم يعد يضعه ضمن الفواكه.

يتذكر كارلوس أنه حين سأله عن سبب رفضه للمشمش أجابه بأنه لا يصلح للبشر، وأنه يتصوره مناسباً للقردة. كان بيكيت يحب العنب كثيراً، والشرائح الرقيقة من لحم الخنزير المقدّد. هذه هي لوحة بيكيت: نبيذ أحمر، عنب ولحم خنزير مقدّد. وأحياناً يطلب الخصّ أيضاً. يضع كارلوس طلبات بيكيت ويتراجع قليلا إلى الوراء ويبدأ يفرك يديه وهو ينتظر ظهور علامات الرضا والسرور على وجه بيكيت، الذي يشكره بالقول:

- شكراً يا صديقي خوان رولفو، أنت كاتب لذلك تعرف طعام الكُتاب.

يتراجع كارلوس مسروراً، عائداً إلى تفقد المطعم وإعطاء التعليمات للعاملين والعاملات بالمطعم، للعناية بباقي الزبائن، فالليل في بدايته، والبطون قادمة أفواجـًا لتذوّق فيليه الدجاج الحبشي الملفوف، ولحم الخنزير المقدّد، والبايلا، وجبن الريكوتا والباذنجان والخصّ، تلك نماذج من الأطعمة التي تُقدّم مع نبيذ السهرة القادمة.

وصل بيكيت قبل الآخرين وبقي على المائدة يقلّب أوراقـًا كثيرة أخرجها من حقيبته الجلدية. وبين حين وآخر يرفع رأسه ويتمايل بطريقة خفيفة تكاد تكون غير مرئية على إيقاع العزف الخافت لخوانا. وكلّما التفتت خوانا ورأت بيكيت يطرب لعزفها ازدادت أصابعها خفة وإبداعـًا، وحملتها أجنحة خيالها إلى السماء العالية وإلى النهر الطويل، إذ إن اللحن يحكي عن السماوات والأنهار التي تشقّ طريقها وسط كل الأراضي والمروج في الكون. تحلّق بأجنحتها مع خيالها، ثم تعود وتحطّ قرب بيكيت لترى أثر عزفها على هذا العبقري الذي يميل برأسه الطويل يُمنةً ويُسرة. خوانا تعزف، بيكيت يطرب. إلى أن سُمعت أصوات خطوات في الباب. ها قد جاء جونيه. رحّب به كارلوس وهو يفتح ذراعيه لعناقه. ابتسم جونيه ومدّ وجهه للقُبلة الإسبانية الدافئة والصادقة. أمسكه كارلوس من كتفيه، عانقه ثم قبّله وهو يسأله:

- أين اختفيت يا سيد جان؟
- كنت في إسبانيا رفقة خوان غويتيسولو.

- جولة عمل؟
- نعم لتقديم ترجمة كتابي «أسير عاشق» إلى الإسانية.
- أين هو خوان الآن؟
- لقد عاد إلى فردوسه: مراكش.
- آهٍ لو جاء معك، اشتقت إليه يا سيد جان.
- إذا أردت نزوره الأسبوع القادم. أنا ذاهب إلى مراكش.

توجّه جان إلى الطاولة التي يجلس فيها بيكيت الذي تفاجأ بمظهره الغريب. لقد بدا على جان هُزال ملحوظ. لكن بيكيت حين تفحّصه جيّداً لاحظ أنه يلبس ثياباً مقاسها أكبر من جسمه الضئيل. ذلك ما جعله يبدو هزيلاً وعلامات المرض بادية عليه. جاء كارلوس ووضع أمامهما قنينة ماء وكأسين كبيرين. وسألهما:

- متى يصل الآخرون؟

صمتا معاً لأنهما لا يعرفان بالضبط في أي ساعة يصل بولز وتينيسي، فهما سيأتيان معاً بدون شك. وحين لم يسمع كارلوس جواباً اختفى بسرعة من أمامهما وعاد رفقة النادل الذي حمل صحوناً صغيرة من البايلا. نظر جونيه لما وُضع أمامه والتفت لينظر إلى كارلوس نظرة تساؤل وربّما استنكار. قال كارلوس لجان جونيه: «انس النبيذ الأحمر. سأقدم لكم البايلا».

فأجابه جونيه وكأنه كان مستعدّاً لأوامر كارلوس: «تقصد أن البايلا تتناغم مع نبيذ «بروفانس؟»». لكن كارلوس اقترح شيئًا آخر: «دعني يا جان أقترح عليكما كأسًا من «باتريمونيو»، ثم «لانغدوك» وحدّدا ما تفضلان بينهما».

ثم استمرّ كارلوس في إحاطتهما بعناية خاصّة. في البداية قدّم لهما كأسًا من نبيذ بروفانس وصحنًا من السلطة. غرز جونيه الشوكة في فجلة صغيرة ثم أتبعها بجرعة صغيرة حرّك معها شفتيه بسرعة. رفع رأسه نحو كارلوس وأشار برأسه علامة على الرضا.

سأله كارلوس:

- لماذا تأخر بولز وتينيسي؟

حدَّق جونيه في السقف ثم نظر إلى بيكيت الصامت، وأجاب:

- لا أعرف حقًّا، لكن دقائق ويصلون. الكل متحمسون للقاء في مطعمك يا كارلوس.

انصرف كارلوس وأخرج جونيه كراسة صغيرة وبدأ ينظر فيها إلى مواعيده. غداً صباحًا سيلتقي شكري، وفي المساء سيلتقي شخصًا قادمًا من العرائش كان قد التقى به في باريس السنة الماضية. كانت شفتاه تتحرّكان بسرعة وهو يقرأ الأسماء والتواريخ والساعات والأماكن. حرّك لسانه داخل فمه وشرب جرعة كبيرة من كأس النبيذ، ثم حمل الشوكة إلى فمه وتذوّق الفجل الصغير الأبيض مثل الثلج. شعر بلسعة هواء بارد

اجتاحت القاعة فجأة، ولما التفت رأى سيدة تفتح نافذة مقابلة للباب الرئيسي. لا شكّ أن الجبال القريبة قد دُفنت تحت الثلج.

بعد لسعة البرد، اجتاح القاعة خطوات أحذية كثيرة، التفت جونيه وبيكيت معـًا فرأيا تينيسي وبولز. نزع تينيسي وبولز معطفهما. تذكّر بيكيت أنه يرتدي معطفـًا احتفظ به وبالبيريه. جلس تينيسي قبالة جونيه، وبقي بيكيت قبالة بولز. أمريكي أمام فرنسي، أمريكي أمام إيرلندي. رفع بيكيت نظارته إلى جبينه، ونظر وهو يبتسم ابتسامته الخفيفة المعهودة إلى بولز، ثم خفض عينيه إلى الطاولة. وحين بدأ تينيسي يسعل نظر إليه بانتباه. ثم انتقل إلى جونيه. كل ذلك دون أن يتمكّن أحدٌ من معرفة قول تلك النظرات المتردّدة. كأنه كان يحدس ماذا سيُقال في هذا العشاء الرباعي.

جاء كارلوس من داخل المطبخ وهو يحمل كؤوس نبيذ وضعها ثم صافح بولز وتينيسي، ثم جلس على كرسي وهو يسألهما عن الصحة والأحوال العامة. ثم ملأ الكؤوس بالنبيذ اللامع مثل الضوء. يعتبر كارلوس أن النبيذ الجيّد هو منبع اللقاءات الجيّدة، فإذا كان المنبع نقيّـًا فمجراه نقيٌّ أيضـًا، وإذا كان عكِراً فمجراه عكرٌ أيضـًا.

هذا أول عشاء يتناوله بولز عند كارلوس منذ رحيل جين. رفع الأربعة كؤوسهم شربوها كاملة وأعادوها فارغة. ثم نطق بولز:

- لـديّ مفاجـأة لكـم هـذا المسـاء، يـا أمـراء الحكايـة. سـيلتحق بنـا شـخص مغربـي اسـمه محمـد المـرابط، سـيّدٌ مـن أسـياد الحكايـة، وفارس من فرسان الذاكرة. شخص لا يخرج إلا بعد الغروب.

خــارج المطعــم كانــت الشــوارع والأزقــة شــبه خاليــة مــن النــاس والسيارات. من يملأ الأرصفة هم المتسولون الذين ينتشرون مثـل القمـل في جسد المدينة. نائمون وحين يسـمعون أصوات خطى تقـترب يرفعـون الغطاء ويطلون برؤوسهم، ويبدؤون في التضرّع.

بـدأ الـدخان يتصـاعد مـن طاولـة حلقـة الأربعـة. بـولز يـدخن، تينيسـي يدخن. بيكيت في راحة مؤقتة بعد تنبيه الطبيب. أمـا جونيـه فإنـه ينتظر أن تُملأ كأسه كـي يشـعل سـيجاراً رفيعـًا. تصـاعد الـدخان بقـوة بعـد سـحب نفس عميق من سيجارة تينيسي، فبدوا من بعيد كـأنهم يحرقـون الخشـب. أشـعل كـارلوس كـل الفـوانيس الموجـودة في المطعـم. بهـذه الفـوانيس المصطفَّة في الجدار يبدو المطعم مثل طابق أرضي من قصر روماني.

حين دقّت الساعة العاشرة التحق محمـد المـرابط بالمجموعـة. كانـت تبدو عليه علامات الانتشـاء. قصـر قامتـه جعـل شـبيهـًا بشـجرة مقطوعـة. يستطيع هذا الفقير المعدم أن ينتشي في أي سـاعة يشـاء. توطّدت علاقتـه ببولز بعد أن ساءت علاقة الأخير بشكري. الحكايـات البائسـة، ذلـك هـو توازن مخيلة بولز. هذا الترحيب كلّه بالمرابط من طـرف بـولز دليـل علـى خصوبة مخيلته وذاكرته، وقبل ذلك، دليل على خصوبة حياته. لولا تلك

الصداقة مع جين وبول بولز لكان المرابط، في أحسن الحالات، بائعـًا في متجر خمور. وهي متاجر كثيرة ومنتشرة على طول طنجة، يملكها يهود وإسبان وإنجليز.

خاض بولز وجونيه وتينيسي وبيكيت في حديث عن الأدب، وبدأ المرابط بعد ساعة من الحديث يشعر بالوحدة والغربة بينهم. فكان يُطمر هذا الإحساس بالكأس تلو الأخرى. تسرّبت إليه بعض الأفكار فأصبح في مستطاعه المشاركة بالرأي. ما أشدّ وحدة إنسان لا يشارك الآخرين بأفكاره! وهي على كل حال أفكار بدت له مألوفة، سبق أن خاض فيها مع بولز وجين وويليام بورّوز. لو بقي صامتًا لساءت حالته، لانكسر مثل قصبة تتلاعب بها الرياح.

إن كل ما سيقوله المرابط تلك الليلة في شؤون خطيرة يخوض فيها عباقرة عظام، على مائدة مليئة بالشراب الجيّد، نابع من أحاسيسه الصادقة. كل ما عبّر عنه بإنجليزية صافية شبيه بحلم رآه عدّة مرّات. كان جالسًا جنب تينيسي، وحين كان يطلب السماح له بفرصة إضافية لتوضيح فكرته، يمسك بيد تينيسي كأنه يبحث عن طاقة أو إلهام. لكن بولز كان يوقفه عن الكلام، لأنه يعرف أن هذا الفيض المتلاطم من الكلمات والأفكار، وهذه الإنجليزية التي أصبحت فجأة طليقة على لسان المرابط، ما هي إلا نتيجة للسُّكر الذي بدأ يظهر عليه. ودون تقديم سألهم هل يريدون أكل وجبة سمك من طهيه؟ ردّ عليه بولز في الحال هيّا أن

انهض إلى مطبخ كارلوس. كان كارلوس أيضـًا يريد الحفاظ على مرح ضيوفه، وإزاحة الملل عنهم. لذلك فالقبول بأن يدخل المرابط إلى مطبخه سبيل جيّد إلى تسليتهم. لكنه نصحه بعدم الرقص، فمعروف عن المرابط أنه يرقص برشاقة كلما كان في حالة سُكر. فأن يرقص المرابط، معناه إثارة جلبة، وكسر أطباق، وقلب طاولات، وربّما افتعال شجار مع زبون قد يعترض عليه.

مال بيكيت على تينيسي وقال:

- هذه مفاجآت فعلية.

كان بولز يصيخ السمع لما يقوله بيكيت لتينيسي، وهو متأكّد بأن الإيرلندي لن يقول شيئًا يغضب الأمريكي، حتى وإن كان يملك شيئًا يغضبه. إضافة إلى أن بيكيت لا يحشر نفسه في الصراعات. فهو شخص متحفّظ جدّاً، ونادراً ما يُقدم على إزعاج الآخرين. وردّاً على ملاحظته قال تينيسي:

- في ذهن المرابط المزدحم حياة حزينة يبحث فيها بولز عن حكايات وأناس من المستحيل أن تجدهم في أمريكا أو فرنسا أو إيرلندا. داخل حنجرته تقبع أصوات كثيرة. المرابط يشبه شكري ويختلف عنه في آن. إنه لون آخر في اللوحة المغربية، خطّ جديد على جلد حمار الوحش. لكنه أقل عنفًا من شكري، أقصد عنف القول.

أعطى كارلوس للمرابط سمكة متوسطة الحجم، وسكيناً طويلة وحادّة أخذها المرابط وبدأ يلوّح بها في السماء مثل سيف، ثم ضبط حركته أكثر وشقّ السمكة إلى نصفين بخفّة مثيرة. صفّق له كارلوس وقال له: «تابع يا محمد، إنها لكم، افعل بها ما شئت، وسأتذوّقها معكم».

كان كاركوس في البداية قد أخرج من الثلاجة سمكة أكبر حجماً، لكن المرابط رفضها وفضّل عنها هذه التي بين يديه الآن، ولما سأله كارلوس عن دافع هذا الاختيار، قال إن لون جلدها أكثر صفاء ونقاء من السمكة الضخمة. استغرب كارلوس هذه الملاحظة الدقيقة فسأله:

- هل كنت صيّاداً في يوم ما؟

فأجابه وهو يضحك:

- كنت صيّاداً في الماضي، وسأستمرُّ صيّاداً في الآخرة. أنت مدعوٌّ هناك في وجبة سمك لذيذة مع صيّاد أبدي.

فجأة لم يعد المرابط ينتبه لوجود كارلوس جنبه وهو يراقبه. انسحب إلى البار وصبّ له كأس نبيذ وضعه قربه دون أن يقول كلمة واحدة.

كانت الموجة صاخبة في مائدة الأربعة، صخباً أشاع جوّاً رائعاً في المطعم. خطا تينيسي نحو كارلوس وسأله عن المرابط وسمكته، ثم توجّه نحو الباب حتّى خُيّل لبولز أن تينيسي سيغادرهم، لكنه عاد وجلس وأمسك بكأسه وقرّبها من جونيه الذي كان منغمراً في حديث ثنائي مع

بيكيت. ابتسم جونيه ورفع كأسه وتذوّق منها جرعة صغيرة، ونفس الشيء قام به بيكيت. قال بيكيت بصوت خفيض:

- نخب الصداقة.
- جونيه: نخب الثقة.
- تينيسي: نخب كتب الأدب.
- بولز: نخب الصداقة بين أمريكا وفرنسا وإيرلندا.

لو كان المرابط معهم هل كان سيهتف كما هتفوا:

- والمغرب؟

لو كان كارلوس، معهم هل كان سيتّبع خُطاهم:

- وإسبانيا؟

ونيابة عن خوان رولفو الذي يشبهه سيقول:

- والمكسيك؟

ستذكر ذاكرة كل واحد من هذه القبيلة المختلطة أنه في ذات ليلة شتوية، استضاف كارلوس، الذي سمّاه تينيسي ويليامز وبول بولز اسماً آخر هو «خوان رولفو»، تيمّناً بالكاتب المكسيكي خوان رولفو، نظراً للشبه الكامل بينهما، في مطعمه بـ«لاكاسا دي إسبانيا» بمدينة طنجة، مجموعة من الكُتّاب اتخذوا من الأدب مبدأ لهم. فأصبحوا يملكون العديد من الأدب والعديد من القراء والمترجمين على امتداد العالم كلّه. لكن مِن أحبّ الأشياء إلى أنفسهم العيش في ظروف أدبية وتأمل

وضعيات الإنسان وشروطه والكتابة عنها. تحدث أشياء كثيرة أمام أعينهم، فتتكون لديهم قناعة تحويلها إلى فنّ وأفكار.

جاء كارلوس وقدّم لهم طبقاً من الفواكه وهو يقول: هذا التفاح من حديقة بيتي، وهذا البرتقال والتوت من حديقة المطعم، وهذا الجبن من مزرعة صديقي سيلفستر. كان يشير بإصبعه لكل قطعة من الفاكهة، حتى إلى العنب في قاع الإناء. نظر بيكيت بخيبة أمل إلى إناء الفواكه، فهو لا يرغب في كل ذلك، بل ما يشتهيه هو السمكة التي يطبخها المرابط منذ نصف ساعة تقريباً. رفع رأسه نحو باب المطبخ فلمح المرابط يخرج وهو يكلّم أحد العاملين. بقي بيكيت على أبعد مسافة من فاكهة حديقة كارلوس ومزرعة سيلفستر، رغم أن تينيسي وجونيه على الخصوص اعتبراها من أطيب الفواكه. كان تينيسي يتناولها بالشوكة، وجونيه بأصابعه الصغيرة المرتعشة، بل وكان يلتقط العنب من قاع الإناء.

رغم أن بيكيت لم يأكل شيئاً من الفاكهة، إلا أنه ظلّ يمسك بطرف المنديل ويمسح شفتيه.

***

خُطوطٌ جديدة على جلد حمار الوحش

اتخذ كارلوس دوماً عادة عدم مجادلة زبائنه أو فرض شيء عليهم. لذلك حين لاحظ أن بيكيت لم يمدّ يده إلى الفاكهة اقترب منه وسأله:

- هل يريد السيد بيكيت شيئاً محدّداً. مطبخي رهن إشارتك.

إنْ لاحظ كارلوس علامة عدم الرضا على وجه الزبون فإنه يعود إلى مطبخه ليقدّم له شيئاً أفضل. تردّد بيكيت في أن يقول له ارفع طبق الفاكهة من أمامي وضع مكانه السمكة التي طبخها المرابط. سمع كارلوس ما تردّد في داخل بيكيت، فبدأ يزيح بعض الأطباق ليُفرغ المكان للسمكة. التحق المرابط بالمجموعة، عاد للجلوس على مقعده جنب تينيسي الذي رحّب به قائلاً:

- مكانك ينتظرك.

لكن جونيه سأله:

- الجو بارد جدّاً يا محمد وأنت ترتدي هذا القميص الصيفي.

أجاب محمد وقد بدا أقصر من جذع شجرة مقطوعة:

- كلماتكم الطيبة تكسو جسمي بما هو أكثر دفئاً من اللباس يا عزيزي جون.

ضحك تينيسي وقال وهو يصفّق بيديه:

- برافو أيها الكنفوشيوسي العظيم.

شعر المرابط بحركة إصبع على كتفه، وحين التفت وجد نادلا يحمل طبق السمك. مال قليلا ليفسح له ويضعها أمامهم وسط المائدة. شكره بيكيت بالقول إنه يفعل ما في وسعه لإرضائهم. كان مقبض الإناء ساخناً جدّاً. أبعد بيكيت ذراعه حتى لا يحترق ورفع كأسه. أغلق كارلوس الباب المفضي إلى الحديقة بعدما لاحظ أن ريحاً بدأت تهزّ الأغصان. كان كارلوس تلك الليلة سعيداً بضيوفه الكُتّاب إلى درجة أغاظت باقي الموجودين في المطعم. كان ينحني عليهم واحداً واحداً حتى يكاد يلامس رأسه رؤوسهم، ليسألهم عن طلباتهم ورأيهم فيما يقدّمه لهم، وهل يريدون تغييراً لما هو موجود على قائمة الطعام. اعترض بيكيت على إغلاق الباب المفضي إلى الحديقة، رغم قناعته بأن الريح ستصيبه بنزلة برد، فقد كان في مواجهتها. جونيه متعوّد على التيارات الهوائية، فقد قضى نصف حياته في بيت نوافذه متقابلة وتكون مفتوحة أغلب الوقت، هذا إضافة إلى أنه يظل يحلم بالنوافذ والأبواب المفتوحة. لكنه كان مندهشاً بالطريقة التي يحوم بها كارلوس حول بيكيت، دليلاً على اهتمام أكثر بهذا الكاتب الذي يظل صامتاً طوال الوقت، لكنه حين يسخر يكون لاذعاً. هكذا هم الناس الذين يجمعون بين المعرفة الواسعة والتشاؤم. لذلك كان يشعر تلك الليلة كأنه يخاطب أناساً بدون وجوه، كما يفعل شخص مستلقٍ أمام محلّل نفسي. لم يكن بمستطاع أحد أن يلومه عن انفصاله عنهم طوال العشاء. لكن تينيسي سأله:

- لماذا يحوم الناس حولك يا بيكيت، هل يبتغون شيئاً محدّداً؟

أجابه بيكيت وهو يبتسم:

- من يحوم حولي؟ لم أر أحداً. باستثناء كارلوس الذي ظلّ يكلمني وفي يده قائمة الطعام لأنه لاحظ أنني أشرب دون أن أمدّ يدي لما وضعه على مائدتنا. وذلك تطلّب منّي معاملة خاصة.

ردّ تينيسي:

- هل نسيت الشابة الإسبانية التي جاءتك وطلبت منك صورة، فيما طلب صديقها توقيعاً على ورقة صغيرة؟

ضحك بيكيت وقال وهو يتمايل في مكانه:

- لا تتوقع أنهم قرؤوا لنا شيئاً. هؤلاء يريدون أن يقولوا لأصدقائهم في الغد إنهم التقوا بنا في المطعم. وقد يضيفون أشياء لم تقع. إن أحسننا توجد له نصوص قصيرة مقتطعة في المقرّرات المدرسية.

بيكيت يتحدّث. هذا شخص صقلت ذاكرته ومخيلته أحداث تاريخية عُظمى، خصوصاً الحروب. وأكبر درس تلقّاه وهو يشاهد دمار المدن وموت الناس هو: التضاؤل، اجتناب الفشل الحتمي، التظاهر بالجهل. نحن البشر مجبرون على عيش ظروفنا، سواء أعجبنا ذلك أو لم يعجبنا. ومهما كانت لنا بيوت وأصدقاء وحبيبات ورواتب، فإن ثمة شيئاً غائباً هو ما نظل نجري وراءه أو ننتظره في زاوية ما. قد لا يأتي مثل «غودو»، أو قد يأتي ونحن من يتخلّف عن المجيء للّقاء به في الموعد المحدّد.

حين عاد المرابط للجلوس كان قد شرب كؤوساً عديدة ودخّن عدة سجائر، وأطلّ من نافذة المطبخ على الحديقة مرّات كثيرة، فعاد بشوشاً وخفيفاً مثل طائر عائد من سماء بعيدة إلى قبيلة الطيور المألوفة. التفت إليه بيكيت وقال:

- نودّ أن نشكرك يا محمد على هذه السمكة الطيبة. ما اسمها؟ من أي ماء هي؟ كيف طبختها؟ وأي شراب يناسبها؟ هل تستطيع أن تجيبني؟

تحدّث بيكيت بهدوء وبتثاقل وهو يحدّق في وجه محمد الذي يشبه كثيراً وجوه الإسبان في الجنوب. أما المرابط فإنه كان معتاداً على هذه الأسئلة في بيت بولز، خصوصاً حين يلتقي أصدقاؤه بأصدقاء جين، المرأة التي ماتت وتركت أصدقاءها من كل العالم واللغات.

كان المرابط يميل إلى تبسيط الأشياء حتى تبدو طبيعية للغرباء، فلحم السمك يصبح جاهزاً بعد نصف ساعة، أو أقل، على النار. والشراب الذي يناسبه هو كل شراب يُهضَم بسرعة ويزداد طعمه لذّة حين يختلط بطعم تلك الملوحة الخفيفة الموجودة في السمك. هذا ما قاله المرابط جواباً على أسئلة بيكيت. وأضاف أنه في هذه الليلة بذل كل ما في وسعه ليكون طبخه أجمل من أمهر طبّاخ يعمل في مطعم كارلوس. لكن الأمور لم تكن سهلة على غريب على مطبخ المطعم، حتى تكون الأمور بالنسبة إليه عادية. لكن بيكيت أضاف سؤالا آخر:

- منذ متى وأنت تطبخ؟

هذه إطلالة من بيكيت على حياة المرابط بمنهجية أخرى. ما الهدف من طرح هذا السؤال، وما فائدة معرفة أن المرابط بدأ الطبخ في هذه السنة أو تلك، في طنجة أو في أي بلد آخر؟ لكن المرابط ذكر موقفاً من الماضي، وقتها كان طفلا واضطر لتهييئ شيء لوالدته المريضة كي تأكله قبل شرب الدواء. جلس قرب سريرها وبدأت تملي عليه كيفية طبخ لحم الدجاج بالخضر. ونصحته بأن يضع نصب عينيه مقدار الماء الذي ينبغي إضافته في كل مرة.

شعر بيكيت، وبدرجة أقل جونيه، ببرودة تسحق عظامه، خصوصاً مفاصله. نهض وتوجه نحو الحمام لتنشيط الدورة الدموية. لم يكن بولز يمنح أي اهتمام لما قاله المرابط، فهو يعرف تلك الأشياء وأكثر. بل اعتبر أن من غير اللائق إثقال شخص بالأسئلة لمجرد أنه تطوع لخدمة الآخرين. تنهّد جونيه ووضع يده على المائدة، ثم تناول بالشوكة والسكين قطعة من لحم السمكة وبعض الخضر لم تتجاوز شرائح من البطاطس والجزر والزيتون. ظل المرابط يراقب بلهفة كيف يأكل جونيه ما طبخه. وفجأة رفع جونيه رأسه وقال:

- شيء طيب حقّاً ما طبخته يا محمد. أنا حين أطبخ السمك أحاول القيام بعمل كامل كأن الله يراقبني. ما أن أتحول إلى طبخ السمك

حتى أشعر بضعفي. أشعر كأن هناك من يراقبني من فوق. فأسعى إلى القيام بشيء يجلب لي الرضا.

كان واضحًا أن بولز يسعى إلى إخراس المرابط، هذا الحكّاء العجيب. فهو إن بدأ حكاية لن يكون في نيته إنهاؤها إلا حين يشعر بالملل يتسلّل إلى المستمعين، وفي الحالات السيئة لا ينتبه إلى أن من يستمعون إليه بدؤوا يتثاءبون أو ينظرون إلى السقف أو إلى ساعاتهم. لقد حاول إسكاته وهو يجيب عن أسئلة بيكيت، وها هو الآن يستعدّ لإسكاته حين شرع في الحديث مع جونيه.

كان المرابط يجيب بيكيت وجونيه بالفرنسية، وبولز وتينيسي بالإنجليزية، ولو كان بينهم خوان غويتيسولو لتفنّن في الحديث بالإسبانية، هذه اللغة التي أتقن الحديث بها قبل الفرنسية والإنجليزية.

حين أنار كارلوس فوانيس إضافية بدا وجه المرابط واضحًا أكثر. يتّخذ حُمرة مثيرة كلّما أفرط في الشُّرب والضحك. انتبه إلى غياب بيكيت، فبحث عنه بعينيه في كل مكان في القاعة، فتبيّنه وسط ظلمة خفيفة وهو واقفٌ في الشُّرفة يدخّن. لحق به بولز الذي لم يغادر مكانه منذ بداية اللقاء.

كان بيكيت يظهر من وراء الزجاج طويل القامة، ومتردّداً في النزول إلى الحديقة والتسلّل بين الشجيرات. التحق به بولز بخطوات بطيئة. وهو جنبه متّكئًا على السياج الحديدي، عبّر له عن إعجابه بسير اللقاء

وببساطته الساحرة. شكره بيكيت وعبّر بدوره عن إعجابه بجمال المكان ولطف الليل في طنجة. حمل بولز في يده تفاحة حمراء كبيرة في حجم يده. نظر بيكيت إلى التفاحة، ابتسم ثم قال:

- التفاح الإسباني مثل التفاح الإيرلندي.

أجاب بولز:

- كارلوس يقول إنه تفاح محلّي.

ردّ بيكيت وهو يسحب نفساً عميقاً من سيجارته ورأسه مرفوع نحو الغيوم التي في السماء:

- لا أصدّق، هذا تفاح مستورَد من ضيعة إسبانية متخصّصة.

بقي بولز يقلّب قول بيكيت والتفاحة الحمراء في يده. كل شيء إسباني في طنجة. من التفاح الأحمر إلى لباس الرجال والنساء والأطفال. كادت الساعة تبلغ منتصف الليل. وحين ينهي الساهرون أحاديثهم بالكلام عن التفاح معناه أن على السهرة أن تنتهي.

***

كيف جاءت فكرة دعوة بولز لأصدقائه؟ لماذا؟

أوّل من استغرب هذه الدّعوة هو تينيسي. فهو يعرف الحالة المزدحمة التي أصبحت عليها نفسية بول. كما يعرف وضعيته المادّية التي إن لم تكن سيئة، فهي لم تعد كما كانت في السابق. ومن يعرف هذه الحقيقة

الجديدة سيلاحظ خلوّه تلك الليلة من الحماسة، لكنه كان مليئاً بالإخلاص. فما معنى الخلوّ من الحماسة والامتلاء بالإخلاص؟

فكّر تينيسي في خطة سرية. سيكلم جونيه لأداء ثمن عشاء الليلة، يظنّ أنه لن يرفض. لكنه جونيه سيسأله عن السّبب، وسيهوّل من الأمر. إضافة إلى أن بول سيرفض الأمر جُملة وتفصيلا.

الناس لا يُدْعون إلى «كاسا دي إسبانيا» بل يذهبون إليها، ويسهرون، ويتحدثون بأخفض الأصوات وأعذبها. وحين يرتفع صوتٌ عالياً ينزعج الناس كما لو أنهم سمعوا فجأة صوت طبل.

الناس الذين قصّوا شعرهم آخر قصّة، ولبسوا أثواباً غرناطية أو صقلية، وفاضت كؤوسهم فبدؤوا يتبادلون الأنخاب، لا يحبون الأصوات العالية. هذا العقد المقدّس التزم به هؤلاء الكُتّاب، ضيوف بولز. تصرفوا كما يتصرف المتعاقدون. وعلى هذا الأساس ظلّوا على حالة رائعة من التواصل التي وصفتها لكم في الصفحات أعلاه. لكن تلاحظون أن تينيسي ظلّ يخفي أحزانه السرية التي يحتلّ فيها موت جين مركزاً هامّاً وثقيلاً. كان أحياناً يتظاهر بأنه متعب، وتارة أخرى بالشُّرود، ثم بالانشغال بأمور كثيرة تركها وراءه في أمريكا. لم أجد شيئاً أقوله عنه لأني لم أسمع منه أشياء كثيرة، كما أن حركاته كانت شبه غائبة. كان بين الفينة والأخرى يضحك، وفي غالبية الوقت كان يدخن ويشرب ويقول شيئاً بينه وبين بيكيت، ومن يراهما يظن أنهما يتبادلان شيئاً حميماً، لكني أنا الذي

يعرف طبعهما جيّداً أقول إن الأمر لا يتعدّى تبادل رأي في الشراب المقدّم لهم، أو في المطعم أو مجرد نميمة أدبية. ويمكن التأكيد أيضـًا أن ذلك الأمر كان يضايق جونيه قليلاً، لكنه شخص متسامح تجاه هذا النوع من السلوك. وأضيف وأقول عنه إن مزاجه واستعداده العاطفي لا يقف عند قشرة القلب الإنساني، وهو شيء لا مثيل له يستحيل أن يوجد عند تينيسي أو بيكيت أو بولز. لكن يمكن إجمالاً القول إنه كان على ما يُرام طيلة السهرة، رغم أنه إنسان قلق بطبعه، ظل يخوض تجربة تيهٍ قُصوى بحثـًا عن المركز الدافئ. نظراته المليئة بالدهشة، والحزينة في غالب الأحيان، شبيهة بتلك الدهشة التي تكسو وجه شخص استوقفه شخص مجهول ليسأله عن شيء لم يسبق أن سمع به. لكن دهشته تلك هي من جانب آخر حرية منحها لنفسه، وأقام فيها منذ شروق الشمس إلى غروبها، دون انقطاع. تلك الدهشة هي باب دخلت منه العديد من الأشياء إلى أعماق نفسه. أقول ذلك وأنا أعي بأنني أتفوّه بأكثر الأساليب سطحية.

لو تحدث الكُتّاب الأربعة في الأدب لكانت أصواتهم متقّدة، ولرأيت دُخّانـًا كثيفـًا يلفّ وجوههم. بقي على المائدة جونيه وتينيسي والمرابط. من يراهم يظن أنهم الباقون من السهرة. صبّ تينيسي لنفسه كأسـًا من شراب «ماركيز دي كاسيريس». عاد بيكيت وأخذ البيريه التي تركها فوق الكرسي. اعتقد جونيه أنه جاء ليودعهم، لكنه سرعان ما عاد إلى الشرفة ووقف جنب بولز. حين اشتدّت الريح انزوى بيكيت في زاوية الشرفة

والتحق به بولز. حين فتح بيكيت الباب دخل تيار من الريح فحرّك بقوة لوحة معلّقة على الحائط، كما سُمِع صوت تحرّك الستائر وهي تصطدم بالزجاج. بدأ كارلوس يجول على الأبواب والنوافذ من أجل إحكام إغلاقها. لفّ بيكيت الشال حول عنقه فظهر مثل أفعى تحكم قبضتها بقوة حول عنقه النحيف. وضع بيكيت يده على كتف بولز وهو يحدّثه، وكأنه يقدّم له عرضاً معيناً. التفت بولز وابتسم ثم تحدث بكلام لا يمكن سماعه من وراء الزجاج. لكن بيكيت كان قد طرح سؤالاً أثار إعجاب بولز:

- ما رأيك في أن أدعو مجموعة الليلة يوم بعد غد؟

ردّ بولز كأنه كان ينتظر السؤال:

- يوم بعد غد ستكونون في بيتي. لقد اخبرني تينيسي أن ويليام بوروز سيصل غداً إلى طنجة وانه يريد زيارتي والاطمئنان عليّ بعد وفاة جين.

لم يصدر عن بيكيت أي تعليق بخصوص بوروز. فقد جعلته الأمسية مرحاً ومنشغل الذهن وسعيداً أكثر من أي وقت مضى، فتمنّى لو رافقته سوزان التي تحبُّ هذا النوع من السهر. فلو حضرت لقامت وجالت في كل قاعات المطعم، ستتفقّد كل شيء، من الحمّام إلى المطبخ إلى الشرفة والنوافذ واللوحات والستائر والفوانيس. تعجبها الستائر الحمراء والبنية، وهي موجودة في «كاسا دي إسبانيا». سيعجبها خشب الموائد

والطـاولات. ولاشـكّ أنهـا كانـت سـتخوض في نقـاش مـع جونيـه حـول مسـرحيته «السـتائر» التـي أحبتهـا كثيـراً، لأنهـا تحـدثت عـن العـرب والمواجهة بين العرب ومستعمِريهم في الجزائر. بفضل هـذه المسرحية أحببت سوزان كل أعمال جونيه. عاد بيكيت ووضع يده على كتف بـولز ثم سأله:

- ألن يثير المرابط أي شجار هذه الليلة؟

أجاب بولز:

- المرابط يتحول إلى رماد حين يسكر، وإلى جمرة متوقّدة حين يحكي.

في النهاية سأله بيكيت عن حجم ما أنفقه في هـذه الليلـة، لكنه رفض الإجابة، وتشاغل عنه بمراقبة غصنٍ تحركه الريح.

بـدأ المـرابط يغنّـي. غنـاؤه عبـارة عـن خليـط مـن الجبلـي المحلّـي والإسباني. وهي في النهاية ليست أغانيَ بل مجرد إيقاعات إسبانية ومغربية تخـرج مـن فمـه دون ترتيـب. لـم يعـد أحدٌ يهتمّ بمـا يقـول. لقـد شـارفت السهرة على نهايتها. غادر كارلوس المطعم دون أن يودّعهم. وتـرك ورقة صغيرة لنائبه في صندوق الأداء يخبره بأن وجبة العشاء كانت على حسابه، وبأن لا يقبل أي مال من بولز أو غيره. ربّما لهذا السبب انسحب دون أن يقول لهم وداعـاً. حين كان كارلوس يقول وداعـاً لبولز وجين، يجيبه بولز بأنه يفضّل عبارة «إلى اللّقاء».

صنع تينيسي القوس، وبيكيت السهم، وجونيه الرّمح، إلا أن بولز ظلّ هو الخبير في الرماية. ولا يمكن لأي أحد من هؤلاء أن يصبح خبيراً في مستوى خبرته مهما فعل. انسحب الجميع، كل إلى وجهته. لكنّ اثنين منهم شقّا طريقاً واحداً: بولز والمرابط نحو البيت لإتمام بقية الحكاية التي لم تنته بعدُ.

القسم الثاني

«كانت المسرحية الفاترة أحياناً، والمفعمة بالحزن أحياناً أخرى، تحكي قصّة القلب الذي كانت رسالته المرسلة بتوطئة مقفّاة تتمثّل في أنّ الحبّ الذي لا يبني قاعدته على تفكير سليم يكون مصيره الإخفاق».

أيان ماك إيوان، الكفّارة

كان الخريف طويلا هذه السنة. جاء إلى طنجة طالبٌ فرنسي اسمه «هارديان لاروش» من أجل اللقاء بجونيه وتينيسي. وصل هادريان إلى طنجة، قادماً من أمريكا، يوم 13 نونبر، الذي يصادف عيد ميلاده. كان قد التقى بالفيلسوف جاك ديريدا بجامعة «دارتموش» الذي كان ضمن المشاركين في ندوة دولية في موضوع «النقد والنظرية». قدم ديريدا عرضاً تحت عنوان «عيون اللغة». الجملة التي قالها هادريان لديريدا يومها: «فرنسي يلتقي بفرنسي على أرض غريبة» قالها لجونيه.

سجّل هادريان الشاب أطروحة دكتوراه تحت إشراف ديريدا. في البداية كان متردّداً بين جونيه وأنطونان آرطو وتينيسي ويليامز قبل أن يستقرّ موضوعه على جونيه، في بعدٍ شديد التعقيد: العلاقة التي تربط التخييل بالسياسة، انطلاقاً من سؤال طرحه فريدريك نيتشه: «ما صورة فنّان ينتقل إلى ضدّه؟»، وهذا تأمل فلسفي، جمالي وتاريخي عن العبور من العالم اللغوي إلى العالم الواقعي.

حين وصل إلى طنجة خصّص اليوم الأول للبحث عن فندق جيّد للعمل والنوم والأكل. ألقى نظرات عديدة على فنادق رشحها له بعض الفرنسيين الذين زاروا طنجة مرّات عديدة. كان يتلقّى أجوبة عديدة عن سؤال جودة الفنادق في طنجة. في منتصف يومه الأول وجد فندقاً بدا مناسباً منذ النظرة الأولى، لكنه حين صعوده لطابق الثاني لتفقد الغرفة التي سيقيم فيها تعثر بالدّرج، فعاد من حيث أتى ليبدأ رحلة بحث جديدة.

عاد يتذكر أحكام أصدقائه الفرنسيين على الفنادق التي رشّحوها له، فوجدها أحكاماً كاذبة، وفي أحسن الحالات سريعة، إذ لم ينتبهوا في تقييمهم لمجموعة من التفاصيل التي يهتم بها باعتباره طالب دكتوراه يبحث في موضوع فلسفي عن كاتب يتطلّب البحث في أعماله الأدبية الكثير من التركيز والهدوء.

اكتشف هادريان أن جان جونيه يمثل له صورة الإنسان اليتيم، الأمر الذي وافق عليه ديريدا مع إضافة مسألة الاسم. فجونيه الذي يبحث عنه يتيمٌ من ناحية الاسم. جونيه هو نموذج الإنسان يتيم الاسم، فاقد للإرث، ويتيم حتى من إنسانيته، إذن هو قاطرة البحث في الإنسان.

وصف ديريدا عبور جونيه مضيق جبل طارق بالقفزة. إن جونيه يقفز إلى كل مكان يمكن القفز إليه. قفز إلى شيكاغو، الأردن، ستراسبوغ، شارتر. يلتقي بممثلي الأحزاب، والحركات، بالناس الذين يمثلون الأفكار. التقى بالألمان والفلسطينيين. في كل مكان يرى الحرمان والاجتثاث. هناك القفزة الجيدة وهناك الرديئة. وهو يستمتع بهما معاً وبلهفة.

أقام هارديان في فندق «ألمونيريّا». بعد تناول أول عشاء بمطعم الفندق خرج للتجول. شعر كأنه أغمض وفتح عينيه فوجد نفسه في طنجة.

وهو أمام باب الفندق تناهت إليه أنغام مكتومة من الملهى الليلي حملتها إليه أمواج الهواء البحري. خرج طابور من السياح رفقة ثلاثة

مرافقين، ومشوا في اتجاه البحر. بقي الطالب الجامعي، هادريان، يمشي وراءهم كأنه ضمن الوفد، حتى عرف وجهة الكورنيش المضاءة بشكل جيّد. كان أغلب السياح في أعمار تفوق الستين، ولم يرَ هادريان سوى شابتين رجّح أنهما ألمانيتان. أصبح مترعًا بالأفكار والمشاعر وروح المبادرة. اتّقدت غريزة الباحث الشاب. انطلق وحده نحو الشاطئ كأنه في برية أسطورية. راقب من بعيد كيف يمشي وفد السياح مثل الدُّمى وراء مرافقيهم.

توجد أمام الشاطئ مطاعم وفنادق شاهقة، بداخلها حانات حديثة يرتادها رجال يعتمرون قبعات مما يعطيهم مظهر رجال من البرتغال. الحدائق جميلة ومُعتنى بها أشدّ وأعمق ما تكون العناية. مشى الطالب الفرنسي الطموح ببطء. اختفى عن أنظاره وفد السياح. اجتاحته رغبة التمدّد فوق الرمال. كل شيء يحدث في ذهنه ببطء أيضًا كأنه يفكر على إيقاع سيره. تحسّس في جيبه الرسالة التي حملها من جاك ديريدا إلى جان جونيه، يوصيه فيها بالعناية بهذا الفيلسوف الشاب. أخرجها ونظر إليها تحت أضواء الشارع. نزع نظارته وقرأ أسطرها الأولى ثم أعاد النظارة إلى عينيه والرسالة إلى جيبه. يمكن لهذه الرسالة أن تجعله صاحب حظوة عند جونيه كما يمكن أن تجعله ضحية لما يمكن أن يعتبره مستقبِلها إملاءات فلسفية مضجرة. كتب ديريدا مطولا عن العلاقة بين الأدب والسياسة، وعن نقد العنف، عن الهوية واللغة وحرية التفكير والكتابة. لكن هادريان يتذكر نصيحة أسداها له ديريدا:

«تحدّث عن الفلسطينيين، إنه يحبهم كثيراً. وحين يحبّ كاتبٌ شعباً ما مثل هذا الحب معناه أنه سيكتب عنهم كتاباً أو أكثر».

***

أول شعور سيطر على هادريان وهو يصل إلى طنجة هو أنه لا يلج مكاناً فارغاً، بل عالماً ممتلئاً سيجد مكانه فيه ببساطة. أول ما وصل إليها شعر بنفسه متوتّر الأعصاب. ترك أغراضه في الفندق ونزل تحت سماء رمادية قبل أن يهطل المطر الغزير، وتهبّ الريح القوية. بعدها سقط المطر سيولا في تلك الليلة. أخبر رجلا في الخمسين من العمر كان في الاستقبال أنه يريد أن يستيقظ في الخامسة. نظر الرجل إلى صحيفة أمامه ورفع رأسه نحو هادريان ثم أخبره:

- يقولون إن المطر سيتوقف في حوالي الرابعة صباحاً.

كل شيء مرّ من هذه الجملة بين هادريان ورجل الاستقبال، واسمه حسن. سترابطهما صداقة من تلك الصداقات التي تبدأ قوية من الوهلة الأولى. كان المغاربة في تلك الحقبة يربطون صداقات قوية وعفوية مع الأجانب الذين ربما يكونون سبباً في هجرتهم إلى أوروبا.

في سكون ليل طنجة، استوى هادريان في سريره وبدأ يقرأ مسرحية جونيه «الستائر». من اختصاص جونيه إيقاظ مشاعر التعاطف مع البسطاء. دفن رأسه في الكتاب وهو يحلم باكتشاف أشياء جديدة. تعرّف بسرعة على تلك النبرة الإنسانية التي تتسرّب بسرعة إلى ذهن القارئ.

وهو يقرأ حضر إلى ذهنه انشغالات الفيلسوف الإنساني «إيراسم». من هنا سيبدأ مشروع هادريان: المقارنة بين جونيه و«إيراسم». ذلك يتطلّب صعوداً في الزمن، وغوصاً في تربة أصلية قديمة. بقي يقرأ وهو يتحكّم في أفكاره وتأويله وتخيّلاته. لابدّ أن يكون في منأى عن الأفكار المسبقة. نظر بثقة إلى الكلمات التي كان يشعر بها تنزل من السماء وليست موجودة على أوراق كتاب. كان مستعدّاً لأن يبقى الليل كله على هذه الحال. شيئاً فشيئاً بدأ يتنازل للكلمات عن وجوده الضئيل أمامها. أصبحت أكثر قوّة منه، جميلة وشاعرية وتصدر منها أصوات كالتي تصدرها الأجراس. كل شخص يمكنه سماعها كما يسمعها هو الآن، صافية ومتضائلة مع مرور اللحظات. هذه الكلمات قد تكون بالنسبة للبعض مجرد هجوم عابر على الوحشية المتنامية في الكون. لكن لو كانت مجرد ذلك فقط لما استمرت في الوجود منذ الزمن الذي كُتبت فيه إلى اليوم وكأنها أفكار حديثة الصياغة. كلماته الجميلة تتحكّم في كل شيء من البنية إلى الإيحاء، وتذهب بالأفكار في كل الاتجاهات كأنها ريح قوية تُخيف الأكواخ وتكسر الأغصان اليانعة. دور هادريان الآن، وهو يقرأها، أن يمنحها قوة أكبر، وحرية أكثر. من يراه يقرأ يتخيل ريحاً وناراً. يجب قراءة جونيه في أكثر الظروف مثالية، هذا على الأقل في فرنسا التي بدأت تعرف معنى الاختلاف منذ أدركت أين تكمن الثروة والتطور. لقد أصاب جونيه ببراءته الأصلية. لقد استحوذ فطرياً على كل شيء في هادريان وكأنه لم

يقرأ كاتباً آخر غيره قبل الآن. والنصيحة الثانية التي أسداها له ديريدا: «لا تطرح عليه أسئلة محرجة».

ماذا كان يفعل جونيه وهو يؤلف المسرحية؟ كيف كان يعيش ويفكر ويكتب؟ كم من يوم عاصف كُتبت فيه؟ هذا ما راج في رأس هادريان، قبل أن ينهض من أجل إغلاق النافذة التي ظلّت مفتوحة منذ ولوجه الغرفة. إن أشدّ ما ينبغي الاهتمام به هو عدم إصابته بنزلة برد أو عودة آلام الظهر. هذه الاحتياطات ضرورية حين تنتقل إلى بلدان الجنوب في فصل الشتاء. وما على المرء سوى انتظار الأيام المشمسة القادمة التي يزهر فيها كل شيء، بما في ذلك القلوب.

لم يكن هادريان يعرف شيئاً عن جونيه في أول الأمر، إلى أن حدثهم أستاذ اللغة الفرنسية. كان يتحدّث عما أسماه «مشروع جان جونيه». ظل الأستاذ ذو الوجه الذي تظهر منه سريرته الطيبة يحدثهم عنه حتى أصبحوا يعرفون أدق المعرفة، ويتشوّقون لرؤيته واللقاء به. استسلم لهذا الشوق عدد كبير من التلاميذ، ذكوراً وإناثاً. لكن كان هادريان وصديقته ماريان، الشقراء النحيفة، من أكبر من استبدّت بهم رغبة كل ما كتب جونيه. كانت ماريان تكتب القصص وتهوى قراءة وجمع الكتب التي تحتوي على أسرار الكُتّاب وعالمهم الخاص منذ خلقوا إلى أن تنتهي بهم رحلة الحياة. كانت تكتب قصصها في الليل وفي الصباح تعطيها لهادريان ليقرأها في مساء نفس اليوم، وفي الصباح يعيدها إليها مع بعض الملاحظات، التي

كانت تقوم ماريان بإعادة التفكر فيها في الصباح الباكر، حين تظهر خيوط قليلة من الشمس من وراء سحب كثيفة داكنة. حين تكون الشمس في قوة ظهورها على العالم، تكون الأفكار أيضاً كذلك. حين تطل الشمس قوية ذلك هو موعد مراجعة ما كتبت وما كُتب عنك. تلك هي فكرة ماريان التي اقتبسها هادريان وظل يمارسها إلى اليوم.

أدرك هادريان، منذ شرع في عمله على أعمال جون جونيه، أن تغيّراً كبيراً بدأ يسيطر عليه. وضع وجهه فوق الوسادة وبقي يفكّر في كل ما قرأه عن جونيه. أعاد النظر من جديد في صورة نادرة التُقطت لجونيه رفقة جان بول سارتر. ما الذي جمع بين كاتب دائم الارتحال، بوصلته روح ملتهبة ولا يرتدي إلا الألبسة الرثّة، وفيلسوف أنيق ومنظّم في الحياة والعمل والتفكير؟

فكّر في الاتصال بماريان، لكنه بقي يفكر في نمط الكلام الذي سيقوله لها. فهو حديث الوصول إلى طنجة، ولم يلتق أحداً لحدّ الساعة، إنه يعلم بوجود بيكيت وتينيسي في طنجة. ولم يذهب بعد لفندق «المنزه» للقاء بجونيه. سيتصل بها حين يلتقي أحداً من هؤلاء ليكون الاتصال إعلاناً واقعياً صادقاً عن بداية العمل الذي جاء من أجله. ستفرح ماريان كثيراً بالأمر، وستحاول الاتصال بديريدا فور سماعها هذه الأخبار، فهي تحبه كثيراً وتسعى دوماً لخلق ذريعة للاتصال به. وديريدا أيضاً يُكنُّ حُبّاً أبوياً وعلمياً لماريان. لم يكن هادريان ينتقد هذا الحب ما دام كل شيء

يقوله ديريدا لماريان يصل إليه بعد مروره من ذهنها، وهذا الشيء على كل حال لا يتجاوز النصائح العلمية ولوائح كتب ينبغي قراءتها. تأتي ماريان بالنصائح واللوائح وتطرحها أمامه ليبدأ هو الفرز والبحث، ذلك أن نصيحة تقال لأنثى قد لا تُقال لذكر. إليكم الوضعية التي تنقل فيها ماريان لهادريان ما قاله ديريدا؛ يتقابلان ثم تمسك يده، تفكّر، ثم تميل وهي ممدودة اليدين كأنهما يستعدّان لأداء رقصة الفالس. ينحني هادريان نحوها انحناءة خفيفة، ثم تنقل يدها نحو وجهه وتمسكه مثلما نفعل حين نريد إطعام عصفور صغير. تتحسّس عظام وجهه ببطء ثم تخبره بكمّ هائل من المعلومات والأخبار. تقرّب فمها من فمه دون أن تقبّله، وتستمر الكلمات في التدفّق. يحسّ هو بكلمات وأفكار جديدة كل الجدّة كأنها ليست من هذا العالم. يفهم كل شيء قيل، ويعرف جزءاً ضئيلاً من عناوين الكتب. كل شيء يمكن الحصول عليه من المكتبة الوطنية أو من مكتبة الجامعة. لكنها أكّدت له أن كل عناوين المراجع تلك موجودة في كتب ديريدا، المعروف عنه أنه لا يذكر لطلبته سوى الكتب التي قرأها واعتمد عليها واستفاد منها. أفلت يده من يدها وأمسك أنفها الدقيق وهو يقول: «يا جنية، تستحقّين جائزة». المعلومات تصل إليه نظراً لأهمية ما تحتويه وعظمة ووقار مصدرها.

بدأت طنجة تبرد كلما تقدّم الليل. استنفد هارديان كل طاقة السهر لديه. لكن جسده، والطاقة الكامنة فيه، ما زالا تحت سيطرته. في صباح

يوم الغد سيعمل كل ما يستطيع للقاء بجونيه، سيذهب للقاء به في فندقه قبل المغادرة. وهناك أيضاً برنامج للقاء بيكيت في حانة «باراد». كتب أحد الصحفيين قبل أسبوع إن بيكيت يتردّد على الحانة ويستمتع بعزف «مدام برودي» على البيانو. يتمنى بيكيت، وهو يستمع لذلك العزف الحالم، لو خرج الجميع من الحانة وبقي وحده ينصت ويتذكر الخريف الماضي الذي قضاه في مدن جبلية بفرنسا، تنقّل بينها وحيداً وبارعاً في كل شيء، رغم البرد الشديد. يستمع وينظر بأدب إلى وجه مدام برودي التي تعزف وهي مستقيمة الجلسة، دون تمايل ولا انحناءات كما يفعل جلّ عازفي البيانو. لا مجال هنا للآذان الفضولية. لا وجود لها على الإطلاق، إذا دخلت ماتت. بيكيت يستمع، تارة يبتسم وأخرى يهز رأسه هزات خفيفة. يتجول وحيداً في طنجة، زوجته أصيبت بنزلة برد حادّة، وهو ليس له الحق في أن يمرض، كما أجاب ساخراً صاحب الحانة.

استيقظ في الصباح الباكر، ومباشرة بعد تناول وجبة الفطور خرج للمشي ببطء على طول الشارع المؤدّي إلى فندق «المنزه». بقي يفكّر في الصيغة المناسبة لمفاتحة جونيه في الموضوع. لأن الأمر يتطلّب أولا التعرّف عليه أكثر، قبل المرور إلى الحديث في الأمور العلمية. والأهم من كل ذلك عليه ألا يبدو في هيئة طالب مسكين قطع البحر الأبيض المتوسط للقاء بالكاتب الذي سينجز حوله أطروحة دكتوراه. هذا أمر ينبغي أن يتجاوزه بسرعة حتى لا يستهلك مشاعره ووقته، وربّما قد يسهم حتى في

إفشال اللقاء الأول، وهذه كارثة لا يستطيع تحمّل نتائجها. كما أنه لا يستطيع الاتصال بديريدا مجدّداً من أجل التوسّط، وحتى إن بقي ذلك هو حبل النجاة الأخير، فربّما قد لا يجد كيف يتّصل به، فهو دائم التنقل بين فرنسا وأمريكا في هذه الأشهر الأخيرة.

تحسّس رسالة ديريدا في جيبه، ثم تابع السير وهو يستمتع بضوء طنجة الشمسي الذي كثيراً ما امتدحه ماتيس.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا حين وصل هادريان إلى الفندق. توجه إلى مكتب الاستقبال وسأل عن السيد جونيه. فأشار موظف الفندق بإصبعه إلى رجل يجلس في قاعة فسيحة:

- السيد جونيه؟ إنه جالس هناك.

مشى هادريان ببطء نحوه. حين اقتربت خطواته من سمعِ جونيه لم يرفع هذا الأخير رأسه، دليلاً على أنه لا ينتظر أحداً. كلم هادريان نفسه: «هل أنا قادر إلى تحويل هذا الرجل الجالس والمطمئن إلى صديق؟».

- صباح الخير سيد جونيه، أنا هادريان لاروش...

قبل أن يكمل هادريان تقديم نفسه بالطريقة التي تهيأ لها طوال الليل وهذا الصباح، نهض جونيه ومدّ يده وهو يبتسم، فقال جملة أدخلت سروراً إلى قلب هادريان:

- مرحبًا هادريان، كلّمني عنك جاك ديريدا قبل شهر.

لا داعي إذن لإخراج الورقة. صحيح ما قاله جاك عنه: «إن جونيه يميّز بين الوضيع والرفيع، لا تقلق». دعاه إلى الجلوس وسأله عن شيء يشربه. تردّد هادريان لكن جون ينادى بأعلى صوته: «إبراهيم». وما هي إلا دقيقة حتى جاء إبراهيم وفي يده كأسان من الشاي المغربي. بقي جونيه صامتاً وهو ينظر إلى سقف الفندق وفي يده كأس الشاي.

يُشاع في فرنسا أن جونيه كلما ازداد سنّه وشهرته يصبح غامضاً شيئاً ما. لم يصدر هذا الحكم جانبول سارت أو جاك ديريدا أو رولان بارث، بل بعض أساتذة الأدب الفرنسي في الجامعة. وقد سمع هادريان من أستاذ متخصّص في رواية القرن التاسع عشر، أن غموض النص الأدبي الفرنسي بدأ مع جان جونيه. ليس غموض اللغة بل غموض التصنيف. فباستثناء المسرح لا نعرف أين نضع جونيه في الرواية، أم الشهادة، أم الروبورتاج، أم الشعر؟

حاول هادريان التخلص من هذه الأحكام المسبقة، فبادر بسؤاله:

- هل تقبل سيد جونيه أن نلتقي مرّة في الأسبوع من أجل استشارتك في العديد من القضايا التي توصَّلتُ إليها وأنا أبحث في كتبك؟

وضع جونيه كأس الشاي الساخن وأجاب وهو يبتسم:

- نعم ممكن جدّاً، يسعدني ذلك. كم تنوي البقاء في طنجة؟

أجاب هادريان وهو يضع كأس الشاي مثلما فعل جونيه بالضبط:

- شهراً كاملا.

أضاف جونيه بحيرة وبصوت خافت:

- لكن اعذرني إن لم أعرف كيف أستجيب لأسئلتك.

ضحك هادريان وتراجع قليلا إلى الوراء:

- المهم هو ألا تبقى صامتـاً أمام أسئلتي.

أجاب جونيه بسرعة اكبر:

- لكن عليك أحيانـاً أن تؤمن بأن كتاباً مّا لا مؤلّف له، رغم أن مؤلّفه يجلس جنبك. ذلك أمرٌ مفيد جدّاً للبحث.

طرح هادريان سؤالا بدا أن جونيه لم يكن ينتظره:

- هل حصل هذا مع جان بول سارتر؟

فكّر جونيه مطولا وفي ذاكرته يعبر شريط ذكرياته مع سارتر:

- كان سارتر يخفي عنّي كتابه. لقد كـان حـرّاً جدّا في تأليفـه، وكـان يُحجب عني تحليلاته وتأويلاته اعتقاداً منه أنني سأرفضها جملة وتفصيـلاً. في حين أنه ليس من حقّي التدخل إطلاقـاً في عمـل فيلسوف يؤلّف كتاباً عنّي، أو إن شئت بشكل أدقّ: عن نفسه هو وكيف يراني. لأن كتابه في النهاية هو تطبيقات لأفكاره الفلسفية على كلماتي وأفكاري.

ازدادت حماسة هادريان للحوار:

- لكنكما كنتما تلتقيان.

شرب جونيه القطرة الأخيرة من الشاي ثم أجاب:

- نعم كنا نلتقي، وهناك صور كثيرة منشورة لظهر فيها في المقهى أو في الشارع. وهي صور منشورة وأصبحت مشهورة بل ومحطّ تعليقات كثيرة.

قاطعه هادريان:

- تعليقات؟ مثل ماذا؟

ضحك جونيه وكلماته تخرج من بين حلقه المليء بالضحك:

- ما الذي يجمع بين أديب لا يُسمع عنه إلا كلّ سوء هو أنا، وفيلسوف لا يُسمع عنه إلا كلّ خير هو سارتر.

ازدادت حماسة هادريان:

- وما رأيك أنت في هذا التعليق؟

مال جونيه نحوه ورفع صوته قليلاً:

- سارتر فيلسوف وأديب عظيم، تعرف لماذا؟

- لماذا؟

- لأنه كان يزيّن أفكاري، ويجعل كلماتي أكثر جمالا مما كانت عليه في كتبي. لم يُشغل نفسه بالشياطين الموجودة داخل كتبي، بل بالملائكة التي تُفرد جناحيها فيشعر القارئ كما لو أنه داخل

فردوس وليس داخل جحيم. إن كتبي في النهاية مليئة بتجاربي الشخصية، وأفكار سارتر هي شخصية أيضًا. هذا اللقاء بين «خاص» جونيه و«خاص» سارتر هو ما أعطى قوة للتحليل، وجعل القراء والباحثين في كل العالم يتمسكون بأفكار سارتر عني. فأصبح القارئ في كل مكان ولغة وثقافة يتبنى ما كتبه سارتر عن جونيه وما كتبه جونيه عن نفسه، ولو لم يولد أو يسكن هذا القارئ في فرنسا.

أخرج هادريان من جيبه مذكّرة صغيرة وبدأ يسجّل ما قاله جونيه في هذه اللحظة المشرقة. فقد شعر أن جونيه يستخدم فكره العظيم وعباراته الدقيقة للتعبير عن فرحه. كان يتكلّم كأنه يكتب. كما أظهر أنه شديد التمرّس على الحوارات الأدبية. حين يكون واضحًا فإنه يدعو محاوره إلى الانتقال إلى قضية أخرى، وحين يكون غامضًا فهو بذلك يوجّه له دعوة كي يحفر أكثر في نفس الموضع.

جاء إبراهيم من تلقاء نفسه وقدّم لهما كأسين من الشاي. شكره جونيه والتفت إلى هادريان ثم قال:

- هكذا هو المغربي، حين يقدّم لك الشاي فهو يرحّب بك أشدّ ما يكون الترحيب. اشرب يا هادريان إنه شاي طيب.

ما كان من هادريان إلا آن أعاد كراسته وقلمه إلى جيبه حتى لا يُثقل على جونيه في هذه الجلسة الأولى. ثم توجّه إليه بالقول:

- أشكرك سيد جونيه على هذه الجلسة الممتعة، وعلى هذا الشاي اللذيذ. دعني أنصرف الآن، وسأعود إليك في نهاية الأسبوع.
- نعم تفضّل. عندي لقاء هذا الصباح مع كاتب مغربي اسمه محمد شكري، هل تعرفه؟
- نعم، سمعت عنه من كاتب مغربي صديق لجاك ديريدا اسمه الطاهر بنجلون.
- لو ترغب في رؤيته تعالى معي.
- فرصة أخرى سيد جونيه، ما زلت أشعر بتعب السفر. أشكرك.
- كنت سعيداً بهذا اللقاء حقّاً. لو احتجت أي شيء اتصل بي في الفندق.

نفّد هادريان نصيحة ديريدا حرفيّاً: «لا تجامله مجاملة ظاهرة أو تُمالقه مُمالقَة المشايع، ذلك أشدّ ما يكرهه جونيه. ومن المحتمل ألا تراه مجدّداً. لم أرَ في حياتي شخصاً يكره ويحتقر المشايعين مثله».

وقد أفاد هادريان أيضاً من رأي آخر لأستاذ شاب كان يدرّسه مادّة الفكر والأدب الفرنسيين في الزمن الحديث، مفاده أن جونيه، رغم كل ما قيل عنه، هو صاحب فضيلة. وقد كان يزوره كلما كان بباريس، ولم يرَ منه

يوماً نميمة، ولا ترديداً للأقوال الشائعة، ولا تقليداً للأساليب الشائعة. كما لم يسمع منه يوماً مدائح أو شائعات أو شكاوى. وليس هناك أشدّ وطئاً على نفسه من الاتهامات والأكاذيب.

كل هذه الأشياء، وأكثر، شعر بها هادريان، بل رآها تشعّ من شخص جونيه مثل الضوء اللّامع. مشى إلى باب الفندق وهو يشعر أنه تمكّن بنجاح من تطبيق القواعد التي يمكن أن تربط بين كاتب عظيم وقارئ وباحث شاب يملك مواهب جيّدة لفهم وتطبيق تلك القواعد. وربّما قد يعود هذا التطبيق الناجح إلى التناظر في الطباع والغرائز والمواهب. إلى درجة أنه يمكن لأحدهما أن يصبح هو الآخر.

عاد هادريان للسّير في شوارع طنجة مغموراً بسعادة رغب في نقلها إلى ماريان التي ستنقلها فوراً إلى ديريدا. كما قام برسم خُطّة في ذهنه سيتمكّن بفضلها من التفريق في بحثه بين ما هو صائب وما هو خاطئ، بين ما هو ضروري وما هو زائد في بحثه، سيبعثها حال الانتهاء منها إلى أستاذه ديريدا. سيظل هكذا كلّ يوم في طنجة، يبحث ويقلّب الحقائق والأفكار والجمل على كل الوجوه حتى ينتهي بحثه الذي التزم ديريدا بنشره لدى أفضل دار نشر في فرنسا، إن انتهى منه في الصيف القادم.

***

الفنادق أمكنة حيادية، لا يعرف الناس كم من الوقت سيقيمون فيها. لكنها تكفيهم لإنجاز مشاريعهم المستعجلة ثم يعودون من حيث أتوا.

يفضل بيكيت الغرف التي تطل على البحر أو على الأشجار في أرصفة الشارع. وفي الصباح الباكر ينزل للتجول على الرصيف، وإذا كان الجو ماطراً يحمل معه مطريته السوداء. تتناسل الأفكار في رأسه وهو يمشي. يصادف الناس على طول الشارع، يمشون مثله ويفكرون مثلما يفكر. قائمة الأفكار في رأسه تتسع كلما طالت إقامته في طنجة، وقائمة الذكريات تتضاءل. ينظر في وجوه الناس الفقراء الذين يمرّون أمامه، يقرأ الأفكار الغامضة والمشاعر الكثيفة. كانت له هيئة محلّلٍ نفسيٍّ. قال له إلياس كانيتي حين التقى به في مراكش منذ سنتين إن المغاربة يظنونه طبيباً بسبب النظارات وربطة العنق. والنظارات وربطة العنق تجعل الناس أيضاً في طنجة يعتقدون أن بيكيت يعمل طبيباً. النظارات والشكل وربطة العنق والوقار الظاهر تجعل من كل أوروبي طبيباً في نظر الناس. الأطباء أيضاً يجتنبون النظر في الوجوه، ويسيرون بطريقة مميزة. مشية بيكيت على الرصيف تتسم بالحذر. هناك حفرٌ كثيرة، وقطعٌ من الرصيف مُقتلَعة من مكانها، حين يجدها أمامه يدفعها نحو مكانها برأس مطريته. ينظر الناس إليه مطولاً كأنهم يريدون تخمين أفكاره. هذا النوع من التصرف راجع إلى كونهم يعيشون طوال الوقت وسط أزقة ضيقة، أغلب الوجوه فيها مألوفة.

إن النحل داخل الخلية ينظر إلى بعضه طوال الوقت، ويصطدم طوال الوقت.

الناس يعانون من ارتفاع الرطوبة في الشتاء. تعوزهم وسائل التدفئة، فيلجؤون لوسائل كثيرة لتدفئة منازلهم، أشهرها أن يأتي أحدهم بالبنزين ويصبّه في إناء حديدي صغير يضعه في مركز الغرفة ثم يرمي داخله عود ثقاب مشتعل، فتنتشر غيمة من نار وهواء دافئ في جو الغرفة. وعليه أن يكرّر هذه العملية على رأس كل نصف ساعة. وإذا لم يفعل تراه يلوذ بسريره فيبدو في هيئة مريض اقتربت ساعة رحيله. ويمكن لهذه العملية أن تكون لها تفاصيل وخواتم غير متوقعة لا تدع الناس يفلتون من الموت. فإن كان عمر الواحد أربعة عقود يكون قد اجتاز أربعين سنة ليصل إلى هذه اللحظة الدرامية، ينعطف فيها نحو وجهة أخرى تجعله حاضراً لكن دون أن يُرى.

سيلتقي هادريان ببيكيت صُدفة في شارع يجتازه بيكيت كل صباح نحو مقهى باريس. وجد هادريان أن التعامل مع صاحب «في انتظار غودو» شيء صعب. فهذا الرجل يبدو من ملامحه الصارمة أنه يؤدّي واجباته جادّاً وحذِراً. فكيف يتوقّع أن يأخذ راحته معه في لقاء عابر.

لا شكّ أن هادريان سيشعر بالسّأم من الدراسة والبحث. ستأخذه طنجة أخذاً، وستصله أخبارٌ عن بولز وشكري وبيكيت وبوروز وتينيسي

والمرابط. لقد قرأ كتباً كثيرة في صباه تشير إلى هؤلاء. لكن حيرته تزداد اليوم كلّما فكّر في اللقاء بهم، فكيف سيجيب إن يُسأل؟ كيف سيتكلّم وهو حائرٌ بينهم؟ كيف يتفوّه وهو يرى بصحبتهم طريقاً طويلا يمتدّ، وأفكاراً وتجاربَ كثيرة تزداد؟

إن بيكيت مبالغ في الحياد، وتينيسي مسرف في الأقوال، وشكري مكثر في الكلام، وجونيه عبقري في التكهّن، وبوروز صاحب قلب وجسم يعيشان وحدة، والمرابط خبير في كل شيء. فكيف سيجتمع هادريان بالربيع والخريف معاً؟

حين يكون جالساً في غرفته بالفندق، ينهض ويبدأ يفكّر في المسافات التي ينبغي أن يجتازها للوصول إلى جونيه، كما لو أن جونيه كائن مقيم في الصحراء. ينبغي أيضاً الذهاب للبحث عن لغته التي تقيم أبعد منه في نفس الصحراء اللانهائية.

كل الكلمات المكتوبة من قبل، التي كانت سوداء على ورقة بيضاء، اختفت الآن. لم تعد مقروءة ومفهومة كما من قبل. لم تعد موجودة، فلماذا اختفت إذن؟ ما الذي أفزعها؟ هل لقاء الأمس بجونيه غيّر الأبجدية وأضاع المعنى الذي كان في الأصل شبه مفقود؟ هل وُلدت معاني جديدة عوّضت المعاني الأولى وخنقت مصيرها؟ هل يصحّ للمعاني أن تقتل بعضها بهذا الصمت وبهذه الوحشية؟ هل قلق الفكر ينبثق

فجأة من كل الزوايا المظلمة؟ كيف يمكن أن تقول شيئًا تعرفه وحين تقترب منه تجد نفسك أمام ستائر سوداء مخيفة تأتي لتشوّه معالم الأشياء الواضحة؟

كان وجه جونيه واضحًا وكلماته تؤدّي المعنى بأفضل ما يمكن أن تقوم به الكلمات، لكن السرّ العميق لذلك الوجه ولتلك الكلمات كان خفيًّا ومستعصيًّا. قال كلّ شيء لهادريان. وهادريان تلقّى القول كعمق مليء بالمعنى. لكن فجأة ظهرت علامات سوداء في القول وضباب في المعنى. فلماذا تحدث مثل هذه الأمور؟ إن القول يخون المعنى، والمعنى يخون القول في تناوب على دور الخيانة كما لو أنه فعل نبيل تختلقه الأقوال والمعاني لتحصين النفس. لكن ضدّ من يا ترى؟

بقيت الأسئلة هكذا تصعد وتتفرّع في ذهن هادريان مثل سنبلة، وهو يسير على طول الكورنيش الذي كانت تتعثّر عليه خطواته منذ وصوله في الأيّام الأولى. كلما مشى على الرصيف المستقيم كبرت السنبلة وتفرّعت أكثر. لكن المعنى لا يبدو بعيد المنال إن بقي هادريان يبحث عنه.

في مثل هذه الأمكنة تهجم الأسئلة على الرؤوس. ومن غريب الأمور أن هذه الرؤوس تعقد الأمل على الأجوبة التي تظنّ أنها لن تتأخّر، ما دامت تلك الأسئلة، مثلها مثل الأجوبة، هي بناتها. تظل أصواتها تتردّد قادمة من جميع الجهات، لكن الرؤوس لا تصدّها أو تغلق أبوابها في

وجهها، إن الأسئلة والأجوبة ضيوف مرحّب بهم في أي وقت أتوا فيه، رغم كل ما يُحدثه قدومها من ارتجاجات مفاجئة.

في هذه الظهيرة التي يسير هادريان تحت ضوئها اللامع نحو البحر، وصل ويليام بورّوز إلى طنجة. كان يحمل بيده اليمنى حقيبة بُنّية متوسطة الحجم، وتمسك يُسراه بيُمنى فتاته الصينية يوي تشن. كان تبدو على يوي علامات الدهشة، ما هي في الحقيقة سوى نظرات ساهمة نحو السماء والبحر والسفينة التي كانت تشتغل فيها. نظرات الوداع الأخيرة. لم تكلّم أحداً بخصوص قرارها الذي اتخذته دون إقناع من ويليام. قالت للعامل الذي كان يساعدها إنها ستنزل في طنجة مع الأمريكي ويليام بورّوز وتعود في الصباح، إذ إن السفينة سترسو في ميناء طنجة طيلة ليلتين. لم يعرف كيف يجيبها لكنه أومأ لها برأسه وقال مبتسماً وغامزاً بالعين اليمنى: «ليلتان سعيدتان يا يوي». أما ويليام فذكّرها وهو يضحك بأن تحمل معها عودي أكل الطعام، فعادت بسرعة إلى المطعم وأخذت عودين بنّيين لم يُستعملا بعد.

يمكن للصينيين أكل الطعام دون العودين، لكنهما يمثلان نزعة شكلية لا يستطيعان التخلّي عنها. كما أنها علامة عن استمرار المجتمع القديم في الحياة الحديثة لكل صيني. كل شيء تغيّر في المطاعم الصينية إلا أعواد الأكل لم تتغيّر. مثلا كانت المطاعم مقسّمة إلى غرف صغيرة، لكنها

بدأت تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى أمكنة فسيحة وبسيطة لا غرف فيها. بدأ الصينيون يرون أن أكل الطعام داخل غرف صغيرة بالمطاعم لا يليق إلا باللصوص.

بحكم مهنة يوي تشن، وعملها الكثير في المطاعم، في البرّ والبحر، فهي تحمل معها في حقيبتها رواية «الذَوّاقة» للكاتب الصيني «لو وين فو»، وهي رواية «الطعام» هو شخصيتها الرئيسية. وبتأثير من هذه الرواية أصبحت يوي تمتدح المطاعم الصغيرة الخالية من الغرف، معتبرة تغيير المطاعم الصينية مظهراً آخر من مظاهر الثورة المستمرة التي يقوم بها بلدها. ليس تغيير شكل المطاعم بل حتى كيفية التعامل بين الزبائن والعاملين. لقد تغيّر كل شيء في هذا الصعيد الدال. إنها قفزة عظيمة على الجميع تقديرها وتقدير الجهود التي بُذلت من أجل تحقيقها.

بقي ويليام ممسكاً بيد يوي إلى أن وقفت سيارة أجرة نقلتهما إلى فندق صغير بمنطقة «السوق الداخل». حين سألته يوي عن جودة المطاعم في المنطقة التي سيقيمان فيها، التفت نحوها وأشار بيده إشارة تدلّ على وجود مطاعم كثيرة وجيّدة.

لا يعرف ويليام شيئاً محدّداً عن يوي. وكما ظهر من تفكيره السابق، والذي يمتدّ من التقائه بها إلى هذه اللحظة، فإنه لم يقم بشيء لكي يعرف هذا الشيء المحدّد. في حين قامت هي بعدة خطوات وطرحت عدّة أسئلة

وقرأت بين سطور كثيرة وأجرت استيضاحات لا تُحصى كي تعرف حكايته. وأهمّ شيء عرفته لحدّ الآن هو أن ويليام يحمل معه مبلغاً مهمّاً من المال لكنه يعمل على إظهار العكس. لقد كانت طوال الوقت يتحسّس جيوبه، كما أنه حين أخرج محفظته رأت أنها منتفخة بأوراق نقدية من عملات كثيرة. وقد ظلّ يبحث عن العملة المغربية قبل أن يُعيد المحفظة إلى جيب معطفه الداخلي، وينقل يده إلى جيب سرواله الخلفي ليخرج مرّة أخرى عملة مختلطة كانت بينها أوراق مغربية.

وقد فسّرت يوي تصرّف ويليام بهذه الطريقة، وإظهاره لكل تلك المبالغ أمامها، بأنها لا يظهر عليها أنها امرأة تريد أن تجرّد الرجل من المال. وويليام خبير بذلك النوع من النساء، لقد عرفهن في كل مكان وتصرّف أمامهن بعناد كي لا يأخذن شيئاً منه. فبسبب خجله وصمته كان يظهر للنساء أنه من الرجال الذين يمكن أخذ أموالهم بسهولة.

علينا عدم نسيان أمر في غاية الأهمية، وهو أن ويليام شخص مدمن على الهيروين، وذلك يفرض عليه أن يكون معه المال باستمرار حتى يمكنه شراء الجرعات اللازمة لتوازنه أو لانتشائه. هكذا عاش في نيويورك ومكسيكو، وهكذا عليه أن يعيش في أي مدينة أخرى. هذا إضافة إلى أنه، بصفته مدمناً، أصبح يتمتّع بقدرة لا حدود لها على استيعاب الكحول. بل إن حياته الاجتماعية، وبسبب الإدمان أيضاً، كانت تفيض بالعلاقات

وبالأحاديث مع أناس يلتقي بهم للمرّة الأولى. وإن هذه الرفقة مع يوي تعود إلى هذا الجانب. وقد رأينا كيف أنه تحدّث أمامها بأسرار خاصة جدّاً.

وجد ويليام ويوي أمامهما في باب الفندق رجلاً في منتصف العمر. تعرّف عليه بسرعة. وضع ويليام حقيبته على الأرض وأفلت يد يوي وتقدّم نحو الرجل وهو يرسم ظلّ ابتسامة صغيرة. مدّ الرجل يده مرحّباً بهما. تحدّث معه بإنجليزية مفهومة عن مدّة الإقامة وسعر الغرفة لمدّة ثلاثة أشهر، ثم مدّ له مفتاح الغرفة. بدت علامات ارتياح على وجه ويليام الذي صعد الدرج بسرعة، فيما بقيت أنفاس يوي متلاحقة ومسموعة وراءه. سمعت صوت انفتاح باب الغرفة الخشبي وارتطام الحقيبة بالأرضية. نادى ويليام بملء الصوت:

- أينك يا يوي؟

كان فمه جافّاً والصوت خرج بنبرة مختلفة حتى ظنّت يوي أنه ليس صوته. وقبل أن يقوم بأي شيء آخر، من قبيل تفريغ الحقيبة وترتيب الملابس، والنظر إلى مستلزمات الحمّام، قبل كلّ ذلك توجّهت يوي بهذا السؤال لويليام:

- هل أنت متأكّد من أنك ستقيم هنا لمدة ثلاثة أشهر؟

اقترب ويليام أكثر من يوي وقال:

- السوق الداخل مليء بالفنادق، يمكن أن أغيره في أي لحظة. لكن دعينا نرتّب أغراضنا ونخرج للقيام بجولة في طنجة.

في الحقيقة خطرت لويليام فكرة تغيير رأيه. فكّر في حمل حقيبته والتوجه إلى فندق آخر يقيمان فيه ليلتين، وحين ترحل يوي يعود إلى فنادق السوق الداخل. أطلّت يوي من النافذة وأخرجت يدها حين لاحظت سقوط المطر. قام ويليام بنفس ما قامت به، ثم تراجع وبدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. عادة ما يقوم بذلك من أجل تسريع الدورة الدموية. أصبحت يوي أكثر تحمّساً منه للخروج إلى السوق الذي سمعت عنه الكثير من ويليام. تمدّد على السرير وظهر كأنه يتابع نومه.

تنهّدت يوي وتراجعت قليلا وبقيت تتأمل هذا الانهيار المفاجئ الذي ظهر على ويليام. خرج من فمه كلام دون وعي منه:

- إذا أردت أن تقومي بجولة في «السوق الداخل» فتفضّلي، أنا سأنام قليلاً لقد باغتني التعب.

حينها نهضت يوي وخرجت بسرعة كأنها كانت تنتظر إعطاءها هذا الأمر. وما هي سوى عشر دقائق حتى شوهدت فتاة بكين تجلس في مقهى أسفل الفندق وتحتسي الشاي وتدخّن وتستمتع بهذه المناظر الغريبة عنها؛ أشخاص يمرون مسرعين، آخرين يحدّقون دون معنى في وجوه الجالسين في المقهى، متسوّلين من كل الأعمار، نساء ورجال وأطفال،

درّاجات نارية وهوائية تمرّ كالبرق دون مراعاة الاكتظاظ الذي يسود داخل هذه الأزقة الضيقة، بائع فواكه يحمل بضاعته على درّاجة. وفجأة تذكّرت أنها لم تطلب من ويليام إعطاءها عملة مغربية لأداء ثمن الشاي، لكن الأمر غير مقلق طالما أنها أسفل الفندق. كما أن إحساساً راودها بنزول ويليام للبحث عنها. وفجأة ظهر أمامها واقفاً يشتري علبة سجائر من المحل المقابل. نادت عليه: «ويليام، ويليام»، التفت نحوها ولوّح بيده ثم جاء إليها وجلس على مائدتها.

لم تتحمّل يوي النظر إلى الطاولة المريعة التي أمامها، لكن مجيء ويليام جعلها تشعر بالاطمئنان. طلب شاياً بدوره وبقي يدخن ويشرح لها ألوان الحياة في طنجة وهي تستمع إليه بانتباه شديد دون أن تسأل، فكل ما تريد أن تسأل عنه يوضّحه لها ويليام كأنه اطّلع على قائمة الأسئلة المختبئة في ذهنها. وحين وصل حديثهما إلى الأكل سألها:

- المطعم المجاور للمقهى يقدم طبقاً شهياً ستحبينه كثيراً.

التفتت نحوه وهي في غاية السرور:

- وما هذا الطبق؟

أجابها وهو يقوم بحركات بيده:

- لاحظت في بكين أنكم تعدّون أطعمة شهية بالقرع. هذا المطعم يقدّم وجبة بالقرع والدّجاج، كنت قد تناولتها قبل سنوات في هذا المطعم رفقة كاتب مغربي اسمه محمد شكري.

لم يدرك ويليام أنه أمام فتاة صينية. فالصينيون يحبون تقديم شروح مطوّلة حول الأكل. كما أنهم بارعون جدّاً في استعراض مواد كثيرة تتكون من خضر ولحم يمكن بواسطتها تهيئ أطباق لانهائية. هنا تدخّلت يوي:

- هل تقصد أن المغاربة مثلنا أيضاً يهيئون قرعاً مجوّفاً محشوّاً بلحم الدجاج؟

أجب ويليام بسرعة:

- أقصد أن المغاربة مثل الصينيين يعرفون أن الدجاج يناسب القرع، بغض النظر عن طريقة الطبخ.

أدركت يوي أن ويليام لا يريد الاستمرار في حديث موضوعه القرع والدجاج. صمتت وبقيت تتأمّل أصابعه النحيلة المرتجفة. غيّرت من وضعية جلوسها وبقيت تمسح بنظرها المناظر الموجودة أمامها، والممتدّة من الأزقة المتفرّعة إلى أقرب شخص يجلس معها في نفس المقهى الذي تجلس فيه هي وويليام.

جاء النادل ليقوم بجولة حول الموائد والكراسي. كان يدخّن وهو شديد الاضطراب. اقترب من ويليام الذي نادى عليه بحركة من يده:

- قل لي أنت يا صاحب الرأس الكبير، كم أصبح لديك من أولاد الآن؟

اقترب النادل أكثر واسمه عيسى:

- خمسة أطفال يا سيد ويليام.

- وكيف تطعمهم؟

- رزقهم على الله، يا سيد ويليام.

تحدث عيسى باللهجة المغربية التي كان ويليام يفهمها إلى حدود معينة. أخرج ويليام ورقة نقدية من جيبه ومدّها له، وأشار له بأن يحتفظ بالباقي.

شعرت يوي بقدر كبير من الشفقة تجاه عيسى. فهي امرأة متمرسة في التعامل مع الناس، وتعرف جيّداً معنى أن يمنحك شخصٌ مّا بعض النقود مقابل خدمة قدّمتها له. ألقت نظرة على ويليام وسألته:

- هل تحب مساعدة الفقراء؟

تردّد ويليام قليلا قبل أن يجيب:

- هنا في طنجة إذا أردت أن تساعد الفقراء فستبقى بلا مال.

أكمل جملته، وبانفعال ظاهر سوّى من رقبة معطفه الأسود القديم على الطراز الأمريكي، ونهض وهو يقترح على يوي القيام بجولة في السوق الذي كان مزدحماً بالعربات والحمّالين والمتسوّلين الذين تجمّع

بعضهم أمام المقاهي والمطاعم. بدأ المشهد في السوق يتّخذ تلك الصورة القديمة التي يفضّلها السياح الأجانب، صورة تظهر فيها نظرات الفقراء وأسمالهم وطرقهم في السعي وراء لقمة العيش، وتُسمع فيها أصواتهم الصادرة عن أجسامهم النحيلة التي أنهكتها لسعات البرد القارس وأيام الجوع الطويلة. فعدد من الناس لم يعد في إمكانهم الحصول على الطعام فأصبحوا ينتشرون منذ ساعات الصباح الأولى على الشوارع والأزقة الحيوية في المدينة، وفي أماكن «السوق الداخل»، الذي يتمكّن كل جائع، حين يدخله، من الحصول على لُقمة ودراهم يومه الطويل.

حلّت السعادة في قلب ويليام، وظهرت على محياه، فبدأ التسكّع الكبير. ومع ذلك بقيت غيوم الحزن، مما جعله يبقى ممدّداً على الفراش حتى منتصف اليوم، ولا يوقظه إلا الصرير الناعم لباب الغرفة حين تعود يوي من جولتها. ليس معنى هذا أنها تغادر الغرفة دون علم منه، بل إنها تحاول إيقاظه لكنه ينظر إليها بعينين مغمضتين ويجيبها: «اذهبي وسألحق بك».

لقد أصبح ويليام بالنسبة ليوي رجل أسرار لا مثيل له. لا تستطيع الحديث معه إلا حين يكون مستغرقاً في تذوّق قهوته. وبعدها يتّفقان على القيام بجولة في أزقة المدينة القديمة التي لا يكون أمامهما، من أجل

الوصول إلى قلبها النابض، سوى عبور زقاق طويل، واختراق زحام على مشارف المدخل. عندها تمكّنت يوي من ملاحظة هامة ويليام الممتدّة، إذ كان هو يعمد إلى مدّ عنقه حتى يتمكّن من مشاهدة الأزقة التي أمامهما. بعيداً، بعيداً جدّاً، فيما وراء كل الأزقّة، تشعر يوي بالهواء وجمال الضوء الذي يتلألأ أمامها.

بقيت يوي تنظر إلى ويليام الذي كان يمشي وهو ينظر إلى رؤوس الناس أمامه. حين بدا في الدنو من قلب المدينة القديمة شعرت يوي بصمت بليل رطب، كانت ساعة يدها الذهبية تعدّ بصبر الوقت الجميل الذي تقضيه معها برجل الصدفة الأمريكي. كانت جدائلها السوداء تتدلّى على كتفيها، وكانت بين حين وآخر تنظر إلى ويليام الذي بدأ يسرع الخطى، وتبتسم. بدأت تؤمن بسمو هذا الكائن الذي يمشي جنبها. حين يخترق النساء مثل هذا الإحساس يصبحن على استعداد للقسم بالموت من أجل الرجل الذي جعلهن يشعرن بسموه.

بقيا يسيران وسط أزقة ضيّقة صاعدة في صمت مهيمن على المكان، كأنهما يبحثان عن عشّ في أعلى شجرة. يوي ووليام، ويليام ويوي، يبحثان عن شيء مفقود. التفت ويليام إلى يوي وسألها:

- هل تستطيعين العودة وحدك إلى الفندق؟
- إنني أشعر كأنني في قاع بئر.

لا يتجاوز عرض الأزقة متراً ونصف المتر. أنابيب طويلة مليئة بالبشر والبيوت الصامتة ذات الأبواب التي تشبه الثقوب، والنوافذ المغلقة دائماً. عاد ويليام وقال ليوي:

- إذا استطعت العودة إلى الفندق بدوني أعيّنك ملكة على هذه الأزقة الصامتة والصامدة منذ قرون.
- لماذا ملكة يا سيد ويليام، دعني أعد لسفينتي دون أن تقضي وقتك في طرح هذه الرهانات. أنا جئت رفقتك لأستمتع معك في طنجة وليس لترميني في متاهة أزقتها. لماذا تريدني أن أرجع؟
- لا يا يوي، أنا فقط أمزح. هل تعتقدين أني جادّ في ما أقول؟

ابتسمت يوي وأمسكت بيد ويليام وأسرعت تتقدّمه مثل طفلة وكلها رغبة في اكتشاف هذه المدينة الصامتة.

***

على هذا النحو مرّ يومان بسرعة شديدة، يعود ويليام ويوي متأخرين للغرفة، بعد تناول الطعام في مطاعم شعبية راقت كثيراً للفتاة الصينية التي امتلأت مرحاً وسعادة رفقة ويليام. أحبّته واحترمته، ولم يعد لها أي ندم، كما في الليلة الأولى عن مرافقتها له. بدأت تحسّ بوجوده أكثر حين زارا معاً، في صباح يوم عودتها إلى السفينة لإكمال الرحلة في المساء، بيت بول بولز، الذي صادف زيارة تينيسي وبيكيت له.

حين دعاها إلى زيارة صديق أمريكي وكاتب كبير اسمه بول بولز، أمسكت يوي بيد الحبيب الغالي واندفعت أمامه لترى هذا الرجل الذي حدثّها عنه ويليام مرات كثيرة. مشت أمامه بسرعة دون أن تتعثر في الحفر، حين يجتازان الشوارع أو الأزقة، أو في العشب حين يلجان الحدائق أو المساحات الخضراء. وضعت مشطاً صغيراً على شكل مقبط في شعرها، وجمّلت نفسها بحيث بدت عيناها الصينيتان في غاية الجمال. وضعت شريطاً أزرق حول رقبتها، وارتدت سروال جينز وحذاء رياضياً.

لم يقترح ويليام على يوي زيارة بولز في بيته لو أنه لم يدرك شجاعتها وشوقها للقاء الناس. لذّ لها أن تسمع بهؤلاء الذين وردوا على لسانه، وهي لائحة طويلة من الأسماء: بول بولز، تينيسي ويليامز، صمويل بيكيت، محمد شكري، ترومان كابوت، ألان غينتزبورغ، جاك كيرواك، محمد المرابط... لكن ويليام كان يكرّر كثيرا ثلاثة أسماء هي تينيسي ويليامز، بول بولز، وألان غينزبورغ.

كانت تسمع حكاياتهم ومصائرهم وهي مندهشة، وهذا ما زاد من خوفها حين اقتربت من عتبة بيت بولز. بدأ قلبها يضرب بسرعة. كانت تحمل باقة ورد بين يديها. نقلتها من يدٍ إلى يدٍ. خائفة وسعيدة جنب ويليام الذي دقّ جرس الباب ورفع رأسه إلى النافذة في الطابق الأول. كان هادئاً وبين حين وآخر يدخل يده في جيبه ويحرّك قطعاً نقدية بحيث

يُسمَع صوتها المعدني. بقي يكرّر حركة يده داخل الجيب إلى أن أطلّت امرأة مغربية من النافذة، وما هي إلا دقيقة حتى كانت وراء الباب الذي فتحته ببطء وهي تطلّ برأسها من جديد:

- مرحباً سيد بيل.

استغربت يوي كيف تسمي هذه المرأة ويليام باسم آخر هو بيل. أدرك ويليام سبب استغراب يوي، فالتفت إليها ثم عاد وتحدث إلى خادمة بولز:

- أهلا عائشة، كف حالك وحال الأبناء والزوج؟ هل بول في البيت؟

- نعم، نعم تفضلا سيد بيل.

حين كررت المرأة الاسم، وحين لم يصحّح ويليام الخطأ أدركت يوي أن اسمه الحقيقي هو بيل. صعدوا الدرج ثلاثتهم، تتقدمهم عائشة، فكان بولز في انتظارهم وهو يبتسم:

- ما الذي جاء بك أيها الوحش الأمريكي؟

- جئت أتذوّق خمرتك. أقدّم إليك صديقتي الصينية يوي.

ضحك بولز وويليام وهما يعانقان بعضهما بعضا بحرارة. أبعد ويليام بولز عنه قليلاً ونظر في عينيه بحزن وقال:

- أعزيك في وفاة جين يا بول. لا عليك إننا في هذه الحياة ننتظر كل شيء. هل حزنت كثيراً؟ إن ذلك سيئ لصحتك.

- حزنت على عذابها وليس على موتها. لقد تعذّبت كثيراً بالأدوية والعلاجات المتكرّرة التي لم تؤتِ أي نتيجة.

جاءت عائشة ومدّت لبول أغلفة كبيرة وجرائد أخذها منها ووضعها على طاولة على باب المطبخ. كان يرتدي ثياب البيت ويحاول أن يمشي باستواء، لكن ويليام لاحظ ثقل مشيته. كان لا بدّ أن يضيف شيئًا ما لضيفيه. لكنه مع ذلك كان يفكّر في هذه الزيارة المفاجئة لويليام رفقة فتاة صينية تصغره بسنوات كثيرة. رحّب بهم بول في صالون الضيوف الصغير بكلمات قليلة. ها قد جاء ويليام من الطرف الآخر من العالم، وجنبه فتاة هي الأخرى من أقصى الأطراف. تخلّصت يوي من حقيبة صغيرة كانت تحملها على ظهرها، وهي محشوة بقنينة ماء ومحفظة نقود صغيرة وعلبة سجائر. وضعت الحقيبة جنبها وبقيت تنظر إلى بول بولز.

لم تكن يوي تعرف حقًّا من هو بول بولز. وحين كلمها ويليام عنه، بقيت تشعر أنها لا تعرف الشيء الكثير عنه. وها هي الآن أمامه، تنظر إليه وتحدّثه، وتستمع لكلماته، وتنظر إلى حركاته، وتسمع أنفاسه المتتابعة. اجتاحتها رغبة في توجيه هذا السؤال له: «من أنت سيد بول بولز؟». بالتأكيد إن هذا الرجل هو شيء آخر يختلف قليلا عما قاله عنه ويليام. لكنها تراجعت قليلا عن طرح السؤال لأنه من المحتمل أن يجيبها هكذا: «أنا نفسي لا أعرف من أكون». وليس غريبًا ألا يعرف من يكون. فمن منّا

يعرف حقّاً من يكون؟ وسط زوبعة هذه الأفكار مالت يوي إلى الأمام وخاطبت بول:

- أنا آسفة سيد بول، لكن ينبغي أن أدعوك إلى عدم الحزن مطولا لموت جين.
- إن حزني ليس عن موتها لكن عن إلى أين ذهبت. إنه أمر مأساوي حقّاً ألا نعرف إلى أين يذهب موتانا. إنها مريضة أشدّ ما يكون المرض ورحلت لوحدها. إنها لا تستطيع البقاء وحيدة. هي في حاجة قُصوى إلى المساعدة. تصوري أنها لا تستطيع شرب كأس من الماء. بل لا تستطيع حتى قول: أريد كأساً من الماء، إن حلقي جاف.
- أنا لا أعرف شيئاً عن مرضها وعن حالتها. لكن ويليام حدّثني عنها كثيراً إلى درجة تولّدت لديّ رغبة في زيارة قبرها.

لاحظت يوي وويليام أن الحزن بدأ يعصف ببول. لقد تغيّر لون وجهه وبدأ يحرك يديه بطريقة غريبة، فأحياناً يضعهما على جبينه وأحياناً أخرى يمسك بهما وجهه كاملا. بقي يجول بنظره في الغرفة والممر، ينظر ويعيد النظر كأنه ينظر إلى المكان الذي عاشت فيه جين ثم مضت.

البيت عالم في ذاته. يجب طرح هذا السؤال: ما هو البيت؟ يا له من سؤال. البيت عالم صغير يحتوينا، كوكبٌ صغير داخل عالم واسع. نحن

لا نعرف ما هو بالضبط. لكننا نحيا داخله ثم نمضي إلى عالم آخر، وقد نودّع بيتنا أو لا نودّعه.

جالت يوي هي الأخرى بعينيها في الأرجاء وتوقّفت في الأماكن التي خطفت عيني بول، وحين نظرت إلى ويليام وجدته يتأملها بغرابة. فتح بول غلاف كتاب كان جنبه. لم يكن مجرد غلاف، بل هو بابٌ يُفضي إلى عالم كامل. أغلق بول الغلاف، أغلق الباب، ثم عاد وفتحه مرة ثانية، ثم ثالثة، فأخرج بطاقة فيها منظر شاطئ من شواطئ الجنوب المغربي. كانت السماء في البطاقة صافية الزرقة فوق السقوف، وفي الأفق تظهر غيوم قليلة متفرقة ومتلاشية. وجنب جدارٍ طيني تجلس نساء وأطفال يلهون أمامهن. قلب بول البطاقة وقرأ: أجمل تهانيَّ بمناسبة عيد ميلادك يا بول. ترومان كابوت.

كان التعليق الوحيد لويليام:

- منذ متى لم ترَ ترومان يا بول؟
- منذ أربع سنوات. التقيت به في باريس بمناسبة عرض مسرحية بكيت «نهاية اللعبة».

عاد بول ليتأمّل الغيوم القليلة في سماء القرية الجنوبية. إن شئنا الدقة إنها بقايا غيوم سوداء ثقيلة اختفت وتركت وراءها هذه الآثار البيضاء الشبيهة بشريط الدخان الذي تخلفه الطائرات وراءها.

عاد بول وطرح السؤال على يوي وهو يشير بإصبعه إلى البطاقة:

- ماذا ترين هنا يا يوي؟
- بيت طيني ونساء وأطفال.
- ركزي في السماء.
- يمكن أن نتحدّث عن سماء صافية فوق قرية ساكنة.

تدخّل ويليام:

- لا يمكن تخيّل سهول الجنوب دون تلك السماء الصافية والغيوم الخفيفة المتلاشية.

قالت يوي وهي تتذكّر عنوانـاً لإحدى روايات بول سبق إن ذكرها ويليام:

- نعم، إنها سماء واقية.

ابتسم بول وقال:

- أشكرك على هذه الإحالة اللطيفة. تلك المدن في الجنوب شبيهة بالمحرقة. والغيوم يحبّها الناس كثيراً.

أضافت يوي:

- في جنوب الصين الناس يعتبرون السماء التي بلا غيوم هي في حالة خطر شديد. لذلك فهم يؤمنون بأن الله خلق الغيوم لتأتي في حالة إسعاف للسماء والأفق. الغيوم تبقي السماء حيّة على الدّوام.

مال ويليام إلى الأمام قليلا وهو مندهش من معرفة يوي بهذه الأمور الشاعرية الغامضة:

- نحن لا نستطيع معرفة السماء إلا بواسطة الغيوم.

جاء دور بول:

- كلّا، ليس هذا فقط. لولا تلك الغيوم لما التقط المصور هذه الصورة. إن الغيوم المتلاشية هي مركز الصور ودلالتها العميقة. لذلك فهي في نظره ليست غيوماً، بل أثراً.

يوي:

- أوافقك، الغيمة صفة ثانوية، لكن الأثر صفة جوهرية على ما أعتقد. إنها أثر وحقيقة فعلية لشيء أصلي: الغيمة.

ابتسم ويليام معجباً بقدرة يوي على الخوض في مسائل تأويلية مثل هذه:

- الصينيون لا يفقدون شاعريتهم وقدرتهم على التأويل، فيما أعتقد.

علّق بول:

- تتكلّم يوي، كما ألاحظ، لتجرّب أفكارها. ونحن حين نجرب الأفكار نرى أنها تتوالد بشكل غير متوقّع، والصينيون بارعون في ذلك.

ويليام بسرعة:

- لقد أزحنا السماء، والنساء، والأطفال، والبيوت الطينية، وركّزنا على الغيوم المتلاشية الشبيهة بالأثر. لماذا؟

يوي:

- علينا التركيز على الشيء المتلاشي.

بول:

- إن وجود الغيمة المتلاشية تُدرَك بوضوح أكثر من أي شيء آخر موجود في الصورة. أكثر من النساء والأطفال والبيوت الواطئة.

ويليام:

- وعلى ذلك، فأنا لم أعد واثقاً من وجود كل ذلك. إنها «الغيمة الواقية».ههه.

يوي:

- كل ما نراه في الصورة هو نتيجة لتلك الغيمة. هذا ما أراد أن يقوله المصوّر.

بول:

- تعرفان لماذا؟ لأن الغيوم ماثلة بقوة في لاشعورنا. لذلك نحن نراها تطغى على كل الموجودات.

جاءت عائشة ووضعت أمام ضيفي بول مائدة صغيرة، ثم قامت بصبّ الشاي. طلب ويليام كأس ويسكي. نظرت يوي إلى ساعتها اليدوية، هي

من مقتنيات جولاتها في البحار والموانئ. نهضت ونظرت من النافذة باتجاه الرصيف. تاركة بذلك المجال لبول وويليام كي يتحدّثا في أمور تخصّهما. وعندما التفتت رأت ويليام يمدّ لبول غلافاً صغيراً يبدو أن في داخله أوراقاً نقدية. ثم قال له:

- هذا نصف المبلغ يا بول. اقبله منّي وسأضيف النصف الآخر حين تتحسّن ظروفي.

ابتسم بول ومدّ يده لأخذ الغلاف:

- نصف المبلغ قادم في الطريق. لا تقلق.

لم يفهم ما قصده بول بـ«قادم في الطريق»، لكنه لم يسأل. فقط استسلم للذّة شعوره بأنه نجح في استرداد علاقته ببول التي تلاشت مثل الغيمة في البطاقة التي خاضوا في تأمّلها قبل قليل. ثم أضاف:

- نحن ضيوف الأرض نبالغ في عبادة المال. إنه لا شيء. فبعد طول تفكّر ندرك أنه غيمة متلاشية. بول:

- لكنها غيمة واقية يا بيل. ههه.

للمرّة الثانية تسمع يوي اسم بيل يُطلق على شخص عرفته هي باسم ويليام. إنها الأسماء حين تتغيّر داخل ازدواجية متّفق عليها. استوت على مقعدها بحيث أحسّت براحة أكثر. هي أيضاً، انطلاقاً من خلفيتها الصينية، ترى أنه يمكن التخلي عن الأسماء التي أطلقها علينا آباؤنا. إنها

تقبل بفكرة تغيير الأسماء أو إطلاق أسماء ثانية حين نضطر إلى ذلك، أو فقط حين يروقنا الأمر.

بسرعة نسي ويليام ما يدور من نقاش بينهم، فعاد إلى كأسه فحملها وصبّ لنفسه ثم أشعل سيجارة وسعل بقوة حتى احمرّ وجهه. نزع قبعته ووضعها جنبه وتجرّع من الكأس. أحسّ بنفسه خفيفاً وسعيداً. من أين تأتي السعادة؟ إنها تكون غائبة وفجأة تأتي من كل الجهات، وتغمرنا وتغيّر لون وجهنا، وتجعل ثيّابنا نظيفة، وحركاتنا رشيقة، وكلماتنا مرصّعة بالنجوم، وروائحنا طيبة. لكن من أين تأتي حتى نراها قادمة وترانا ننتظرها؟ كل شيء يمكن أن يحدث وفي أي لحظة. في كل لحظة ينبثق شيء ما.

***

«السماء المرصعة بالنجوم فوقي والقانون الأخلاقي في داخل نفسي».

كانط

شكري ونوتوهارا

غادر هذا المجهول (بالنسبة ليوي) الذي اسمه ويليام، وهذه المجهولة (بالنسبة لويليام) التي اسمها يوي بيت بول بولز. كانت الجلسة طويلة وممتعة، لكن مرهقة أيضاً، لأن الحوار بينهم حول الصورة

الموجودة في البطاقة البريدية كان سحريّاً إلى حدٍّ مّا. لقد غرقوا في فراغات حاول كل واحدٍ منهم ملأها بأي شيء يملكه بين ثنايا عقله. لم تكن يوي وحدها من شعرت بقوة الانغماس الجيّد داخل التفكير الأدبي والفني، بل بول ووِيليام أيضاً. لكن فراغات كثيرة امتلأت فعلا حين ذهب ويليام ويوي لمقهى نيغريسكو والتقيا فيه بمحمد شكري رفقة أستاذ ياباني كبير اسمه نوبواكي نوتوهارا، جاء إلى طنجة للقاء بمحمد شكري قصد إتمام ترجمة روايته «الخبز الحافي». حاول ويليام اجتناب شكري لكن يوي ركزّت نظرها على نوبواكي، فلأول مرّة، منذ نزولها من السفينة، ترى في طنجة ملامح مثل ملامحها. حينها لوّح شكري لهما فتقدّما نحوهما وجلسا على طاولتهما.

تساءل ويليام: تُرى لأي هدف يجلس شكري ونوتوهارا معاً؟ خصوصاً بعد أن عرف أن هذا الياباني هو المستعرب الذائع الصيت، الذي عاشر العرب طيلة أربعين سنة. كان ويليام يريد أن يجلس هو ويوي لوحدهما في طاولة مستقلّة، لكنه لم يرد أن تنشأ شكوكٌ حادّة في نفس شكري أو نوتوهارا. خصوصاً أن شكري أصبح منذ مدّة كثير الظنون تجاه الأمريكيين منذ أن اهتزّت علاقته ببول بولز. فأصبح ملزماً بمراوغة أيّ صدفة يمكنها أن تجمعهما معاً.

كان شكري قد بدأ يبحث عن كلمات جديدة وأفكار مغايرة من شأنها أن تصنع له صورة جديدة. أصبحت تتحرّك داخله مشاعر كثيرة متضاربة لم يعرفها من قبل. لا أستطيع شرح هذه المسألة المعقّدة، لكنني سأحاول تقديمها بالبساطة المطلوبة، مع بعض التحفّظ على النتائج. ذلك لأنني لا أعرف شكري من قمّة الرّأس إلى أخمص القدمين. وإنها ستكون معجزة إذا قلت كلاماً عنه وتبيّن لنا جميعاً أنه صحيح. وإنها ستكون بالنسبة لي لذة تفوق كل اللذّات. وحتى لا أفسد هذا الأمر على نفسي، فإنني سأتكلّم عنه بحذر وبطء شديد.

كم كان شكري رائعاً وهو يجلس جنب صديقه ومترجمه الياباني. وكم بدا متحضّراً وجذّاباً حين جلست يوي وبدأ يوجّه إليها نظراته وكلماته الخفيفة والقوية في آن. وكم بدا دبلوماسياً حين يعلّق على كلام لويليام الذي كان يجلس بمظهر شخص مستعدّ للمغادرة في أي لحظة.

كان شكري يردّ على كلام ويليام بتعبير تكرّر كثيراً في الجلسة وأثار ريبة ويليام: «لِمَ لا؟». لِمَ لا، كلمتان شائكتان وسطيّتان لا تعنيان شيئاً بالتحديد. كان الحديث الذي جمع بين بول وويليام ويوي شيّقاً وواضحاً، لكن مائدة الكلام هذه التي تجمع شكري ونوتوهارا وويليام ويوي لم تسجّل كلاماً واضحاً وأفكاراً مفيدة.

لم تعرف يوي إلى أين تنظر. ولم يعرف ويليام كيف يتحدّث إلى نوتوهارا الصامت والمبتسم طوال الوقت. فبقيت يوي تتأمل حيطان المقهى ناصعة البياض، وإلى السقف الأزرق زرقة السماء. لكن دعوني أخبركم أن ما كان يهمّ نوتاهارا هو محمد شكري المتحدّث دومًا، والمدخّن الشّره، والعديد من الأشياء التي يقوم بها. ينظر إليه ويفكّر في رواية «الخبز الحافي» الموجودة في حقيبته الجلدية السوداء. ومهما يكن من أمر، فإن ويليام ويوي مستعدّان للنهوض ومغادرة المقهى إلى أمكنة أخرى لا يعرفان أين تكون.

تحدّث شكري عن «الخبز الحافي» بطريقة شاعرية. فهو دومًا يستعمل أجمل الألفاظ لوصف هذه الرواية التي يوجد من خلالها. وجّه نوتاهارا ملاحظات كثيرة تهم الرواية العربية. في هذه اللحظة نهض ويليام ويوي، صافحا شكري ونوتاهارا وانصرفا. ودّعهما شكري بابتسامة. كم كانت خرقاء تلك الابتسامة. وحين اجتازا باب المقهى نظر شكري ونوتاهارا إلى بعضهما بعضا. ولم يجد شكري شيئًا يقوله غير هذا: «ويليام بوروز صديقي القديم»، ثم استأنفا حديثهما عن ترجمة «الخبز الحافي».

ألقى نوتوهارا نظرة على ساعته، فوجد أن الزمن مضى بسرعة، إنها السادسة مساء. بادر شكري بسؤاله:

- «الخبز الحافي» الآن بين يديك، بعد أن أسقطنا جلّ الأسئلة التي يمكن أن تُعيق عملك.

نوتاهارا مبتسماً:

- نعم، لم يعد يمارس سيطرته عليّ كما في السابق.

شكري بخفّة:

- إلى أي حدّ كان يسيطر عليك، وإلى أيّ حدّ أنت الآن تسيطر عليه؟

وجّه نوتوهارا نظره نحو الخارج:

- لقد أصبحتُ مؤلفاً مشاركاً وليس مجرد مترجم. وتلك آخر معركة يمكن أن ينتصر أو يُهزم فيها المترجم.

شكري يسأل بحذر:

- ما هي الصعوبات التي يمكن أن تعترض المترجم وهو ينقل «الخبز الحافي»؟

نوتوهارا باختصار:

- أنا كنت أسمع في سيرتك الذاتية أصواتاً كثيرة كأنها آتية من العالم كله. لذلك أنا أُشبّه مثل هذه الكتب بالـ«آغورا» التي يُقال ويُسمع فيها كلام كثير مختلف ومتنوع، غامض وواضح، قريب وبعيد، صدى ورجع الصدى. وفي الحقيقة تلك هي خاصية أدب «الذات العميقة» بحسب تعبير بروست.

شكري بنبرة شبيهة بنبرة نوتوهارا المتفلسفة:

- أردت أن أصرخ: العالم شاخ. والصراخ يُسمع قوياً في الساحات. لذلك فتشبيهك لكتابي بـ«آغورا» صحيح إلى حدّ بعيد. كنت أشعر أنني واقف في مركز ساحة كبيرة، والناس يحيطون بي، فجثوتُ على ركبتيّ وصرخت: العالم شاخ. وبعد كل صرخة أشعر بشيء قريب إلى حدّ ما من الإحساس الديني الذي يُسمّى «سلام النفس». كنت أشعر أنني لن أصل أبداً إلى شاطئ الأمان، وأن مركبي الصغير المتهالك سيتحطّم قريبا. لذلك تلاحظ أن وتيرة الكتابة سريعة ومتهافتة. والأكثر تعذيباً أن صراخي كان يتردّد بقوة أكبر داخل أرجاء نفسي. هذه هي نفسية «الخبز الحافي». ولم أدركها إلا بعد مرور سنوات من تأليفه.

نوتاهارا:

- هل قرأت سيرة المفكر زكي نجيب محمود «سيرة نفس»؟ لقد أصاب بهذه التسمية. كل سيرة ذاتية هي حكي سيري عن النفس.

شكري:

- نعم قرأتها وأثارني عنوانها فقط، فقد اختاره بذكاء. إنها سيرة جذّابة جدّاً.

نوتوهارا:

- ومع ذلك، فإنني أعتبر شخصيات سيرتك، بما فيها أنت، مخلوقات خيالية، لأحتفظ بحقّي في عدم تصديق أي شيء.

شكري ضاحكاً:

- أنا معجب برأيك رغم أنه مفرط في التفلسف. لكن هناك شيء آخر أنا وأنت في حاجة إلى معرفته، وهو أننا حين نؤلّف الكتب نفعل ذلك بعنف شديد. ويمكن أن نضيف الإصرار أيضاً.

تحرّك نوتوهارا في مكانه كأنه يريد أن ينهض. من خلال الفترة القصيرة التي عرفه فيها شكري، أدرك أنه رجل يحبّ التجوال. نادى شكري على النادل وأدى ثمن القهوة واتجها نحو الخارج.

يعرف نوتوهارا كيف يجتنب الثرثرة، أو على الأصح كيف يجتنب الكلمات التي حين تغلّف الأفكار تصبح مجرّد ثرثرة. وهو يعلم أن المتحدّث حين يجتنب الثرثرة يصبح مسيطراً دون منافس. كان في البداية يتجوّل مع شكري في الأمكنة التي تمّ ذكرها ووصفها في «الخبز الحافي»، وبعد ذلك أصبح يتجول فيها لوحده. أمكنة كان يسيطر عليها الهدوء الشامل قبل أن تصبح فريسة لضجيج الأقدام والألسنة وحركة المرور في الشوارع. وفي مساء كل يوم يتناول العشاء مع شكري في مطعم «الدورادو»، هو يتحدّث عما ترجمه في الصباح وعن الأمكنة التي زارها

في طنجة، وشكري ينتشي أمامه ويبتسم وهو ينصت لأناقة الكلمة والفكرة التي تخرج من فم نوتوهارا.

لم يكن نوتوهارا ميّالاً إلى مقابلة الناس، فقد التقى العديد منهم في حياته. ولولا خوفه من غضب شكري لقال له ما كان يفكّر فيه باستمرار: «لو هؤلاء الناس يتركونني في حالي. لقد جئت هنا لغايتين: العمل والراحة». في تلك الأمسية لم يكن شكري قد وصل إلى «الدورادو» بعد. لكن نوتوهارا وصل وطلب قنينة ماء ودخّن سيجارة وجال بنظره في المطعم المليء بالزوار الأجانب. ظلّ يفكّر في إيجاد جوابٍ عن سؤال: لماذا يمتلئ المطعم فجأة بهذا الشكل، ويبقى فارغًا طيلة أيام؟

حين وصل شكري جال بنظره وسط الزحام بحثًا عن نوتوهارا، فوجده جالسًا في مائدة قريبة من الزاوية. ثم تدحرج نحوه مثل كرة سكرى. حين جلس جاء نادل المطعم مسرعًا، حينها كان شكري منشغلا بقراءة ملصق يدعو إلى حضور حفلة موسيقية لفرقة أندلسية. لم يعطه انتباهًا وقال لنوتوهارا:

- سحب سوداء ضخمة آتية من سهول طنجة الجنوبية. المدينة الآن تحت رحمة سحب ثقيلة.

قال نوتوهارا:

- شعرت بأن هناك زوبعة في الجو.

النادل اليهودي «كارلو» واقف ينتظر أن يطلبا شيئًا، لكن شكري بقي يتجاهله وقال لصديقه الياباني:

- الطقس سيئ جدّاً هذه السنة. طبقات السماء مخنوقة، والناس تضرّروا كثيراً. إني أحتفظ بذكريات من ماضي طنجة، لم تكن يومًا هكذا.

حين استدار «كارلو» متجهًا نحو زبائن نادوا عليه، بادره شكري بالطلب:

- يا كارلو، هات زجاجة بيرة باردة.

التفت وقال بكل أدب:

- حاضر سيد شكري.

تابع نوتوهارا متحدّثًا وهو ينظر من النافذة:

- انظر، لقد ظهرت النجوم في السماء، أين ذهبت السحب الثقيلة؟

أجاب شكري وهو منشغل بصب البيرة في الكأس الطويل الذي يشبه الأنبوب:

- ستُحجب النجوم من جديد، السحب السوداء هي قانون السماء هذه الليلة.

قال نوتوهارا وهو يشعل سيجارة:

- هذا القانون الذي في السماء أحسّه داخل نفسي. نفس الأمر أستشعره تحت سماء طوكيو.

غيّر شكري الموضوع:

- لم تطلب شيئًا للاكل؟ أشعر بجوع فظيع.

أجاب نوتوهارا:

- أسلوب خدمتهم ثقيل جدّاً. حتى لو كنت في قاع البحر كان سيصلني ما طلبت. وطلبي في النهاية بسيط: سمك وسلطة.

أضاف شكري وهو يضحك:

- هذا المطعم الجميل فيه من الغرابة ما يدهشني. فهو يبدي لزبائنه مظاهر الاحترام التقليدية، لكنه لا يخدمهم بشكل جيّد.

شعر شكري بطعم سُكّري في البيرة فقرر تغيرها بالنبيذ الأحمر. حين طلبه بإيماءات من يده جاء النادل بالطلب سريعًا. صبّ شكري كأسًا له وأخرى لنوتوهارا. حملها ببطء نحو شفتيه، هذا هو الطعم الذي يبحث عنه من أجل نشوته. أحدثت الكأس الأولى تأثيراً غريبًا. سمع نوتوهارا الأصوات الداخلية لشكري، فوافقه الرأي بهزّة من رأسه. وهو يصب كأسين وضع النادل طبق السمك الشهي. نظر إليه نوتوهارا وقال:

- لا تنسَ أنني في الخمسين من العمر، والسمك هو الطعام المناسب لي. إن جسدنا يصبح مشدوداً إلى قُطبين، قطب الصحة القديمة،

عافية الشباب التي يودّعها يومـاً بعد آخر، وقُطب الطاقة والرغبة الجديدة، وهو قطب الجسد المنهك.

رفع شكري كأسه وهو يضحك:

- مثل هذه الكأس تجعل الوتر مشدوداً بين القطبين. أنا غامرت بجسدي كثيراً، لكن مغامراتي كانت بريئة. وكم من مرة استمعت لاعتراضات جسدي الضئيل دون أن أعيرها انتباهـاً.

كانت عينا نوتوهارا تركّزان على شفتي شكري المبلّلتين بالنبيذ. كان يبدو كمن يقصّ حكاية. كان شديد الجدّية، لكن لم يعرف لماذا شعر بأن شكري يقول أشياء غير مسرور بها هو نفسه. وسبب ذلك ربّما هو جسده الذي يزداد نحولا، وحركاته التي أصبحت أكثر توتّراً. علمـاً أن من عادات شكري أن يكون مرحـاً حين يختلط بالأجانب.

لم يرَ نوتوهارا في حياته أغرب من هذا الكاتب الذي يجلس أمامه. ولإضفاء جوٍّ من العمل على لقائهما قال له:

- منذ مدّة لم يكن أحدنا بعيداً عن الآخر. لذلك أصبح كلّ واحدٍ منّا واضحـاً للآخر.

تبادل شكري ونوتوهارا العديد من الرسائل منذ زمن طويل. فأصبح الكاتب والمترجم الياباني يعرف، عمليـاً وأدبيـاً، أشياء كثيرة عن الكاتب المغربي. ولمّا قرّر الشروع في ترجمة «الخبز الحافي» قدّم طلبـاً لوزارة

الثقافة الياباني، أرفقه بملف كامل عن مكانة «الخبز الحافي» في السرد العربي الحديث. ولما تلقّى الموافقة، التي كانت سريعة وبتمويل معقول، قرّر السفر إلى طنجة للقاء بشكري والبدء في الترجمة. وحين التقى شكري اعتبر اللقاء هدية صغيرة منحتها له هذه الحياة المتقلّبة بين تقديم الجيّد والسيئ. لذلك كان يعتبر أن لقاءه به هو لقاء مع هدية نادرة.

يقضي نوتوهارا الصباح وفترة قصيرة بعد الظهر في غرفته بالفندق يترجم «الخبز الحافي». وفي المساء يلتقي شكري ليقوما بجولة في بعض الأمكنة التي كان يعتبرها شيئاً خاصّاً به. لكن شكري كان يشعر بطريقة غامضة أن المستعرب الياباني يعمل على تأليف شيء آخر غير الترجمة. وقد شعر شكري أول مرة بهذا الأمر حين شرع يوّجه له أسئلة لا علاقة لها بالترجمة، من قبيل: لماذا يشعر الفرد العربي بالاختناق؟ لماذا لا تعامل الحكومات العربية شعوبها بجدّية؟ لماذا تسخر منهم بهذه الطريقة البشعة؟ لماذا العرب مقتنعون إلى هذا الحدّ بأن الدين هو كل شيء؟ لماذا الشوارع العربية مليئة بالنظرات العدوانية؟ لماذا الفرد العربي مغفّل إلى هذا الحدّ؟

لم يكن محمد شكري يجد بما يردّ على هذه الأسئلة الاجتماعية والسياسية. بل إن ما يسيئه هو إحساسه بكونه موضوعاً لأسئلة وملاحظات نوتوهارا، فهو عربي وتصدُق عليه تلك الملاحظات

الاجتماعية والنفسية العميقة، باستثناء ما يتعلّق منها بالدين. ولاختصار المسافة إلى عقل نوتوهارا طرح شكري عليه هذا السؤال المباشر:

- أنت يا سيد نوتوهارا، تطرح عليّ أسئلة كثيرة. التي تتعلق بي وبكتابي أجيب عنها، أما الأخرى فأنا أستغرب لماذا تطرحها عليّ.

فأجابه نوتوهارا وكأنه كان ينتظر هذه الصّد:

- نحن في اليابان نسمع عنكم الشيء الكثير من الغرب. فقرّرت أن أعرف كل شيء بطريقة مباشرة، من خلال قراءة أدبكم، ومعاشرتكم في مدنكم وبواديكم.

الساعة الثامنة، ثم التاسعة، ثم العاشرة ومازال شكري ونوتوهارا في مطعم «الدورادو» يقلّبان أفكارهما. بدا الزمن كما لو أنه لا يتحرّك. وكانت السحب الثقيلة ما زالت تجثم على طنجة. وجد كل من شكري ونوتوهارا أنه حان الوقت للانتقال إلى شيء آخر في الحديث والأكل والشرب. شعرا بأن يومهما هذا هو يوم عطلة. نظر شكري إلى جليسه الياباني وقد ظهرت عليه علامات السكر:

- إنّها الحاديةَ عشرةَ. لقد وُلِدتُ ذات يومٍ في مثل هذه السّاعة، لذلك ظلّت هذه الساعةُ زمنَ انتشائي الدّائم. كلّما دقّت أشعرُ بشيء ما حلّ في عقلي، شيءٍ مختلفٍ وعظيم. أتغيّرُ تماماً عمّا كنتُ عليه في السّاعات السّابقة. كنتُ قبل قليل مشغولاً بأفكار سوداء،

حدثتُكَ عن السُّحب السّوداء والطّقس السّيئ. خفتُ على السُّفن في البحر، وعلى النّاس في الشّوارع والبيوت. وها أنا الآن، مع حلول السّاعة الحاديةَ عشرة، أعود إلى حماقاتي المألوفة. هل ستودّعني الآن؟ أرى أنّك تُعيد علبةَ سجائرك إلى الجيب، وتُخرج محفظة نقودك من أجل الأداء! لا تفعل ذلك رجاء يا نوتوهارا، أنت مدعوٌّ عندي كلّما دقّت الحاديةَ عشرةَ ليلًا، فرجاء اقبلْ دعوتي. عُدْ إلى مكانك، وضعْ علبة سجائرك على الطّاولة، واشرب معي كأسًا آخر. ما أحلاها ستكون!

الرباط– بكين 2018